

ذخائر العرب

١٦

ذخائر العرب

١٦

ثلاث رسائل فداء لاعجاز القرآن

دار المعارف

١١,٧
ربيع

ثلاث رسائل

فداء لاعجاز القرآن

للترماني والخطابي وعبدالفاهر الجرجاني

في الدراسات القرآنية والتقد الأدبي

حقها وعلق عليها

دكتور محمد زغول سلام

كلية الآداب بجامعة القاهرة
(فرع الخرطوم)

محمد خلف الله أحمد

عييد معهد الدراسات العربية



دار المعارف بمصر

ثلاث رسائل
فِي عِجَازِ الْفُرْقَانِ

ثلاث وسائل

فلا يُجاز القرآن

للرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني

في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي

حققتها وعلق عليها

دكتور محمد زغلول سلام

محمد خلف الله

أستاذ اللغة العربية وأدابها
جامعة الإسكندرية

عميد معهد الدراسات العربية
سابقاً

الطبعة الثالثة



19904



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

يمثل القرنان الهجريان الرابع والخامس مرحلة خصبة في تاريخ الدراسات القرآنية والنقدية . ففيهما نضجت نظريات العلماء في إعجاز القرآن ، وتحددت اتجاهاتهم ومنازعهم في الكشف عن أسراره . وقد وفقنا الله منذ ثلاث سنوات إلى تحقيق ثلاث رسائل في الإعجاز تصور هذه المنازع إحداها لأديب لغوی محدث ، والثانية لذھوی متكلم معترى ، والثالثة لبلاغی شافعی محدث نفاذ الطبعتين الأولى والثانية لهذه الرسائل على عنایة الدارسين بها ، وحرصهم على الإفادة منها ، فكان مشجعاً لنا على إعادة طبعها للمرة الثالثة . وقد نشرت منذ الطبعة الأولى كتب في دراسات القرآن وإعجازه ، نشير إلى بعضها هنا لأهميته واتصاله بموضوع هذه الرسائل :

فال الأول كتاب « إعجاز القرآن » لابن عبيدة العالم اللغوي المعروف ، وهو من أول الدراسات القرآنية التي ظهر فيها الاتجاه إلى الكشف عن أسلوب القرآن . ونشره الخانجي بمصر سنة ١٩٥٥ .

والثاني كتاب « معانى القرآن » للفرا العالم اللغوي الكوفى وقد غلب على الكتاب اتجاهه اللغوي ، وعني أكثر ما عنى بالقراءات وتوجيهها ؛ ونشرته دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٥ .

والثالث كتاب « بيان مشكل القرآن » لابن قتيبة العالم اللغوي الأديب صاحب المعرف ، وأدب الكاتب ، وعيون الأخبار ، والشعر والشعراء . وهو كتاب جليل يغلب عليه الطابع الأدبي اللغوي . وإن لم يخل أحياناً من الالتفاتات الفقهية ، وهو مهم في موضوع صلة دراسات أسلوب القرآن بالنقد العربي ،

والدك فهود أقرب هذه الكتب جمِيعاً إلى موضوع الرسائل الثلاث التي عنينا
بنشرها . وقد نشره عيسى البابي الحلبي بتحقيق السيد صقر سنة ١٩٥٥ م .
والرابع منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه . تأليف مصطفى
الساوى الجويني وطبع دار المعارف سنة ١٩٥٩ م ، وهو رسالة ماجستير
٩، الآداب من قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية .
والخامس كتاب «المغني» للقاضى عبد الجبار . من سلسلة تراثنا .
وال السادس كتاب «نكت الإنتمار لنقل القرآن» للإمام الباقلانى
بتتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام وطبع منشأة المعارف بالاسكندرية
سنة ١٩٧٣ .

وهكذا تسير حركة التحقيق والنشر العلمى للمكتبة القرأنية والدرس
النقائى لأعلام مؤلفيها فتهيئ السبيل لتطور الدراسات القرأنية وتصل بين
الآباءين المحدثين وتراثهم الإسلامي المجيد .

محمد خلف الله محمد زغلول سلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

من الظواهر التي تنبه لها البحث الحديث . وما كان بين دراسات القرآن ودراسات النقد والبلاغة العربية من صلات وتأثير متبادل . ومما لفت الباحثين إلى هذه الناحية مالاحظوه في كتب النقد والبلاغة – وعلى الأخص ما ألف منها في القرون الوسطى الهجرية^(١) – من تلاقٍ تياراتٍ كبيرٍ ينبع أحدهما من ظواهر البلاغة القرآنية ، والآخر من خواص الجودة الأدبية في الشعر والنشر .

وقد وجه قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية شطراً كبيراً من عنایته إلى هذه الدراسة^(٢) ، ولفت إليها أنظار طلابه وخريجيه ، فتناول بعضهم نواحي منها في رسائلهم لشهادتهم العليا^(٣) ، وذهب بعضاً منهم ينقب عن مخطوطات المكتبة القرآنية لينشر منها ما يلقى ضوءاً على هذه الناحية .

ورأينا أن نشارك في هذا الجهد بنشر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، مؤلفين تباينت وجهات نظرهم ، وختلفت منازعهم : فأحدهم أديب لغوي محدث ، وثانيهم نحوى متكلم محترز ، وثالثهم سُنّي شافعى .

(١) يبدو هذا جلياً في كتاب الصناعتين « لأبي هلال العسكري (القرن الرابع) » ، وكتاب « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجاني ، و« سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجي (القرن الخامس) ، و« المثل السائر » لضياء الدين بن الأثير (القرن السابع) ، وكتاب الطراز لبيحيى بن حمزة العلوي (القرن الثامن) .

(٢) من هذا ، البحث الذى قدمه م . خلف الله للمؤتمر الدولى الحادى والعشرين للمشترين فى باريس سنة ١٩٤٨ م ، : موضوعه : « نظرية عبد القاهر الجرجاني في (أسرار البلاغة) » ، والبحث الذى قدمه للمؤتمر الدولى الثانى والعشرين باستانبول سنة ١٩٥١ م وعنوانه : « الدراسات القرآنية كعامل في تطور النقد العربي » وقد نشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب العدد السادس سنة ١٩٥٣ م .

(٣) قدم م . زغلول رسالة بجامعة الإسكندرية منح من أجلها درجة الماجستير في الأدب ، مع مرتبة الشرف الأولى موضوعها : « أثر دراسات القرآن في تطور النقد العربي في القرنين الثالث والرابع الهجريين ونشرته دار المعارف سنة ١٩٥٥ .

أما الأديب اللغوي المحدث فهو أبو سليمان حمْدُ^(١) بن محمد بن إبراهيم الخطابي^(٢) البُسْتَى . ولد في رجب عام ٣١٩ هـ ، وأقام ببُسْتَى وتوفى فيها وإليها نسب .

نشأ محباً للعلم ، فاجتهد لتحصيله من كل سبيل ، وظوف من أجله في البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً للتزوّد من العلماء الأجلاء ؛ رحل إلى العراق وتلقى العلوم بالبصرة وبغداد ، وذهب إلى الحجاز وأقام بمكة رحراً من الزمان ، وعاد إلى خراسان ، واستقر به المقام في نيسابور عامين أو أكثر ، وصنف بها بعض كتبه ، ثم خرج إلى ما وراء النهر ، وانتهت به الرحلة إلى مدينة بست ، فلما قام بقية حياته وفيها توفي .

وكان رجلاً عفّاً صالحًا كريماً ، يتجرّ فيها يملأ من الحلال ، وينفق من سعة على العلماء من إخوانه ومربييه .

وقد أخذ العلم عن البارزين من علماء عصره ، ورحل في طلب الحديث على أمته ، واجتهد فيه حتى صار إماماً .

وتعلم الفقه على أبي بكر القفال الشاشي وأبي علي بن أبي هريرة وغيرهما من فقهاء الشافعية . ومن شيوخه في اللغة والأدب نخبة من علماء بغداد في عصره نذكر منهم إسماعيل الصفار ، وأبا عمر الراهد ، وأبا العباس الأصم ، وأحمد بن سليمان النجّار ، وأبا عمرو السمّاك ، . . . وغيرهم .

وروى عنه خلق منهم ، أبو مسعود الحسن بن محمد الكراibiسي البُسْتَى ، وأبو بكر محمد بن الحسن المقرئ ، وأبو الحسن علي بن الحسن الفقيه السجّري^(٤) وأبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله النسّوي ، وأبو حامد الإسقرايني والحاكم النّيسابوري ، . . . وغيرهم .

(١) يذكره بعض من ترجم له باسم أحمد ، ونفهم ياقوت والسمعاني ، وذكر أنه سُئل عن ، اسمه، أحمد ، أو حمد فقال : سميت بحمد وكتب الناس أحمد .

(٢) نسبة إلى زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطاب . (٣) وهي مدينة من بلاد كابل .

(٤) وهو راوية النسخة التي بين أيدينا « بيان إعجاز القرآن » .

وَكَانَتْ مَكَانَتُهُ فِي الْعِلْمِ مَرْمُوقَةً ، إِذْ أَثْنَى عَلَيْهِ مُعَاصِرُوهُ ، وَلَهُجَّ بِفَضْلِهِ
الشَّعَرَاءُ . قَالَ السَّمْعَانِي ، « إِمَامٌ فَاضِلٌ كَبِيرٌ الشَّانِ جَلِيلُ الْقَدْرِ » . وَقَالَ
فِيهِ الشَّعَالِي شِعْرًا ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ أَشَادُوا بِهِ وَذَكَرُوهُ وَمَجَدُوهُ وَقَالُوا فِيهِ
الشِّعْرُ الْحَافِظُ . أَبُو طَاهِرِ السُّلْفِيِّ الْأَصْبَهَانِيُّ نَزِيلُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَفَقِيهُهَا
وَعَالَمُهَا وَمَحْدُثُهَا فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهِجْرِيِّ ، وَقَدْ شَرَحَ لَهُ مَقْدِمَةُ كِتَابِهِ
« مَعَالِمِ السِّنْنِ » ، وَنَوْهَ بِعِلْمِهِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ مَرْأَةٍ .

وَتَوَفَّى الْخَطَابِيُّ بَعْدَ حَيَاةٍ حَافِلَةً بِالْعِلْمِ وَالْأَدْبِ عَامَ ٣٨٨ هـ^(١) وَمِنْ إِنْتَاجِهِ
شِعْرٌ حَسَنٌ يَرَوِي بِعُضُّهُ الشَّعَالِيَّ فِي يَتِيمَتِهِ ، وَيَنْقُلُ مِنْهُ يَاقُوتَ وَابْنَ الْعَمَادِ
وَالسَّبْكِيَّ وَابْنَ خَلْكَانَ وَغَيْرِهِم مَمْنُ تَرَجَّمُوهُ لَهُ .

وَأَمَّا كِتَبُهُ فَكَثِيرَةٌ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الْحَدِيثُ وَالْفَقِهُ ، وَنَذَرَ فِيهَا يَلِي أَسْمَاءٍ
مَا جَاءَ مِنْهَا فِي كِتَابِ التَّرَاجِمِ الَّتِي رَجَعْنَا إِلَيْهَا وَهِيَ : مَعَالِمِ السِّنْنِ^(٢) ، وَغَرِيبُ
الْحَدِيثِ^(٣) ، وَتَفْسِيرُ أَسْمَاءِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ ، أَوْ شَرْحُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِ^(٤) ،
وَشَرْحُ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ ، وَشَرْحُ الْبَخَارِيِّ ، وَكِتَابُ الْعَزْلَةِ ، أَوْ الْاعْتِصَامِ^(٥) ،
وَإِصْلَاحُ غَلْطِ الْمَحْدُثِينِ^(٦) ، وَكِتَابُ الْعَرَوْسِيِّ ، وَكِتَابُ أَعْلَامِ الْحَدِيثِ^(٧) .
وَكِتَابُ الْغُنْيَةِ عَنِ الْكَلَامِ [وَأَهْلِهِ] ، وَكِتَابُ شَرْحِ دَعْوَاتِ لَبِيِّ خُزِيْمَةِ ، وَبِيَانِ

(١) وَذَكَرَ أَنَّهُ تَوَفَّ فِي عَامِ ٣٨٦ هـ ، وَتَجَدُ تَرْجِمَتُهُ فِي : إِرشَادِ الْأَرِيبِ لِيَاقُوتِ طِيرِجِلِيوْثُ ٢/٢ - ٨١ - ٨٣ ، طِ الرَّفَاعِيٌّ ٤/٢٤٦ ، وَالْأَنْسَابُ لِلْسَّمْعَانِيِّ ٢٠٢ ، وَبِغَيْرِ الْوَعَةِ لِلْسِّيُوطِيِّ ٢٣٩
وَتَذَكَّرَ كِتَابُ الْحِفَاظِ لِلْتَّهْبِيِّ ٢/٢٢٣ - ٢٢٤ ، وَشَذِيرَاتُ الْذَّهَبِ لِابْنِ الْعَمَادِ ٣/١٢٧ ، وَطَبِيقَاتُ الشَّافِعِيِّ
لِلْسَّبْكِيِّ ٢/٢١٨ - ٢٢٢ وَعيُونُ التَّارِيخِ لِابْنِ شَاكِرِ (الْتِيمُورِيَّةُ رقمُ ١٣٨٦) ١٢/١٢
وَابْنُ خَلْكَانَ طِ مُحَمَّدِ الدِّينِ ١٥٣/١ - ١٥٥ وَخَزَانَةُ الْأَدْبِ لِلْبَغْدَادِيِّ طِ الصَّاوِيِّ (١٩٣٤) ٤/٣٠١
. ٣١١ .

(٢) وَهُوَ شَرْحُ لِكِتَابِ سِنْنِ أَبِي دَاوُدَ ، وَمِنْهُ نَسْخَةٌ خَطِيَّةٌ بِدارِ الْكِتَبِ ، وَنَسْخَةٌ أُخْرَى بِمَكَاتِبِ
دِيدَانِ الْهَنْدِ وَالْجَزَائِرِ (رَاجِعٌ بِرُوكْلِمَانِ ١٦٦/١) .

(٣) وَقَدْ اسْتَدْرَكَ فِيهِ عَلَى أَبِي عَبِيدِ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَامَ ، وَأَبِي مُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ قَتِيْبَةِ فِي
كِتَابِهِمَا (غَرِيبُ الْحَدِيثِ) وَمِنْهُ نَسْخَةٌ بِمَكَاتِبِ عَاشِرِ أَفْدَى بَاسْتَانِبُولِ .

(٤) كَمَا يُسَمِّي أَحْيَانًا فِي بَعْضِ الْمَرَاجِعِ . (٥) وَمِنْهُ نَسْخَةٌ بِالْاسْكُورِيَّالِ .

(٦) وَمِنْهُ نَسْخَةٌ بِالْأَسْتَانَةِ .

(٧) وَيُسَمِّي السَّمْعَانِيُّ : « أَعْلَامُ الْمَدِيدِ فِي شَرْحِ صَحِيفَ الْبَخَارِيِّ » وَمِنْهُ نَسْخَةٌ بِالْمَوْسِلِ .

إعجاز القرآن^(١) ، وكتاب معالم التنزيل .

وأما المعتزلي فهو : أبو الحسن على بن عيسى الرماني^(٢) ، الذي ولد سنة ست وتسعين ومائتين من الهجرة بمدينة سامراً أو ببغداد ، ونشأ نشأة فقيرة ، واشتغل بطلب العلم ، واستعان على كسب قوته بالورقة ، وأخذ اللغة والنحو على جماعة من شيوخ العلم مثل أبي بكر بن دريد وأبي بكر السراج والزجاج ، وتخرج في الكلام على يد أستاذه المعتزلي ابن الإخشيد .

ويذكر أصحاب التراث أن الرماني كان محباً للعلم ، واسع الاطلاع ، متقدماً في الأدب وعلوم اللغة والنحو ، لذلك لقب بالنحوى المتتكلم شيخ العربية وصاحب التصانيف . وكان إلى جانب ذلك ميالاً لعلوم المنطق والفلسفة والنجوم . ويبدو أثر هذه العلوم في تصانيفه وأسلوب تأليفه . وبرع في علوم القرآن والتفسير وألف فيها ، وكانت له مشاركة في الحياة العامة في بغداد . وفي أحداشرها السياسية الهامة ، وكان محبوباً مقدراً عند العامة والخاصة .

وتوفى سنة ٣٨٦ هـ بعد حياة طويلة حافلة .

وتظهر مكانته العلمية لنا فيما كتبه عنه معاصره أبو حيّان التوحيدي إذ هرر أنه لم ير مثله قط . عملاً بالنحو ، وغزارة في الكلام ، وبصراً بالمقالات واستخراجاً للوعيص ، وإيضاً للمشكل ، مع تاله وتنزه ودين ويين ويقين وفصاحة وفكاهة ، وعفافة ونظافة . قال عنه ابن سنان : « إنه ذو مكان مشهور في الأدب » .

ومن اعتمد عليه ونقل عنه من العلماء : ابن رشيق ، وابن سنان ، وابن أبي الإصبع العدوانى المصرى والسيوطى ، . . . وغيرهم . وقد نقلنا في آخر هذا الكتاب بعض شواهد من تعليقاتهم على كتاباته وإفادتهم منه . ومن كتبه التي تذكرها المصادر : التفسير الكبير^(٣) ، والجامع في علوم

(١) وهو النسخة التي بين أيدينا ، ونسخة أخرى بليدين بولندة (كما ذكر بروكلمان في ترجمته) .

(٢) بضم الراء وتشديد الميم نسبة إلى الرمان وبيعه ، أو إلى قصر الرمان ، وهو قصر بواسط .

(٣) راجع في كتبه بروكلمان الملحق ١ / ١٧٥ . . .

القرآن^(١) ، والنكت في إعجاز القرآن . وألفات القرآن ، وشرح معانى القرآن للزجاج ، وألفات القرآن ، وشرح كتابي المدخل والمقتضب للمبرد ، وكتاب الاستيقاقي الكبير ، وشرح كتاب سيبويه ، ونكت سيبويه ، وأغراض كتاب سيبويه ، والمسائل المفردة من كتاب سيبويه ، وشرح مختصر الجرمي ، وكتاب شرح المسائل للأخفش ، وشرح الألف واللام للمازني ، وشرح كتاب الموجز والأصول لابن السراج ، وكتاب التصريف ، وكتاب الهجاء ، وكتاب والإيجاز في النحو ، وكتاب المبتدأ في النحو ، والاستيقاقي الصغير والألفاظ .

المترادفة^(٢)

وتذكر المصادر أن له ما يقرب من مائة كتاب .
وأما السنى الشافعى فهو أبو بكر عبد القادر بن عبد الرحمن الجرجانى

الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى ، وتوفى على الراجح عام ٤٧١ هـ .

ولم نعثر لعبد القاهر برغم مكانته العلمية إلا على تراجم قصيرة ، وهى تتفق فى أنه كان عالماً واسع الثقافة ، وأنه كان متكلماً على مذهب الأشعرى ، وفقيرها على مذهب الشافعى ، وأنه أخذ النحو على أبي الحسن محمد بن الحسن ابن أخت أبي على الفارسى المشهور ، وببعضها يذكر أنه أخذ الأدب والنقد على القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى .

ومن مؤلفات عبد القاهر : المائة في النحو ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، والرسالة الشافية

(١) ويسمى أحياناً باسم الجامع الكبير في تفسير القرآن ، ويوجد بدار الكتب المصرية .
(بالتيمورية) تفسير جزء عم .

(٢) طبع هذا الكتاب بمصر . راجع في ترجمته : معجم الأدباء لياتوت المموى ط مرجليلوث ٥ / ٢٨٠ وما بعدها ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣ / ١٠٩ ، وقاريئ بنداد للخطيب ١٦ / ١٦ .
السعادة ١٩٣١ م ، والأنساب للسمعاني ٢٥٨ ، وطبقات النحويين للزبيدي ٥٥ ، والإمتاع والموانس
لأبي حيان التوحيدى ١ / ١٣٢ ، وذكر المعترضة للمرتضى ٦٥ ، وبغية الوعاة لسيوطى ٤٤٣ ط المتنبى
سنة ١٣٢٦ هـ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكمان الملحق ١ / ١٧٥ . راجع الفصل الأخير قسم ب .

(٣) راجع في ترجمته : دمية القصر للباخرزى ١٠٨ ، طبقات الشافعية لأسپكى ٣ / ٢٦٢
والنجوم الزاهرة لابن تغري بردى ٥ / ١٠٨ ، وبغية الوعاة لسيوطى ٣١٠ ، وشذرات الذهب لابن العماد
٣٤٠ ، وبروكمان ١ / ٢٨٦ - ٢٨٧ ، والملحق ج ١ الترجمة رقم ٢٨٧ ص ٥٠٢ - ٥٠٤ .

تحليل الرسائل الثلاث :

١ . الأولى : كتاب بيان إعجاز القرآن تأليف أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي . رواية أبي الحسن الفقيه السجّري . وقد اعتمدنا في نشرها على مخطوطة مصورة عن دار الكتب ^(١) مكتوبة بخط مغربي واضح به بعض الشكل . ولا يخلو من الأخطاء النحوية أحياناً . وقد كتب على طرته :

كتاب بيان إعجاز القرآن

تأليف أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي رضي الله عنه
رواية أبي الحسن على بن الحسن الفقيه السجّري رحمه الله
وعليه إجازة تفيد أنه رواية عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن حيان الفهري عن الشيخ عبد الله الحجري عن الشيخ الفقيه أبي طاهر السُّلْفِي
الأصبَهانِي عن الشيخ عبد الله محمد بن برّكات النحوي عن الشيخ أبي القاسم سعد بن علي الزنجاتي عن أبي الحسن السجّري عن المؤلف . وكانت هذه الإجازة سنة ست وستين وخمسينائة .

وأثبتت في ختام النسخة أنه « تم الكتاب بحمد الله وعونه ، صلى الله علی محمد وآلہ وسلم والحمد لله رب العالمين - أوائل عام ستة وألف عرفة اللہ خیره ووقانا شره » » وأثبتت في آخرها أيضاً أنها روجعت وقوبلت على النسخة الأصلية . وتقع المخطوطة في ٢٣ ورقة . وكل صحيفة مسطرتها ٢١ سطراً وبالسعدين ١٤ ، ١٢ كلمة .

طبعات الكتاب :

(١) طبعة السيد عبد الله الصديق سنة ١٩٥٣ م - ١٣٧٢ ه بطبعه دار التأليف بالقاهرة - من القطع الصغير في ١٢٥ صفحة .

(٢) عن نسخة خطية مغربية من المكتبة الصديقية بطنجة .

وهي عن الأصل الذى رجعنا إليه ، وقد راجعنا هذه الطبعة فتبين لنا بعض الملاحظات التى أبديناها فى مواضعها ، وأشارنا إليها فى الهامش برمز « ١ ». ويلاحظ بصفة عامة أنه يتصرف أحياناً فى العبارة بما لا يتطلبه السياق . وربما لجأ إلى تأويل لا ضرورة له ، وقد اهتم فى هامشه بشرح ما جاء فى الرسالة من الأحاديث والأخبار والروايات الدينية .

(ب) طبعة الدكتور عبد العليم عميد القسم العربى في الجامعة الإسلامية بعالي كرَه (الهند) - مطبعة خليل شرف ببمبئى سنة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ ونشر القسم العربى بجامعة على كرَه .

ورجع المحقق فى هذه النشرة إلى نسخة ليدن التى أشرنا إليها ، والتى أشار إليها بروكلمان ، ولهذا كان لهذه الطبعة أهميتها فى طبعتنا الثانية للرسالة ، وبمراجعةها أمكن إعادة قراءة بعض ما التبس من عبارات النسخة الأولى ، وتقويم بعض الألفاظ . بحيث تكون أكثر ملائمة ، غير أنها مع ذلك لاحظنا وجود كثير من الخطأ والتصحيف فى هذه الطبعة مما يقلل من شأنها .

فكرة الرسالة ومنهجها :

في هذه الرسالة يقرر الخطابي أن الناس قدِّمَا وحدِيَّا ذهبوا في الموضوع كل مذهب من القول ولم يصدروا عن رِيْ . ويناقش فكرة الصرف ، وفكرة تضمن القرآن للأخبار المستقبلة ، ولا يرتضيها شرحاً لأسرار الإعجاز ، ثم ينتقل إلى موضوع البلاغة ، ويعيب على القائلين بها اعتمادهم على التقليد وعدم تحقيقهم وقصور كلامهم عن الإنداع . ويعالج هو الموضوع على طريقته فيذكر الأقسام الثلاثة للكلام المحمود ، ويقرر أن بلاغات القرآن قد أخذت من كل قسم من هذه حصة ، ومن كل نوع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفات الصخامة والعذوبة ، وهو على الانفراد في نوعهما كالمتضادين . لذلك كان اجتماعهما في نظم القرآن فضيلة خص.

بها ؛ يسرها اللطيف الخبير لتكون آية بينة لنبيه . وإنما تغدر على البشر الإتيان
بمثله ؛ لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة وأوضاعها ، ولا تدرك أفهمهم
جسيع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ » . ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء
جسيع النظوم التي بها ائتلافها وارتباطها ببعضها البعض . وإنما صار القرآن معجزًا لأنه جاء بأفضل الألفاظ في أحسن نظم التأليف
عندنا أصح المعانى من توحيد وتحليل وتحريم . إلخ . ومعلوم أن الإتيان
بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه
قوى البشر .

وعمود البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ
التي تشتمل عليها فصول الكلام موضوعه الأ شخص الأشكال به . ومن هنا كاع
ال القوم وجبوا عن معارضته القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعدهم منه .
ويتفنن الخطاب بعض ما أورده المعارضون من شبه ضد أسلوب القرآن .
ومن الطرف في رسالة الخطاب ما أورده من تحليل بعض النصوص تحليلًا
فنیاً جميلاً ، يكشف فيه عن ذوق وبصر مواطن الجمال في الكلام ،
وقد أثبت في آخر رسالته وجهًا آخر للإعجاز ذهب عنه الناس – كما يقول –
وذلك صنيع القرآن بالقلوب ، وتأثيره في النفوس . ويلاحظ أن هذه هي
الفكرة التي دار حولها بحث عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة إذ اعتبر
مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس .^(١)

٢ . الرسالة الثانية :

« النكت في إعجاز القرآن » لأبي الحسن علي بن عيسى الرمانى . وقد
اعتادنا في نشرها على ثلاثة مخطوطات هى :

١ . مخطوطة بمكتبة بغدادى وهى بالآستانة ، ومنها نسخة مصورة
محفوظة بمكتبة بلدية الإسكندرية عن فيلم بمعهد المخطوطات التابع لجامعة

(١) شرح هذه الفكرة وناقشها . خلف الله في كتابه (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده)
النسل الرابع ، القاهرة ١٩٤٧ .

الدول العربية . وكتب على طرتها رقم ٦٢ وعنوانه : « كتاب النكت في إعجاز القرآن ، تصنيف الشيخ الإمام أبي الحسن على بن عيسى الرماني رحمه الله تعالى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ » ، وذيلت بختام ذكر فيه تاريخ النسخة سنة ٦٥٢ هـ بقلم محمد عبد العزيز الأنصاري ، والمخطوطة بخط نفيس ، وأوراقها ٢٢ ورقة ومسطّتها ١٧ سطراً في الصحفة ويحوي السطر من ١٠ - ١٢ كلمة . ويوجد على بعض الصفحات تصحيحات قليلة بالهامش ، وببعضها أختام الوقف باسم الخزانة وقد جعلنا هذه النسخة الأصل وراجعنا عليه النسختين التاليتين .

(ب) وأما الثانية فهي النسخة الأولى بالخزانة التيمورية بدار الكتب تحت رقم ٢٩٨ تفسير خط . وقد جاء في طرتها بخط . أحمد بن إسماعيل ابن محمد تيمور ما يلي :

« مما استنسخناه ونحن في بيت المقدس من المكتبة البديرية » ، وجاء في سطر آخر : « ويظهر أنه قد سقط من هذه النسخة الباب العاشر وهو حسن البيان ص ٤٩ » ، وذيلت بختام جاء فيه : « تمت هذه الرسالة بقلم الفقير العبد الضعيف محمد أمين بن الشيخ عمر الدنف الانصاري خادم الحرم الشريف والمسجد والأقصى المنيف غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين أمين . ١٥ ربیع الثانی سنة ١٣١٨ هـ » . والمخطوطة بخط نسخ واضح ، وقد أشرنا إليها بالرمز « ت » .

(ج) أما الثالثة فهي النسخة الثانية بالخزانة التيمورية رقم ٥٣٤ تفسير خط . حديث سنة ٣١٨ هـ أيضاً بقلم صاحب النسخة الثانية ، وفي نفس الحجم وقد أشرنا إليها بالرمز « ت ٢ » .

والنسختان التيموريتان « ت ، » ، « ت ٢ » عن أصل واحد هو المحفوظ بالمكتبة البديرية بالقدس ، وهي نسخة برؤية القاضي أبي الحسن بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ هـ^(١) .

(١) هـ، قاضي، فقيه، أصله من الموصل ثم باع إلى مصر ودرس الفقه على مذهب الشافعى .

تحليل الرسالة :

تأخذ الرسالة شكل جواب عن سؤال وجه للمؤلف عن « ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج » وهذا الجواب يتلخص في أن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة ، والتجددى للكافية ، والصرف ، والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجز .

ويوجه المؤلف همه من هذه الجهات السبع إلى البلاغة فيذكر أنها على ثلاث طبقات : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائل بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . وبعد أن يشرح المؤلف كل واحدة من هذه يحصر البلاغة في عشرة أقسام * أو أبواب هي : الإيجاز والتشبث ، والاستعارة ، والتلاوم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والبالغة ، وحسن البيان .

ثم يستمر فيفسر هذه باباً باباً بتعريف الموضوع ثم بتقسيمه إلى نواحيه مستشهاداً لكل ناحية بالآية تلو الآية من القرآن ، وندر أن يستشهد ببيت من الشعر أو قول مأثور من النثر إلا ما استلزمته الموازنة بين الآية وما في معناها من كلام العرب .

وبعد أن انتهى من مقصوده – وهو التعريف بأبواب البلاغة العشرة خصص بضع صفحات في آخر كتابه للتعريف بالوجوه الأخرى الستة التي أشار إليها في أول الكتاب ، والتي تؤلف مع البلاغة وجوه الإعجاز في نظره

= سمع عبد الرحمن بن النحاس وأبا سعيد المالياني وانتهى إليه علو الإسناد بمصر، ول القضاء يوماً واستعن ثم اعتزل الناس ، وكان يوصي بدین وعبادة ، وخرج له أبو نصر الشيرازي عشرين جزءاً وسماها ، الخلقيات ، ومن تصانيفه المغنى في الفقه في أربعة أجزاء . ولد سنة ٤٠٥ هـ و عمر طويلاً ثم توفي وعمره ثمان وثمانون عاماً سنة ٤٩٢ هـ ودفن بالقرافة بمصر (راجع ابن خلkan ط محى الدين ٢/٧ ، وابن العماد ٣ / ٣٩٨) .

* أثبتتنا في فصل التعليقات (فصل ٤ قسم ٣) نبذة عن تطور مصطلحات البلاغة إلى القرن الرابع المجرى الذي ظهر فيه الرماني والخطابي .

وأسلوب المؤلف في معالجة موضوعه علمي منطق ي يحتاج في كثير من المواقع إلى الجهد في فهمه وتتبعه ، ويغلب عليه الطابع الكلامي ، والمتزع الاعتنى في تأويل القرآن .

٣— الرسالة الثالثة :

«رسالة الشافية في الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ». وقد اعتمدنا في نشرها على مخطوطة مصورة عن الأصل المحفوظ. ضمن مجموعة بدار الكتب ، وتببدأ الصفحة الأولى في الرسالة برقم ١٩٠ في المجموعة وتنتهي برقم ٢٠٨ .

وهي مكتوبة بخط. نسخ واضح مشكول ، به كثير من الأخطاء الإملائية وبعض أخطاء الشكل . وعلى الصفحة الأولى بخط. الناسخ هذه العبارة : « هذه الرسالة خارجة من كتابة الموسوم بـ **دلائل الإعجاز** ». وبمراجعة كتاب الدلائل المطبوع تبيّن أن هذه الرسالة ليست خارجة منه نصاً . والرسالة تحتوي على ١٨ ورقة وبضعة أسطر ، من القطع المتوسط . مساحتها ١٨ سطراً والسطر يحوي بين ١٤ - ١٢ كلمة ، بدون تاريخ .

وببعض الصفحات أختام وقف .

تحليل الرسالة :

تناول عبد القاهر في هذه الرسالة بعض نواح من فكرة الإعجاز ، أخصها إثبات الإعجاز عن طريق عجز العرب عن معارضته القرآن ، وفي هذا يقرر أن العبرة بعجز العرب المعاصرين للرسول عليه السلام دون المتأخرین من الخطباء والبلغاء عن زمانه ، وعلى هذا الأصل ينتقل عبد القاهر إلى النظر في دلائل آحوال العرب وأحوالهم حين تلى عليهم القرآن وتحدوا إليه .

أما الآحوال فدلالتها من حيث كان المتعارف من عادات الناس ألا يسلموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ، وعبد القاهر يطيل

في هذه النقطة مستشهدًا بالمؤلف في أحوال الاجتماع ، والمعروف في أحوال الشعراء .

وأما الأقوال فكثيرة يروى منها عبد القاهر حديث ابن المغيرة ، وحديث عتبة بن ربيعة . وحديث أبي ذر . وينتهي من هذا إلى القول بأنه على أساس لالة الأحوال والأقوال وجوب القطع بأن القرآن معجز ، ناقض للعادة وأنه في معنى قلب العصا حية وإحياء الموتى في ظهور الحججة على الخلق كافة .

ويعرض عبد القاهر في سياق الرسالة لنواح في الميدان الأدبي يُبين فيها تفاوت الشعراء في أقدارهم واحتتمال كلامهم على البليغ وغير البليغ ، ثم يناقش في نهاية رسالته فكرة الصرف ويفند رأى القائلين بها . ويلحق بالرسالة فصولاً قصيرة مستقلة يزيد فيها بعض جوانب الموضوع شرحاً ويجيب عن بعض اعترافات .

وظاهر من نظام هذه الرسالة أن عبد القاهر كتبها اليثبت حقيقة الإعجاز لا ليُبين أسراره . أما تفصيل القول في أسرار الإعجاز من جهة بلاغة الكلام ونظمه ، فقد فصل عبد القاهر القول فيه في كتابه الكبير المستقل الذي سماه « دلائل الإعجاز » وهو كتاب مطبوع معروف . وقد أثبتنا منه في نهاية التعليقات * القدر الضروري لبيان وجهة نظر عبد القاهر في الإعجاز البلاغي لتم الفائدة وتكميل الفكرة .

محمد زغلول سلام

محمد خلف الله

١٣٧٦ هـ
١٩٥٦ م

الاسكندرية في

* راجع الفصل الأخير قسم ج .

بيان إعجاز القرآن

لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي
(٣١٩ - ٣٨٨ هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على محمد وآلـه وسلم تسلیماً

القول في بيان إعجاز القرآن

قال أبو سليمان^(١) : قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ، وما وجدناهم بعد صدرها عن روى ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته . فاما أن يكون قد يقبت في النفوس نقبة^(٢) بكونه معجزاً للخلق ممتنعاً عليهم الإتيان^(٣) بمثله على حال فلا موضع لها ، والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه . وقد بقي صلى الله عليه وسلم يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهراً لهم النكير ، زارياً على أديانهم ، مسفهاً آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس ، وأريقت المهج ، وقطعـت الأرحـام ، وذهبـت الأمـوال . ولو كان ذلك في وسعـهم وتحـت أقدارـهم لم يتـكلـفـوا هـذه الأمـورـ الخطـيرـةـ .

(١) في «ب» : قال أبو سليمان حمد بن إبراهيم الطابي رضي الله عنه .

(٢) في «ب» : نفت . . نقية - ويدرك أنها في الأصل لقيت لقيـةـ ، أثبـتـناـهـ أكثر القراءات تمـشـياـ معـ النـصـ ، وربـماـ كانتـ الكلـمةـ فـيـ الأـصـلـ تصـحـيفـاـ لأنـقـيـتـ إـلـقاءـ .

(٣) في «ب» : ممتنعاً بالإتيان بمثله .

ولم يركبوا تلك الفوافر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدهث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذهب . وقد كان هومه قريش خاصة موصوفين بـ رزانة الأحلام ، ووفارة العقول والألباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون . وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللاد فقال سبحانه : ﴿... ما ضربوه لك إِلَّا جدلاً بل هُمْ قومٌ خَصِّصُون﴾^(١) وقال سبحانه : ﴿وَتُنَزِّلُ لَهُ قوماً لَدَّا﴾^(٢) . فكيف كان يجوز - على قول العرب وجري العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأن يضربوا عنه صفحًا ، ولا يحوزوا الفلاح والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه . ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش عطشاً شديداً خاف منه الهلاك على نفسه وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشاً [لحكمنا^(٣)] أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه . وهذا بين واضح لا يُشكّل على عاقل .

قلت : وهذا - من وجوه ما قيل فيه - أبينها دلالة وأيسرها مؤونة .

وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه .

أذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرف^(٤) ، أي صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدوراً عليها ، وغير معجزة عنها ؛ إلا أن العائق من حيث أكان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات . فقالوا : ولو كان الله عزوجل بعث نبياً في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك

(١) سُجْرَى فِي خَلَالِ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِ اسْمِ السُّورَةِ مُتَبَعِّدًا بِرَقْمِهَا ثُمَّ رَقْمَ الْآيَةِ (الرَّخْزَفُ ٤٢/٥٨) . وَتَمَامُ الْآيَةِ : (وَقَالُوا آتَاهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبْتُمْ لَكُمْ إِلَّا جَدْلًا، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِّصُونَ) .

(٢) [مِرْيَمٌ ٩٧/١٩] .

(٤) فِي «ب» : وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى الْإِعْجَازِ فِيهِ الْصِّرْفَةِ .

يده أو مدرجته في وقت قعوده بين ظهراني قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال آتي أَنْ أَحْرُكْ يدِي أَوْ أَمْدِرْ جَلِي ، ولا يمكن أحَدًا مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلْ مِثْلَ فَعْلِي ، والقَوْمُ أَصْحَاءُ الْأَبْدَانَ لَا آفَةَ بَشَرِيَّ مِنْ جَوَارِحِهِمْ ، فَحَرَكَ يَدَهُ أَوْ مَدَ رَجْلَهُ ، فَرَأَوْا أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ فَعْلِهِ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، كَانَ ذَلِكَ آيَةً دَالَّةً عَلَى صِدْقَهُ . وَلَيْسَ يَنْظَرُ فِي الْمَعْجَزَةِ إِلَى عَظِيمِ حِجْمِ مَا يَأْتِي بِهِ النَّبِيُّ وَلَا إِلَى فَخَامَةِ مَنْظَرِهِ ، وَإِنَّمَا تَعْتَبِرُ صَحَّتِهَا بِأَنَّ تَكُونَ أَمْرًا خَارِجًا عَنْ مَجَارِيِ الْعَادَاتِ نَاقِضًا لَهَا ، فَمَمَّا كَانَتْ بِهَا الْوَصْفُ كَانَتْ آيَةً دَالَّةً عَلَى صِدْقِ مِنْ جَاهَتِهَا ، وَهَذَا أَيْضًا وَجْهُ قَرِيبٍ ، إِلَّا أَنَّ دَالَّةَ الْآيَةِ تَشَهِّدُ بِخَلَافِهِ وَهِيَ قَوْلُهُ سَبِّحَانَهُ :

﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونُونَ وَالْجِنُونَ عَلَى أَنْ يَأْتُوْا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(١) ، فَأَشَارَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَمْرٍ طَرِيقَهُ التَّكْلِفُ وَالاجْتِهَادُ ، وَسَبِيلِهِ التَّأْهِبُ وَالاحْتِشَادُ . وَالْمَعْنَى فِي الْصِّرْفَةِ الَّتِي وَصَفُوهَا لَا يَلَامُهُمْ هَذِهِ الصَّفَةُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ غَيْرَهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَزَعَمَتْ طَائِفَةٌ أَنَّ إِعْجَازَهُ إِنْمَا هُوَ فِيهَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْإِنْبَارِ عَنِ الْكَوَافِنِ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ نَحْوَ قَوْلِهِ سَبِّحَانَهُ : ﴿الَّمْ . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ هُمْ يَغْلِبُونَ ، فِي بِضْعِ سِنِينِ﴾^(٢) ، وَكَقَوْلُهُ سَبِّحَانَهُ :

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِكُمْ شَدِيدُونَ﴾^(٣) ، وَنَحْوُهُمَا مِنَ الْأَنْبَارِ الَّتِي صَدَقَتْ أَقْوَالُهَا مَوْاقِعُ أَكْوَانِهَا . قَلَتْ : وَلَا يُشكِّ فِي أَنَّ هَذَا وَمَا أَشْبَهُهُ مِنَ أَخْبَارِهِ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ إِعْجَازِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْعَالَمُ الْمَوْجُودُ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنْ سُورَاتِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ جَعَلَ سَبِّحَانَهُ فِي صَفَةِ كُلِّ

(١) [الإِسْرَاءٌ / ٨٨ / ١٧].

(٢) [الرُّومُ / ٣٠ - ١] . وَفِي «ب» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى «الْأَرْضُ» الْآيَةُ .

(٣) [الْفَتْحُ / ٤٨ / ١٦].

سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها ، فقال : ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١) من غير تعيين^(٢) ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه . وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة^(٣) ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مبادئ القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرورةً من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاصيل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه .

قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يتبين على ذوي العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عنذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معاً فصيحان ، ثم لا يوقف شيء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم ، ولا يشفي من داء الجهل به ،

(١) [البقرة - ٢٣/٢] .

(٢) في «ب» : عبارة «من غير تعيين» ناقصة .

(٣) نلخص السيوطى هذا الرأى في كتاب الإتقان ط حجازى سنة ١٣٦٥ / ٢٥٠٤ .

وإنما هو إشكال أحيل به على إيهام ، وقد تمثل بعضهم في هذا بآيات
جرير التي نحلها ذا الرمة^(١) : ذكرت الرواة أن جريراً مرّ بذى الرمة وقد عمل
قصيده التي أولها :

نَبَتْ عَيْنَاكَ عن طَلَلِ بَحْزُوَى عَفَتْهُ الرِّيحُ وَامْتَنَحَ الْقِطَارَا
فَقَالَ : أَلَا أُنْجِدُكَ بَآيَاتٍ تَزِيدُ فِيهَا ! فَقَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ :
يَعْدُ النَّاسِبُونَ بَنِي تَمِيمٍ بَيْوَتَ الْمَجْدِ أَرْبَعَةً كِبَارًا
يَعْدُونَ الرَّبَابَ وَآلَ تَمَّ وَسَعْدًا ثُمَّ حَنْظَلَةَ الْخِيَارَا
وَيَذْهَبُ بَيْنَهَا الْمَرْئَى لِغَوَّا كَمَا أَلْغَيْتَ فِي الدِّيَةِ الْحُوَارَا
فَوَضَعَهَا ذُو الرِّمَةِ فِي قصيدهِ ثُمَّ مَرَّ بِهِ الْفَرِزَدقُ فَسَأَلَهُ عَمَّا أَحَدَثَ مِنْ
الشِّعْرِ ، فَأَنْشَدَهُ الْقَصِيدَةَ ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ قَالَ : لَيْسَ هَذَا مِنْ
بِحْرِكَ ، مُضِيفُهَا^(٢) أَشَدُّ لَحْيَيْنِ مِنِّي ! قَالَ : فَاسْتَدِرْكَهَا بِطَبْعِهِ ، وَفَطَنَ لَهَا
بِلَطْفِ ذَهْنِهِ .

قلت : فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَرْضَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِظَاهِرِ السُّمْمَةِ دُونَ الْبَحْثِ عَنْ بَاطِنِ
الْعُلَةِ ، وَلَمْ يَقْنَعْ فِي الْأَمْرِ بِأَوَائِلِ الْبَرْهَانِ حَتَّى يَسْتَشْهِدَ لَهَا دَلَائِلُ الْإِمْتَحَانِ ،
فَإِنَّهُ يَقُولُ إِنَّ الَّذِي يَوْجِدُ لَهَا الْكَلَامَ مِنَ الْعَذْوَبَةِ فِي حَسِ الْسَّامِعِ ، وَالْهَشَاشَةِ
فِي نَفْسِهِ ، وَمَا يَتَحْلِي بِهِ مِنَ الرَّوْنَقِ وَالْبَهْجَةِ الَّتِي يَبَيِّنُ بِهَا سَائِرُ الْكَلَامِ
حَتَّى يَكُونَ لَهُ هَذَا الصُّنْعَ فِي الْقُلُوبِ ، وَالتَّأْثِيرُ فِي النُّفُوسِ ، فَتَصْطَلُحُ مِنْ
أَجْلِهِ الْأَلْسُونُ عَلَى أَنَّهُ كَلَامٌ لَا يَشْبِهُهُ كَلَامٌ ، وَتَحْصُرُ الْأَقْوَالُ عَنْ مَعَارِضِهِ ،
وَتَنْقَطِعُ بِهِ الْأَطْمَاعُ عَنْهَا ، أَمْرٌ لَا بُدُّ لَهُ مِنْ سَبِّبٍ ، بِوُجُودِهِ يَجِبُ لَهُ هَذَا

(١) راجع القصة في الأغانى ط الساسى ١٦ / ١١٣ .

(٢) في «ب» : مصغها .

الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف .. وقد استقرينا أوصافه . الخارجة عنه ، وأسبابه الناتجة منه ، فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر ، أو يستقيم في القياس ، ويطرد على المعايير ^(١) ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته ، ومستقى من جهة نفسه : فدل النظر وشاهد العبر على أن السبب له ، والعلة فيه ^(٢) أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة ^(٣) غير متساوية ؛ فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ؛ ومنها الجائزطلق الرَّسُل . وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم ، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه أليته .

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدنى وأقربه ؛ فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواع شعبية ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفات الفخامة والعدوبة ، وهما على الانفراد في نوعهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع شبوا كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بطريق قدرته من أمره ^(٤) ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة له على صحة مادعا إليه من أمراً دينه .

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط

(١) في «ب» : ويطرد على معنى العبر .

(٢) لخص السيوطى هذا الرأى في الإتقان ٢ / ٢٠٤ . ولنحصه صاحب مفتاح السعادة ٣٥٩ / ٢ .

(٣) في «ب» لفظة «متباينة» غير موجودة .

(٤) في «ب» : لسترها بطريق قدرته عن الزلة .

بجميع أسماء اللغة العربية [وبألفاظها^(١)] التي هي ظروف المعانى والحوامل لها ، ولا تدرك أفهمهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن^(٢) من وجهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ ، حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفسخ ولا أجزل ولا أذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تاليفاً وأشد تلاوئاً وتشائلاً من نظمه . وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها . والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نوعتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فاما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير ، الذى أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ . في أحسن نظوم التاليف مضمناً أصح المعانى ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاتة ، ودعاه إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ؛ من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ .^(٣) وتقويم وأمر بمعرفة وهي عن منكر ، وإرشاد إلى محسن الأخلاق ، ونجر عن مسؤولها ، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى^(٤) في صورة العقل أمر أليق^(٥)

(١) في الأصل أوضاعها ويبدو أنها تصحيح لكلمة ألفاظها التي أثبتناها والتي تتفق مع السياق .

(٢) في «ب» الأحسن .

(٣) في الأصل وأقبل كلمة (وعظ) ويظهر أن هذا حمل ناشر «ا» أن يقرأ العبارة : ومن وعظ . ونحن نرجح القراءة المشتبة لتمشيتها مع السياق .

(٤) في «ب» : ولا يتوجه .

(٥) في «ب» : أليق به منه .

منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثالات الله بن عصى وعائد منهم ، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتاج له ، والدلائل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ، وهي عنه .

ومعلوم أن الإنيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله . ثم صار المعاندون له ممن كفربه وأنكره يقولون مرة إنه شعر لما رأوه كلاماً منظوماً ، ومرة سحر إذ رأوه معجوزاً عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس يرعبهم ويحيرهم ، فلم ينكروا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف . ولذلك قال قائلهم : إن له حلاوة وإن عليه طلاوة . وكانوا مرة لجهلهم وحيتهم يقولون : «أساطير الأولين اكتتبها فهـى تُملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصْبَلَةً»^(١) مع علمهم أن صاحبه أمي وليس بحضرته من يعلى أو يكتب ، في نحو ذلك من الأمور التي جماعها الجهل والعجز ، وقد حكى الله جل وعز عن بعض مردمهم وشياطينهم – ويقال هو الوليد بن المغيرة المخزومي – أنه لما طال فكره في أمر القرآن ، وكثر ضجره منه ، وضرب له الأخمس من رأيه في الأساس ، لم يقدر على أكثر من قوله : «إن هذا إلا قول البشر»^(٢) عناداً للحق وجهلاً به ، وذهاباً عن الحجة وانقطاعاً دونها ، وقد وصف^(٣) ذلك من حاله وشدة حيرته فقال سبحانه : «إنه فـكـرـ وـقـدـرـ ، فـقـتـلـ كـيـفـ قـدـرـ ، ثـمـ قـتـلـ كـيـفـ قـدـرـ . ثـمـ نـظـرـ ثـمـ عـبـسـ وـبـسـرـ . ثـمـ أـدـبـرـ وـاسـتـكـبـرـ . فـقـالـ إـنـ هـذـاـ إـلـاـ سـحـرـ يـؤـثـرـ . إـنـ هـذـاـ إـلـاـ قـوـلـ البـشـرـ»^(٤) .

(١) [الفرقان ٢٥/٥].

(٢) [المدثر ٧٤/٢٢].

(٣) [ب] زيادة [الله تعالى].

(٤) [المدثر ٧٤/١٤ - ٢٢].

وكيما كانت الحال ودارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قوله ،
وانقطاعهم عن معارضته فعلاً أنه معجز ، وفي ذلك قيام الحجة وثبوت
المعجزة ، والحمد لله^(١) .

ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع^(٢) لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ. التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأنصب الأشكال به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعنى^(٣) يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفاده بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، وبلي ونعم ، وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والمحروف والصفات مما سنذكر تفصيله فيما بعد ، والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتراكان في بعضها . تقول : عرفت الشيء وعلمهte إذا أردت الإثبات الذي يرتفع معه الجهل ؛ إلا أن قولك : عرفت . يقتضى مفعولاً واحداً كقولك : عرفت زيداً ، وعلمت يقتضى مفعولين ، كقولك : علمت زيداً عاقلاً ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصاً في توحيد الله تعالى وإثبات ذاته ، فتقول : عرفت الله ، ولا تقول علمت الله ، إلا لأن تضييف إليه صفة من الصفات فتقول : علمت الله عدلاً ، وعلمهte قادرًا ، ونحو ذلك من الصفات . وحقيقة

(١) يرد هذا الجزء ملخصاً في الإتقان ٢٠٥ / ٢ ، وفي مفتاح السعادة ٣٦٠٪ ٢ .

(٢) في (ب) تجتمع .

(٣) لعل النظر إلى بلاغة القرآن من هذه الوجهة هو الذي دفع بعض العلماء مثل أبي هلال المسكري إلى العناية بالفارق اللغوية .

البيان في هذا أن العلم ضده الجهل ، والمعروفة ضدها النكرة . والحمد والشكر قد يشتركان أيضاً ، والحمد لله على نعمة أى الشكر لله عليها ، ثم قد يتميز الشكر عن الحمد في أشياء ؛ فيكون الحمد ابتداءً بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر إلا على الجزاء ، تقول : حمدت زيداً^(١) إذا أثنيت عليه في أخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك منه معروف ، وشكرت زيداً إذا أردت جزاءه على معروف أسداه^(٢) إليك ، ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد ، ويكون فعلاً كقوله جل وعز : ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوِدَ شَكْرًا﴾^(٣) . وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكرور ، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب .

وأما الشح والبخل فقد زعم بعضهم أن البخل منع الحق ، وهو ظلم ، والشح ما يجده الشحيح في نفسه من الحرازة عند أداء الحق وإخراجه من يده . قال : ولذلك قيل : « الشحيح أذر من الظالم » . قلت : وقد وجدت هذا المعنى على العكس مما روى عن ابن مسعود : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن مالك قال : نا عمر بن حفص السدوسي قال : نا المسعودي عن جامع بن شداد عن أبي الشعثاء قال : قلت لعبد الله بن مسعود ، يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : ولم ذاك ؟ . قلت : لأنني سمعت الله يقول : ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحّ نَفِيسَهْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤) ، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء . قال : ليس ذاك الشح الذي ذكره الله في

(١) هكذا في « ب » وفي « أ » والطبعة الأولى « هذا » .

(٢) هكذا في « ب » وفي « أ » والطبعة الأولى « ابتدأ » .

(٤) [٩/٥٩] [١٣/٦٤] [سبأ] .

القرآن ، ولكن الشخ أن شأكِل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذاك البخل ، وبئس
الشيء البخل .

وأما النعت والصفة ، فإن الصفة أعم والنعت أخص ، وذلك أنك تقول :
زيد عاقل وحليم ، وعمرٌ جاهل وسفيه ، وكذلك تقول : زيد أسود ودميم ،
و [عمرٌ] ^(١) أبيض وجميل ، فيكون ذلك صفة ونعتاً لهما وأما النعت
فلا يكاد يطلق إلا فيها لا يزول ولا يتبدل ، كالطول والقصر والسواد والبياض
ونحوهما من الأمور الازمة .

وأما قول القائل لصاحبـه : اقعد واجلس ، فقد حكى لنا عن النضر بن
شـمـيل أنه دخل على المـأـمـون عند مقدمـه مـرـو ، فـمـثـلـ بـيـنـ يـدـيهـ وـسـلـمـ ؛ فـقـالـ لهـ
المـأـمـونـ : اجـلـسـ ، فـقـالـ : يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ مـاـ إـنـاـ بـعـضـطـبـعـ فـأـجـلـسـ ، قـالـ :
فـكـيـفـ تـقـولـ ؟ قـالـ : قـلـ اـقـعـدـ . فـأـمـرـ لـهـ بـجـائـزـةـ .

قلت : وبيان ما قاله النضر بن شـمـيل إنـماـ يـصـحـ إـذـ اـعـتـبـرـتـ إـحدـىـ
الـصـفـتـيـنـ بـالـأـخـرـىـ عـنـ الـمـقـابـلـةـ ، فـتـقـولـ : الـقـيـامـ وـالـقـعـودـ كـمـاـ تـقـولـ : الـحـرـكـةـ
وـالـسـكـونـ ، وـلـاـ نـسـعـهـمـ يـقـولـنـ الـقـيـامـ وـالـجـلـسـ وـإـنـماـ يـقـالـ : قـعـدـ الرـجـلـ عـنـ
قـيـامـ ، وـجـلـسـ عـنـ ضـبـجـةـ وـاسـتـلـقـاءـ ، وـنـحـوـ ذـلـكـ .

وأما قولك : بـلـ وـنـعـمـ ؟ فـإـنـ بـلـ جـوابـ عـنـ الـاسـتـفـهـامـ بـحـرـفـ التـفـىـ
كـقـولـ القـائلـ : أـلـمـ تـفـعـلـ كـذـاـ ؟ فـيـقـولـ صـاحـبـهـ : بـلـ ، كـقـولـهـ عـزـ وـجـلـ :
﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ ^(٢) . وـأـمـاـ نـعـمـ فـهـوـ جـوابـ عـنـ الـاسـتـفـهـامـ نـحـوـ هـلـ ^(٣)
كـقـولـهـ سـبـحـانـهـ ^(٤) : ﴿هَلْ وَجَدْتُمْ مـاـ وـعـدـكـمـ رـبـكـمـ حـقـاـ قـالـوا نـعـمـ﴾ ^(٥) .

(١) وردت العبارة في الأصل بغير (عمرٌ) وقد زدناها ليس تقييم الكلام .

(٢) [الأعراف ٧/١٧٢].

(٣) في الأصل : نحو فهل وقد سقطت هاتان الكلمتان من طبعة (ص). .

(٤) في طبعة (ص) : كقوله تعالى . (٥) [الأعراف ٥/٤٤].

وقال الفَرَاءُ : بلى لا يكون إلا جواباً عن مسألة يدخلها طرف من الجهد . وحكى عنه أَنَّه قال : لو قالت النَّذِيرَةُ عندما قيل لهم أَلْسْتُ بِرَبِّكُمْ ، نعم ، بدل قولهم بلى لَكُفَّرُوا كُلَّهُمْ .

وَأَمَا قَوْلُكَ : ذاك وَذَلِكَ^(١) فِي إِشَارَةِ بِذَلِكِ إِنَّمَا تَقْعُدُ إِلَى الشَّيْءِ^{*}
القريب منك ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُ فِيهَا كَانَ مُتَرَاحِيًّا عَنْكَ .

وَأَمَا مِنْ وَعْنِ فِيْهِمَا يَفْتَرُقُانِ فِي مَوَاضِعِ^(٢) كَقَوْلُكَ : أَخْذَتْ مِنْهُ مَالًا ،
وَأَخْذَتْ عَنْهُ عِلْمًا ، فَإِذَا قُلْتَ : سَمِعْتَ مِنْهُ كَلَامًا أَرْدَتْ سَاعَاهُ مِنْ فِيهِ ، وَإِذَا
قُلْتَ : سَمِعْتَ عَنْهُ حَدِيثًا كَانَ ذَلِكَ عَنْ بَلَاغٍ ، وَهَذَا عَلَى ظَاهِرِ الْكَلَامِ
وَغَالِبِهِ . وَقَدْ يَتَعَارَفُانِ^(٣) فِي مَوَاضِعِ الْكَلَامِ . وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ
مَا حَدَثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدُوْيَهُ قَالَ : حَدَثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَنِيدِ
قَالَ : حَدَثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ النَّضْرِ بْنِ مَسَاوِرٍ قَالَ : حَدَثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ
عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ : جَمَعْنَا الْحَسَنَ لِعَرْضِ الْمَصَاحِفِ أَنَا وَأَبَا الْعَالِيَّةِ
الرِّيَاحِيُّ وَنَصْرُ بْنُ عَاصِمِ الْلَّيْثِيِّ وَعَاصِمًا الْجَحدَرِيِّ ؛ فَقَالَ رَجُلٌ يَا أَبَا الْعَالِيَّةِ
قُولُ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٤)
مَا هَذَا السَّهْوُ ؟ ، قَالَ الَّذِي لَا يَدْرِي عَنْ كُمْ يَنْصُرُ ؟ عَنْ شَفْعٍ أَوْ عَنْ
وَتَرٍ ، فَقَالَ الْحَسَنُ : مَهِ يَا أَبَا الْعَالِيَّةِ لَيْسَ هَذَا بَلَ الذِّيْنَ سَهَوُا عَنْ مِيقَاتِهِمْ
حَتَّى تَفُوتُهُمْ . قَالَ الْحَسَنُ : أَلَا تَرَى قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : (عَنْ صَلَاتِهِمْ) ، وَنَاهَ
أَبُورِجَاءِ الْغَنْوِيِّ ، نَا مُحَمَّدُ بْنُ الْجَهَمِ السَّجْزِيِّ ، نَا الْهَيْثَمُ بْنُ خَالِدِ الْمَنْقَرِيِّ

(١) كذا في «ب» وفي «أ» والطبعة الأولى ذاك .

(٢) في «ب» زيادة (كثيرة) .

(٣) لعلها يتقاربان وفي «ب» يتعاقبان .

(٤) [الماعون ١٠٧ هـ] .

عن أبي عكرمة عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار نحوه . قلت : وإنما أتى أبو العالية في هذا حيث لم يفرق بين حرف عن وفي ، فتنبه له الحسن فقال : ألا ترى قوله : ﴿ عن صلاتهم ﴾ يؤيد أن السهو الذي هو الغلط . في العدد إنما هو ^(١) يعرض في الصلاة بعد ملابستها ، فلو كان هو المراد لقيل : في صلاتهم ساهون ، فلما قال عن صلاتهم دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت . ونظير هذا ما قاله القمي ^(٢) في قوله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ ^(٣) زعم أنه من قوله : عشوت إلى النار أعيشوا إذا نظرت إليها . فغلطوه في ذلك وقالوا : إنما معنى قوله : من يعرض عن ذكر الرحمن ، ولم يفرق بين عشوت إلى الشيء وعشوت عنه – وهذا الباب عظيم الخطر ، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط . وقد يملا عن به العربي الصريح – فلم يحسن ^(٤) ترتيبه وتنزيله .

حدثني عبد العزيز بن محمد المسكنى قال : حدثني إسحاق بن إبراهيم قال حدثني سويد نا ابن المبارك عن عيسى بن عبد الرحمن قال : حدثني طلحة اليامي قال : حدثني عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : علمني عملاً يدخلني الجنة فقال : اعتق النسمة وفك الرقبة قال : أوليسا واحداً؟ قال : لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثنها . فتأمل كيف رتب الكلامين

(١) سقطت (هو) في (ص) .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الديينوري المتوفى سنة ٢٧٦ أو سنة ٥٢٧هـ ، وقد ذكر صديق في هامش له (١) أن الوفاة كانت سنة سبع ومائتين وهو معاذير لما تذكره المصادر في ترجمته .

(٣) [الزخرف ٤٣ / ٣٦] . (٤) يقصد القمي .

واقتضى من كل واحد منها أخص البيانين^(١) فيما وضع له من المعنى وضمنه من المراد . وحدثني عبد الله بن أسباط عن شيوخه قال جمع هارون الرشيد سيبويه والكسائي فألقى سيبويه على الكسائي مسألة فقال : هل يجوز قول القائل : كاد النبور يكون العقرب فكانه إياها أو كانها إياه ؟ فجوازه الكسائي على معنى كانه هي أو كانها هو ، وأباه سيبويه ، فأحضر الرشيد جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالباب وسائلهم عنها بحضورهما فصوبوا قول سيبويه ولم يجوزوا ما قاله الكسائي ، قيل وذلك أن حرف (إِيّا) إنما يستعمل في موضع النصب ، وهي هنا في موضع رفع فلم يجز . ومثل هذا كثير واستقصاؤه يطول .

قلت : ومنها هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن ، وتركوا القول فيه حذراً أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا علماء باللسان ، فقهاء في الدين ؛ فكان الأصمعي - وهو إمام أهل اللغة - لا يفسر شيئاً من غريب القرآن . وحكي عنه أنه سُئل عن قوله سبحانه : ﴿قد شفقتها حُبًا﴾^(٢) فسكت وقال : هذا في القرآن ، ثم ذكر قوله لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبיעونها وهي لكم شغاف ؟ . ولم يزد على ذلك ، أو نحو هذا الكلام .

قلت : ولهذا ما حث صلى الله عليه وسلم على تعلم إعراب القرآن وطلب معانى الغريب منه . نا إسماعيل بن محمد الصفار قال : حدثني محمد بن وهب الشقفي^(٣) ، قال حدثني محمد بن سهل العسكري قال حدثني ابن أبي زائدة عن عبد الله بن سعيد المقرئ عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعربوا القرآن والتسموا غرائبه» .

(١) في «ب» (الشأنين) .

(٢) سقطت الشقفي (١) .

(٣) يوسف / ١٢ / ٣٠ .

قلت : فإذا عرفت هذه الأصول تبيينت أن القوم إنما كاعوا^(١) . وجبنوا عن معارضته القرآن لما قد كان يئودهم ويتصعدهم منه ، وقد كانوا بطبعهم يتبيّنون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها : ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضية لعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم ، فكان حظهم مما فروا إليه حظهم مما فزعوا منه ﴿فُلِبِّوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ والحمد لله رب العالمين .

فإن قيل : إن إذا تلونا القرآن وتأنمناه وجدنا معظم كلامه مبنياً ومؤلفاً من ألفاظ مبتذلة^(٢) في مخاطبات العرب مستعملة في محاوراتهم ، وحظ الغريب المشكّل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مبادله ومراسيله عدد يسير ، فكيف يتوهّم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء مقتدرؤن على التصرف في أودية الكلام ، عارفون بنظامه . قصيده ورجزه وسجعه ، وسائر فنونه ، فلو كانوا أرادوه وقنعوا عن شفاء الأنفس به لسهل ذلك عليهم ، وإنما عاقهم عن ذلك رأى آخر كان أقوى في نفوسهم وأجدى عليهم في مبلغ آرائهم وعقولهم : وهو مناجزهم إياه الحرب ومعاجلته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه . وكراهة لمطاولته على القول ومعارضته بالكلام الذي يقتضي الجواب ، فيتمادي بهم الزمان للنظر فيه والانتقاد له ، فتكثر الدعاوى ، ويسخى موضع الفضل بين الكلامين ، فمالوا إلى هذا الرأى قصداً إلى اجتياحه واستئصاله ، إذ كانوا فيما يرونـه مستظهرين عليه مستعليـن بالقدرة فوقـه .

قيل : إنـا قدمـنا من بـيان أوصاف بلـاغـة القرـآن وذـكرـنا من شـرائـطـها ما أـسـقطـناـ بـه عنـ أـنـفـسـنـاـ هـذـاـ السـوـالـ . وزـعـمنـاـ أـنـهـاـ أـمـورـ لاـ تـجـمـعـ لـأـحـدـ منـ

(١) كاع عن الشيء هابه وجبن عنه .

(٢) في الأصل مبتذلة وصححها « أ » مبتذلة .

البشر ولا يجوز أن تأتي عليها قدرته ، وإن كان أَفْصَح الناس وأَعْرَفُهم بطرق الكلام وأَساليب فنون البيان ، وذكرنا العلة في ذلك ، وبيننا المعنى فيه ، ولم نقتصر فيها اعتمادناه من البلاغة لِإعْجَاز القرآن على مفرد الألفاظ . التي منها يتراكب الكلام دون ما يتضمنه من وداعه التي هي معانيه ، وملابسه التي هي نظوم تأليفه .

وقد قال بعض العلماء ^(١) في الأسماء اللغوية وهي نوع واحد من الأنواع الثلاثة التي شرطنا أن لا يجوز أن يحيط بها كلها إِلَّا نبي ؛ وقد كان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه – وهو من الفصاحة في ذرورة السنام والغارب – يقرأ قوله عز وجل : ﴿ وَفَاكِهَةٌ وَأَبَابٌ ﴾^(٢) فلا يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأَب ؟ ثم يقول : إن هذا تكلف منك يا ابن الخطاب . وكان ابن عباس رحمة الله – وهو ترجمان القرآن ووارث علمه – يقول : لا أعرف حناناً ولا غسلين ولا الرقيم . هل في اللغة التفت في شيء من كلام العرب ؟ ، وإنما أخذوه عن أهل التفسير على ما عقلواه من مراد الخطاب .

فَإِمَّا المعنى التي تحملها الألفاظ . فالأمر في معاناتها أَشَد لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار .

وَإِمَّا رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والصدق فيها أَكْثَر لأنها لجام الألفاظ . وزمام المعنى وبه تنتظم ^(٣) أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان .

(١) يذكر (١) أنه الإمام الشافعي ، وينقل قوله في أوائل الرسالة : لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا ، وأكثرها ألفاظاً ، ولأنعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير ذي ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها .

(٢) (عبس ٨٠ / ٣١) .

(٣) الرسم هنا غير واضح في الأصل ، وقد قرأه (١) : وبه يتصل أخذ الكلام .

وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفناه فقد علم أنه ليس المفرد^(١) بذرب اللسان وطلاقته كافياً لهذا الشأن ، ولا كل من أتى حظاً من بديهة وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطلاً ببعشه ما لم يجمع إليها سائر الشرائط. التي ذكرناها على الوجه الذي حدناه ، وأن لهم ذلك ومن لهم به ؟ ولئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً^(٢) .

وأما ما ذكروه من قلة الغريب في ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه في حدود البلاغة ، وإنما يكثرون وحشى الغريب في كلام الأوحاش من الناس ، والأجلال من جفاة العرب . الذين يذهبون مذاهب العنجية ، ولا يعرفون تقاطيع الكلام وتتنزيله والتخيير له ، وليس ذلك معدوداً في النوع الأفضل من أنواعه . وإنما المختار منه النمط. الأقصد الذي جاء به القرآن ، وهو الذي جمع البلاغة والفحمة إلى العذوبة والسهولة . وقد يبعد من ألفاظ الغريب في نعوت الطويل نحو من ستين لفظة أكثرها بشع شنع . كالعشنق^(٣) ، والعشنط^(٤) ، والعطنط ، والشوقب والشوذب والسلهب^(٥) ، والقوق ، والقاق ، والطوط . والطاط . فاصطلح أهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها في مرسل الكلام ، واستئصلوا الطويل . وهذا بذلك على أن البلاغة لا تعبأ بالغرابة ولا تعمل بها شيئاً .

فإن قيل : إننا لا نسلم لكم ما ادعите من أن العبارات الواقعة في

(١) فـ «ب» : التفرد .

(٢) [الإسراء ١٧ / ٨٨] .

(٣) الشعنق والعشائق (كملس وعلابط) الطويل ليس بضم ولا مشق .

(٤) العشنط (كعشنق) التار الظريف الحسن الجم ، وقد وردت هذه الكلمة في (١) حرفة إلى عنشط في صلب الكتاب وهامشة .

(٥) في الأصل السهلب ولم ترد في كتب اللغة .

القرآن إنما وقعت في أوضح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله : ﴿فَأَكَلَهُ الذئْبُ﴾ (١) وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصاً «الافتراض» ، يقال : افترسه السباع . هذا هو المختار الفصيح في معناه ، فاما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع . وك قوله : ﴿ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٌ﴾ (٢) قالوا : وما اليسير والعسير من الكيل والكتيال ، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : كِلْتُ لزِيدَ كِيلًا يَسِيرًا إِلَّا أَنْ يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ يَسِير العدد والكمية . وك قوله : ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى الْهَتْكِم﴾ (٣) ، والمشى في هذا ليس بألبغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن . وك قوله : ﴿هَلَكَ عَنِ الْسُّلْطَانِيَّةِ﴾ (٤) وإنما يستعمل لفظ الهلاك في الأعيان والأشخاص كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما ، فاما الأمور التي هي معان وليس باعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها . ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبلاً غير مستحسن . وك قوله سبحانه : ﴿وَإِنَّهُ لِيُحِبُّ الْخَيْرَ لِشَدِيدٍ﴾ (٥) وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : أنا لحب زيد شديد ، وإنما وجه الكلام وصحته أن يقال : أنا شديد الحب لزيد ، وللمال ، ونحوه . وك قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِزَكَاةٍ فَاعْلَمُون﴾ (٦) ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، إنما يقال : زكي الرجل ماله ، وأدى زكاة ماله ، أو نحو ذلك من الكلام ، وك قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَدَّا﴾ (٧) ، ومن الذي يقول :

(١) [يوسف ١٢/٦٥].

(٢) [الحقة ٦٩/٢٩].

(٣) [المؤمنون ٢٣/٤].

(٤) [يوسف ١٧/١٢].

(٥) [ص ٣٨/٦].

(٦) [العاديات ١٠٠/٨].

(٧) [مريم ١٩/٩٦].

جعلت لفلان وَدًا وَحْبًا بِمَعْنَى أَحَبْبَتْهُ ؟ ، وَإِنَّمَا يَقُولُ وَدَدْتُهُ وَأَحَبْبَتْهُ ، أَوْ بَذَلتْ لَهُ وَدَى ؛ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ . وَكَقُولُهُ سَبِّحَانَهُ : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾^(١) ، وَإِنَّمَا هُوَ رَدْفَهُ يَرْدِفُهُ مِنْ غَيْرِ إِدْغَامِ الْلَّامِ . وَكَقُولُهُ سَبِّحَانَهُ : ﴿ وَمَنْ يُرِدُ فِيهِ بِالْحَادِ بَظْلَمٌ ﴾^(٢) . وَكَقُولُهُ سَبِّحَانَهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَعْنِي بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾^(٣) فَأَدَدَ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ بِالْحَادِ وَفِي قَوْلِهِ بِقَادِرٍ ، وَهِيَ لَا مَوْضِعُ لَهَا هُنَّا^(٤) . وَلَوْ قَيْلَ : وَمَنْ يَرِدُ فِيهِ إِلْحَادًا بَظْلَمٌ ، وَقَيْلَ : قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَحْبِي الْمَوْقِعَ ، كَانَ كَلَامًا صَحِيحًا لَا يَشْكُلُ مَعْنَاهُ وَلَا يَشْتَبِهُ ، وَلَوْ جَازَ إِدْنَاحُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ : بِقَادِرٍ لِجَازَ أَنْ يَقُولَ : ظَنِّنْتُ أَنَّ زَيْدًا بِخَارِجٍ ، وَهَذَا غَيْرُ جَائزِ الْبَيْتَةِ :

قَالُوا : وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنْ سُوءِ التَّأْلِيفِ وَمِنْ نُسُقِ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَنْبُو عَنْهُ وَلَا يَلِيقُ بِهِ قَوْلُهُ سَبِّحَانَهُ : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ بَيْتِكُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارَهُونَ ﴾^(٥) عَقِيبَ قَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا . لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾^(٦) وَكَمَا (فِي) تَشْبِيهِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَتَقَدِّمْ مِنْ^(٧) أَوْلَى الْكَلَامِ مَا يَشْبِهُ بِهِ مَا تَأْخُرَ مِنْهُ . وَكَقُولُهُ سَبِّحَانَهُ : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِصِّيًّا ﴾^(٨) ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيْكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾^(٩) ..

الآية .

قَالُوا : وَقَدْ يُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ الْحَذْفُ الْكَثِيرُ وَالْأَخْتِصَارُ الَّذِي يَشْكُلُ مَعَهُ وَجْهَ الْكَلَامِ وَمَعْنَاهُ كَقُولُهُ سَبِّحَانَهُ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرْتُ بِهِ الْجَبَالُ أَوْ

- | | |
|----------------------------|-------------------------|
| (٢) [الحج ٢٥/٢٢] . | (١) [النحل ٢٧/٢٧] . |
| (٤) نَقْلُهَا (ص) هُنَّا . | (٣) [الأحقاف ٤٦/٣٣] . |
| (٦) [الأنفال ٨/٤] . | (٥) [الأنفال ٨/٥] . |
| (٨) [الحجر ١٥/٨٩ - ٩١] . | (٧) نَقْلُهَا (ص) فِي . |
| | (٩) [البقرة ٢/١٥١] . |

قطعتْ به الأرضُ أو كُلّمَ به الموتى^(١) الآية ثم لم يذكر جوابه ، وفي ذلك تبتيير^(٢) الكلام وإبطال فائدته . وكقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وُفِّيَتْ أَبْوَابُهَا^(٣) الآية ونظائرها . . . ثم قد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف كقوله سبحانه في سورة الرحمن : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ^(٤)﴾ وفي سورة المرسلات : ﴿ وَيَلِّيْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ^(٥)﴾ ، وليس واحد من المذهبين بال محمود عند أهل اللسان ، ولا بالمعدود في النوع الأفضل من طبقات البيان . وقد يدخل بين الكلامين ما ليس من جنسهما ولا قبيلهما كقوله سبحانه : ﴿ لَا تُحِرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمِيعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبَعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ^(٦)﴾ عقیب قوله ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ^(٧)﴾ بين يدي قوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُّونَ الْآخِرَةَ^(٨)﴾ وليس^(٩) ذلك بالمستحسن ولا بالمحترر عند أهل البلاغة وأرباب البيان ، والأحسن أن يكون الكلام مفصلاً مقسوماً على أبوابه ، وأن يكون لكل نوع منه حيز وقبيل لا يدخل في قبيل غيره .

قالوا : ولو كانت سور القرآن على هذا الترتيب فتكون أخبار الأمم وأقصاصهم في سورة ، والمواعظ والأمثال في سورة ، والاحكام في أخرى لكان ذلك أحسن في الترتيب ، وأعنون على الحفظ ، وأدل على المراد ؛ في أمور غير هذه يكثر تعدادها .

والجواب : أن القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاوغتها على النعت الذي ،

(١) [الرعد ١٣/٣١].

(٢) هكذا في «ب» وفي «ا» والطبيعة الأولى تبيين ، والسياق يقتضي ما أثبتنا .

(٣) [الزمر ٣٩/٧٣].

(٤) [القيامة ٧٥/١٩].

(٥) هكذا في «ب» وفي الأصل ولا .

ووصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهم أو معاند ، وليس الأمر في معانى هذه الآى على ما تأولوه ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه .

فاما قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ ﴾ فإن الافتراض معناه في فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دق العنق ، وال القوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظيماً ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يُعَبَّر عنه إلا بالأكل ؛ على أن لفظ الأكل شائع^(١) الاستعمال في الذئب وغيره من السبع . وحکى ابن السکیت في ألفاظ العرب قولهم : « أكل الذئب الشاة فما ترك منها تاموراً^(٢) » ، وقال بعض شعرائهم^(٣) :

فتى ليس لابنِ العَمِ كاذبٌ إِن رأى بِصَاحِبِهِ يَوْمًا دَمًا فَهُوَ أَكِلُهُ
وقال آخر^(٤) :

أبا خُراشةَ أَمْ أَنْتَ ذَا نَفَرَ فَإِنَّ قَوْمِيَ لَمْ تَأْكُلُهُمْ الضَّبْعُ
وفي حديث عتبة بن أبي لهب أنه لما دعا عليه السلام فقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فخرج في تَجْرِي الشام ، فنزل في بعض المنازل ،

(١) في « ب » سائغ .

(٢) التامور : الوعاء والنفس وحياتها ، والقلب وحبته وحياته ودمه ، أو الدم . . . الخ .

(٣) ينسب البيت للفرزدق ، وفي بعض المراجع لزيتب بنت الطيرية . راجع : المساند ١٣ / ٢٠٤

التنيه ٣٦ ، الأغاني ١٢٣ ، حماسة البحترى ٣٩٦ ، ويريوي للفرزدق بيت قريب في نفس المعنى (ربيع الحيوان ٦ / ٢٩٨ ، المعانى الكبير ١ / ٢٨٥) . ويقول الماحظ : (الحيوان ط ، هارون ٧ / ٦٣) : « الذئب لا يطمع فيه صاحبه فإذا دمى وشب عليه صاحبه فأكله » .

(٤) والبيت للعباس بن مرداس ، وأبوخراشة هو خفاف بن ندبة ، ورواية الحيوان : (أما كنت) ط هارون ٥ / ٢٤ ، وراجع شرح المفصل ط ليزوج ٢ / ١١٨٤ والشعر والشعراء ط شاكر ١ / ٣٠٠ .

جاء الأسد وأطاف بهم فجعل عتبة يقول : أكلني السبع ، فلما كان في بعض الليل علا^(١) عليه فخدغ رأسه . وقد يتسع في ذلك حتى يجعل العقر أكلًا وكذلك اللدغ والمسع . أخبرنا أبو عمر قال : أخبرنا أبو العباس عن ابن الأعرابي عن أبي المكارم قال : مررت بمنهاه وعلى شفирه صنبور بيده شوشب فقلت لأمه : أدركى القامة لا تأكله الهامة . قال أبو العباس : الشوشب ، العقرب والقامة الصبي الصغير . وحكي أيضًا عن بعض الأعراب أكلوني البراغيث ؛ فجعل قرص البرغوث أكلًا . ومثل هذا في الكلام كثير^(٢) .

وأما قوله سبحانه : ﴿ وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾^(٣) فإن معنى الكيل المقربون بذكر البعير المكيل ، والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم : هذا درهم ضرب الأمير وهذا ثوب نسج اليمن ، أي مضروب الأمير ونسيج اليمن ، والمعنى أنا نزداد من الميرة المكيلة إذا صحينا أخونا حمل بعير^(٤) ؛ فإنه كان لكل رأس منهم حمل واحد لا يزيد على ذلك لغزة الطعام ، فكان ذلك في السنين السبع القحطة ، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده ولا يتيسر لهم مaramah إلا من قبله فقيل على هذا المعنى : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي متيسر لنا إذا تسبينا إلى ذلك باستصحاب أخينا ، واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأمور كاليسير فيما يتعدى منها ، ولذلك قيل يُسّرَ الرجل إذا نُتّجَت مواشيه وكثير أولادها . قال الشاعر :

يَعُدُّ الفتى من نفسه كُلَّ ليلة أَصَابَ غناها مِنْ صَدِيقٍ مُّيسِرٍ^(٥)

(١) في « ا » عدا .

(٢) في « ا » : ومثل هذا الكلام كثير . والأصل ما أثبتناه .

(٣) (يوسف ١٢ / ٦٥) .

(٤) في الأصل : حمل به بعير ، والظاهر أن (به) زائدة ، وقد حذفت في (ا) .

(٥) يسر الرجل تيسيرًا إذا سهلت ولادة أبله وغضمه ، والغم لنها أو نساها .

وقال آخر^(١):

وقد قيل في ذلك : كيل يسير أى سريع لا حبس فيه ، وذلك أن القوم كانوا يحبسون على الباب ، وكان يوسف يقدمهم على غيرهم ؟ وقد قيل إن معنى الكيل هنا السعر . أخبرني أبو عمر عن أبي العباس قال : والكيل يعني السعر ، كيف الكيل عندكم ؟ أى : كيف السعر ؟ وقد أنشدنا عمرو ابن أبي عمرو الشيباني عن أبيه^(٢) :

فَإِنْ تَكُ فِي كِيلِ الْيَمَامَةِ عَسْرَةُ فَمَا كَيْلُ مَيَّافَارِقِينَ^(٣) بِعَسْرَةِ

وأما قوله سبحانه : ﴿أَنِ امْشُوا واصْبِرُوا عَلَى آلِهٰتِكُم﴾^(٤) وقول من زعم أنه لو قيل بدلـه : امضوا وانطلقوـا كان أـبلغ ، فليس الأمر على ما زـعمـه ، بل المشـى في هذا المـحل أـولـاً وأـشبـهـ بالـمعـنى ، وـذلك لأنـه إنـما قـصـدـ به الاستـمرـارـ على العـادـةـ الجـارـيةـ ولـزـومـ السـجـيـةـ المعـهـودـةـ فيـ غـيـرـ انـزعـاجـ منـهـمـ ولاـ اـنتـقـالـ عنـ الـأـمـرـ الأولـ ، وـذلكـ أـشـبـهـ بالـثـباتـ والـصـبـرـ المـأـمـورـ بهـ فيـ قـوـلـهـ : ﴿واصْبِرُوا عَلَى آلِهٰتِكُم﴾ـ والـعـنـيـ كـأـنـهـمـ قـالـواـ : اـمـشـواـ عـلـىـ هـيـنـتـكـمـ وـلـىـ مـهـوىـ^(٥)ـ أـمـورـكـمـ ، وـلـاـ تـرـجـواـ عـلـىـ قـوـلـهـ ، وـلـاـ تـبـالـواـ بـهـ . وـفـيـ قـوـلـهـ : اـمـضـواـ وـانـطـلـقـواـ زـيـادـةـ انـزعـاجـ لـيـسـ فيـ قـوـلـهـ اـمـشـواـ ، وـالـقـوـمـ لـمـ يـقـصـدـواـ ذـلـكـ وـلـمـ يـرـيدـوهـ ، وـقـيـلـ : بـلـ المشـىـ هـاـهـنـاـ معـناـهـ التـوـفـرـ فـالـعـدـدـ وـالـاجـتمـاعـ لـلـنـصـرـةـ دـوـنـ المشـىـ الـذـىـ هـوـ نـقـلـ

(١) هو أبوأسيدة الديبرى كما في اللسان ط بولاق ٧ / ١٥٩ ، وينشد قبله بيتأ آخر :

إن لنا شيخين لا ينفعاننا غنيمن لا يجدى علينا غناهما

(٢) البيت يرويه ياقوت في معجم البلدان ٨ / ٢١٤ وينسبه إلى بعض الشعراء.

. (٤) (ص ٣٨ / ٦) .

(۳) میافارقین مدینہ بدیار بکر .

(٥) فـ «بـ» : والزموا .

الأقدام ، من قول العرب : مشى الرجل إذا كثر ولده . وأنشدو :

والشاة لا تمشي على الهمَلْع
أى لا يكثر نتاجها ، والهمَلْعُ الذئب .

وأما قوله سبحانه : ﴿ هَلَكَ عَنِ سُلْطانِيَّهُ ﴾ وزعمهم أن الهلاك لا يستعمل إلا في تلف الأعيان ففيهم ما زادوا على أن عابوا أفسح الكلام وأبلغه ، وقد تكون الاستعارة في بعض الموضع أبلغ من الحقيقة كقوله عز وجل ﴿ وَآيَةُ لَهُمُ اللَّيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾^(١) والسلخ هنا مستعار وهو أبلغ منه لو قال نخرج منه النهار وإن كان هو الحقيقة وكذلك قوله سبحانه : ﴿ فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنُ ﴾ هو أبلغ من قوله : فاعمل بما تؤمن وإن كان هو الحقيقة ، والصدع مستعار ، وإنما يكون ذلك في الزجاج ونحوه من فلز الأرض ، ومنه المبالغة فيما أمر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب . تأثير الصدع في الزجاج ونحوه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ هَلَكَ عَنِ سُلْطانِيَّهُ ﴾ وذلك أن الذهب قد يكون على مراصدة العود ، وليس مع الهلاك بقيا ولا رجعا ، وقد قيل إن معنى السلطان هنا الحجة والبرهان .

وأما قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وأن الشديد معناه هنا البخيل ، ويقال : رجل شديد ومتشدد أى بخيل . قال طرفة^(٢) أرى الموت يعتامُ النفوس ويصطفي عقيلة مَالِ الفاحِشِ المتَشدِّدِ واللام في قوله : ﴿ لِحُبِّ الْخَيْرِ ﴾ يعني لأجل حب الخير وهو المال لبخيل .

وأما قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاتِ فَاعْلَمُونَ ﴾ وقولهم إن المستعمل في الزكاة المعروف لها من الألفاظ . ، كالآداء والإيتاء والإعطاء ، ونحوها كقولك :

(١) [يس ٣٦ / ٣٧] .

(٢) من المعلقة راجع ديوان طرفة ص ٣١ ، والعقد المبين ٥٨ وروايته : يعتام الكرام .

أدى فلان زكاة ماله وآتاهها وأعطاتها ، أو زَكَّى ماله ، ولا يقال : فعل فلان الزكاة ، ولا يعرف ذلك في كلام أحد . فالجواب أن هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الأسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب ، ومعنى الكلام ومراده المبالغة في أدائها والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم ، فيصيير أداء الزكاة فعلا لهم مضافاً إليهم يُعرفون به ، فهم له فاعلون . وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ، فهي إِذَا أُولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى . وقد قيل إن معنى الزكاة هنا العمل الصالح الراكي ، يريد - والله أعلم - والذين هم للأعمال الصالحة والأفعال الراكيه فاعلون .

وأما قوله عز وجل : ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَدًا﴾ وإنكارهم قول من يقول جعلت لفلان ودًا بمعنى ودته فإنهم قد غلطوا في تأويل هذا الكلام ، وذهبوا عن المراد فيه ، وإنما المعنى أن الله سيجعل لهم في قلوب المؤمنين ، أي يخلق لهم في صدور المؤمنين مودة ، ويغرس لهم فيها محبة ، كقوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(١) أي خلق .

وأما قوله سبحانه : ﴿رَدَفَ لَكُم﴾ فإنهم لغتان فصيحتان : ردفته وردفت له كما تقول : نصحته ونصحت له^(٢) . وأما قوله سبحانه : ﴿وَمَنْ يُرِدُ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بَظْلَمٌ﴾^(٣) ودخول الباء فيه فإن هذا الحرف كثيراً ما يوجد في كلام العرب الأول الذي نزل القرآن به ، وإن كان يعز وجوده في كلام المتأخرین . وأخبرني الحسن بن عبد الرحيم عن أبي خليفة عن محمد ابن سلام الجمحي قال : قال أبو عمرو بن العلاء : اللسان الذي نزل به

(١) في «ب» زيادة (لا ينكروه عالم باللغة) .

(٢) [٧٢ / ١٦] .

(٣) [٢٥ / ٢٢] .

القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عربية أخرى عن^(١) كلامنا هذا . وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقياً على تجره الأول وعلى سinx طبعه الأقدم إلى زمان بنى أمية ثم دخله الخلل فاختل^(٢) منه أشياء ، ولذلك قال أبو عمرو حين أنشد قول امرئ القيس^(٣) :

نطعنهم سُلْكَى ومخلوجَةً كرَكَ لامِينٍ على نابل

ذهب من يحسن هذا الكلام . وأخبرني أبو عمر عن أبي الحسن العباس عن ذكره أن أبا عمرو أنسد قول الحارث بن حلنة^(٤) :

زَعَمُوا أَنْ كُلًّا مِنْ ضربِ العَيْنِ رَمُوا لَنَا وَأَنَا الولاءُ

فقال : ذهب من يحسن هذا الكلام . قلت : ولهذا صار العلماء لا يحتاجون
بشعر المحدثين ، ولا يستشهدون به ك بشار بن برد ، والحسن بن هانى ، ودعبل
والعتابى ، وأحزابهم من فصحاء الشعراء والمتقدمين في صنعة الشعر ونجره .
ولئما يرجعون في الاستشهاد إلى شعراء الجاهلية وإلى المخضرمين منهم ، وإلى
الطبقة الثالثة التي أدركت المخضرمين ، وذلك لعلهم بما دخل الكلام
في الزمان المتأخر من الخلل والاستحالة عن رسمه الأول . فمن لم يقف على
هذه الأسباب ثم قاس ما جمعه من تلاد الكلام الأول ، واعتبره بما وجد عليه
كلام الانشأء^(٥) المتأخرین عَى بشيء كثیر من الكلام وأنكره ، وأما من
تبحر في كلام العرب ، وعرف أساليبه الواسعة ، ووقف على مذاهبه القدمة فإنه

(١) فـ «بـ» : غير . (٢) فـ «بـ» : وأحيل .

(٣) ويروى في اللسان ١٢ / ٣٢٨ : كر كلامين ، قال : وصفه بسرعة العطن وشبهه ،
بمن يدفع الريشة إلى النابل ، وشعراء النصرانية ١٨ / ١ : لغتك لأمين على النابل ، وقد أثبتت (١) :
كسرك الأمين على نابل وهو خطأ . (٤) البيت من معلقته .

(٥) هذه اللفظة(الأنشاء) غير واضحة ، وقد وردت العبارة في (١) «كلام الإنثما من المتأخر بين» .

إذا ورد عليه منها ما يخالف المعهود من لغة أهل زمانه لم يسرع إلى النكير فيه والتلحين . أخبرنا أبو عمر عن أبي العباس قال : قال ابن الخطاب : أنجح الناس من لم يلحن أحداً . وسمحت ابن أبي هريرة يحكى عن أبي العباس بن سريج قال : سأله رجل بعض العلماء عن قول الله عز وجل : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلْدَ ﴾^(١) فأخبر أنه لا يقسم ثم أقسم به في قوله : ﴿ وَالَّتِينَ وَالَّتِي تُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلْدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا ﴾^(٢) فقال له ابن سريج : أى الأمرين أحب إليك ، أجيبيك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبيك ؟ قال : لا بل أقطعني ثم أجبني . فقال له : أعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضور رجال وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجعلوا فيه مغماً ، وعليه مطعناً فلو كان هذا عندهم^(٣) مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت ، ثم قال له : إن العرب قد تدخل لا في أثناء كلامها وتلغى معناها ، كقول الشاعر :

فِي بَشَرٍ لَا حُورٌ^(٤) سَرِيٌّ وَمَا شَعَرٌ

يريد في بشر حور سرى وما شعر ، وأخبرني أبو عمر عن أبي العباس عن ابن الأعرابي قال : العرب تذكر لا وتلغيه وتضمر لا وتسئله ، وأنشد في الأول قوله :

فِي بَشَرٍ لَا حُورٌ سَرِيٌّ وَمَا شَعَرٌ

(١) [البلد ١/٩٠] . (٢) [التين ١٧٩٥ - ٤] .

(٣) سقطت لفظة (عندهم) في ص .

(٤) حار إلى الشيء وعن الشيء رجع حوراً وحوراً ، وقول العجاج في بشر لا حور سرى وما شعر ، أراد في بشر لا حور فأسكن الواو الأولى وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها . ولا هنا صلة في رأى الأزهري وعند الفراء أنها قائمة صحيحة والمعنى في بشر ما لا يغير عليه شيئاً) . (اجم المذاهب ٥ / ٢٩٦ حور) .

وفي الآخر قول الشاعر :

أوصييكَ أَنْ تَحْمِدَكَ الْأَقَاربُ أَوْ يَرْجِعَ الْمُسْكِينَ وَهُوَ خَائِبٌ
يُرِيدُ أَوْصِيكَ أَلَا يَرْجِعَ الْمُسْكِينَ خَائِبًا .

قلت : فهذا وما أشبهه زيادات حروف في مواضع من الكلام وحذف حروف في أماكن أخرى منها ، إنما جاءت على نهج لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير ، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها في كلامهم . فافهم هذا الباب ، فإنك إذا أحكمت معرفته استفدت علماً كثيراً وسقطت عنك مئونة عظيمة وزال عنك ريب القلب ، وتخلصت من شغب الخصم ، ولا قوة إلا بالله .

ونعود إلى الجواب عن قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ ﴾ فنقول : قد قيل إن الباء زائدة .

والمعنى : ومن يرد فيه بالحاد بظلم ، والباء قد تزداد في مواضع من الكلام ولا يتغير به المعنى .

كقولك : أخذت الشيء وأخذت به ، وكقول الشاعر ^(١) :

نُضْرِبُ بالسيفِ ونرْجُو بالفرجِ

وكقول الآخر ^(٢) :

هُنَّ الْحَرَائِرُ لَا رِيَاتُ أَحْمَرَةٍ سُودُ الْمَحَاجِرُ لَا يَقْرَآنَ بِالسُورِ

يقال : قرأت البقرة ، وقرأت بالبقرة . وقد قرأ غير واحد من القراء :

﴿ تُنْبِتُ بِالدُّهْنِ ﴾ بضم التاء منهم ابن كثير وأبو عمرو ، وزعم بعضهم أن

(١) من شواهد المعنى ، راجع شرح الشواهد للسيوطى ١١٤ ، وشطره الأول : نحن بنى خبة أهbab الفلج .

(٢) هو الراعي المنيرى (عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل) ، من شواهد المعنى ، راجع الشرح ١١٦ . ويروى للقتال الكلبى أيضاً .

معنى تنبت الدهن بعضهم تنبت وفيهادهن كما يقال : جاء زيد بالسيف
أى جاء ومعه السيوف ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿أَوْلَمْ يرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَعْمَلْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ . . .﴾^(١) المعنى قادر على أن
يحيى الموتى ، قالوا : وإنما تدخل الباء في هذا المعنى مع حرف الجحد كقوله :
﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِي الْمَوْتَى﴾^(٢) وقد ضارع ألم في معنى الجحد
أليس ، فالحق بحكمه ، قالوا : ودخول أى إنما هو توكيد للكلام وأنسد
الفراء في مثل هذا الباء^(٣) :

فما رجعت بخائبة ركاب حكيم بن المسيب منها
قال : فَادْخُلِ الْبَاءَ^(٤) ، قال : وتقول : ما أَظْنَكَ بِقَائِمٍ^(٥) ، فإذا
حذفت الباء نصبت الذي كانت فيه بما تُعمل فيه من الفعل .
وأما قوله سبحانه : ﴿ كَمَا أَخْرَجْتَ رَبِّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ . . . ﴾ الآية
ففيه وجوه ذهب إليها أهل التفسير والتأويل ، كلها محتملة ، أيها اعتمدت
وعلقت عليه الكاف حملها وصح الكلام عليه . وقال بعضهم أن الله سبحانه
أمر رسوله أن يمضى لأمره في الغائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره
في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون ، وذلك لأنهم في يوم بدء اختلافوا
في الأنفال ، وحاجوا النبي صلى الله عليه وسلم وجادلوه ، فكره كثير منهم
ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفل ، فأنزل الله تعالى الآية ،
 وأنفذ أمره فيها ، وأمرهم أن يتقدوا الله ، وأن يطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما
يفعله من شيء فيما بعد إن كانوا مؤمنين ، ووصف المؤمنين ثم قال :

(١) [الأحقاف ٤٦/٣٣] . (٢) [القيامة ٧٥/٤٠] .

(٣) راجع شرح شواهد المغني ١١٧.

(٤) فـ « بـ » : قال : فأدخل الباء في فعل لو ألغيت منه نصب بالفعل لا بالباء .

(٥) فـ «بـ» : ما أظنك بقائم ، وما أظن أنك قائم .

﴿كما أَخْرَجَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ بَيْتِكُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ ،
 يريده أن كراحتهم لما فعلته في الغنائم ككراحتهم في الخروج معك وقد
 حمدوا عاقبته فليصبروا^(١) في هذا وليسّلّموا ويحمدوا عاقبته كذلك . وقيل
 معناه : أُولئك هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا كَمَا أَخْرَجَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ بَيْتِكُمْ بِالْحَقِّ كَقُولَه :
 ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) . وقيل «كما»^(٣)
 صفة لفعل مضمر وأن تأويله : «افعل في الغنائم كما فعلت في الخروج
 إلى بدر وإن كره القوم ذلك ، كقوله سبحانه : ﴿كَمَا أَرْسَلَنَا فِيْكُمْ رَسُولًا
 مِنْكُم﴾ معناه : «كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول فيكم من أنفسكم كذلك
 أَنْتُمْ نعْمَلُ عَلَيْكُمْ» .

وأما قوله سبحانه : ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾^(٤) فإن فيه محدوداً
 يدل ظاهر الكلام عليه ؛ كأنه قال : أنا النذير المبين عقوبة أو عذاباً ، كما
 أنزلنا ، أي مثل ما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عرضين . فإن قيل :
 أو ليس وإن توجه الكلام وصح على الوجه الذي ذكرتمنه في معنى قوله سبحانه :
 (كما أَخْرَجَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ بَيْتِكُمْ بِالْحَقِّ) فقد دخله من الانتشار بتفرق أجزاءه
 وتبعاد ما بين فصوله ما أخرجه من حسن^(٥) النظم الذي وصفتموه به ؟
 قيل : لا ، وذلك لأنّه لم يدخل بينه وبين أول ما يتصل به إنما قال :
 ﴿وَاطِّبِّعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ثم وصف هذا الإيمان وحقيقةه إذ
 كان هذا القسم يقع على أمر ذي شعب وأجزاء ، يلزم أدناه من ذلك ما يلزم
 أقصاه ، فلو لم يستوفه بالصفة الجامعة له^(٦) لم يبين معه المراد ، ثم عطف

(١) سقطت من (١) العبارة : «فليصبروا في هذا ولبسّلّموا ويحمدوا عاقبته» .

(٢) [الذاريات ٥١ / ٢٣] .

(٣) في الأصل «ما كان» وصحّناها كتصحيح (١) «كما» ، في «ب» (الكاف)

(٤) (الحجر ١٥ / ٩٠) . (٥) في «ب» من جنس . (٦) في (١) معد .

بالكلام على أول الفصل فقال : ﴿كما أخرجكَ ربُّكَ من بيتكَ بالحقِّ وَإِنَّ فريقياً من المؤمنين لكارهون﴾ : فشبه كراحتهم ما جرى في أمر الأنفال وقسمها بالكراهة في مخرجه من بيته ، وكل مالا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة فهو كنفس الكلام . فإن قيل : فما معنى قوله : ﴿لَا تُحِرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لَتَعْجَلَ بِهِ﴾ الآية ؟ وقد اكتنفه من جانبيه قوله سبحانه : ﴿بِلِ الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ قوله : ﴿كَلَّا بَلْ تَحْبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُّونَ الْآخِرَةَ﴾ . ولا مناسبة بين الكلامين اللذين اعتوراه . قيل هذا عارض من حال دعت الحاجة إلى ذكره ، لم يجز تركه ولا تأخيره عن وقته ، كقولك للرجل وأنت تحدثه بحديث فيشتغل عنك ويقبل على شيء آخر - أقبل على واسمع ما أقول ، وافهم عنى ، ونحو هذا من الكلام ، ثم تصل حديثك ولا تكون بذلك خارجاً عن الكلام الأول قاطعاً له ، إنما تكون به مستوصلاً للكلام مستعيداً له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب وكان إذا نزل الوحي وسمع القرآن حرك لسانه يستذكر به ، فقيل له : تفهم ما يوحى إليك ولا تتقلبه^(١) بلسانك ، فإنما نجمعه لك ونحفظه عليك . أخبرنا الأصم قال نا أبو أمية الطرسوسي قال : حدثني عبيد الله بن موسى قال^(٢) : حدثني إسرائيل عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله سبحانه : ﴿لَا تُحِرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لَتَعْجَلَ بِهِ﴾ قال : كان يُحرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ مخافةً أن يتفلت منه .

وأما ما عابوه من الحذف والاختصار في قوله سبحانه : ﴿لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجَبَلُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ فإن الإيجاز في

(١) في «ب» تتقلبه .

(٢) في «ب» : أخبرنا الأصم قال حدثني أبو أمية الطرسوسي قال حدثني إسرائيل . . .

موضوعه . وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة ، وإنما جاز حذف الجواب في ذلك وحسن لأن المذكور منه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه ، لأن المقصود من الخطاب عند أهل الفهم كالمقطوع به ، والمعنى : لو أن قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن . وقد قيل : إن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لكان مقصوراً على الوجه الذي تناوله الذكر . فحذف الجواب كقوله : لو رأيت علياً بين الصفيين ! وهذا أبلغ من الذكر لما وصفنا . وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمِرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وُفِّتْهُ أَبْوَابُهَا . . . ﴾ الآية والمعنى كأنه قيل : لما دخلوها حصلوا على النعيم المقيم الذي لا انقطاع له ولا تكثير^(١) فيه .

وأما ما عابوه من التكرار ؛ فإن تكرر الكلام على ضربين : أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغوًا . وليس في القرآن شيء من هذا النوع .

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه ، وتدعى الحاجة إليه فيه ، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويختلف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها . وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل : عجل

(١) في « ب » (تصريد) والتصريد في اللسان سقي دون الرى ، أو شرب دون الرى .

عجل ، وارم ارم ، كما يكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب : مُهم
مهم مهم ، ونحوها من الأمور . وكقول الشاعر^(١) :

هَلَّا سَأْلَتْ جُمْوَعَ كِنْدَ لَدَّ يَوْمَ وَلَّوا أَيْنَ أَيْنَا

وقول الآخر^(٢) :

يَا لَبَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كُلَّيْبًا يَا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفَرَارُ

وقد أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالسَّبِيلِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ كَرَرَ الْأَقَاصِيصَ وَالْأَخْبَارَ
فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ سَبَحَانَهُ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَلَنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لِعِلْمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(٣)
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لِعِلْمِهِمْ يَتَقَوَّلُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾^(٤)
وَأَمَّا سُورَةُ الرَّحْمَنِ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ خَاطَبَ بِهَا الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْإِنْسَنِ وَالْجَنِّ ،
وَعَدَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ نِعَمِهِ الَّتِي خَلَقَهَا لَهُمْ ، فَكُلُّمَا ذَكَرَ فَصَلَّى مِنْ فَصُولِ النِّعَمِ
جَدَدَ إِقْرَارَهُمْ بِهِ وَاقْتِضَاهُمُ الشَّكْرُ عَلَيْهِ ، وَهِيَ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ وَفَنَوْنٌ شَتَّى ،
وَكَذَلِكَ هُوَ فِي سُورَةِ « الْمَرْسَلَاتِ » ذَكَرَ أَحْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالَهَا فَقَدْمَ
الْوَعِيدِ فِيهَا وَجَدَدَ الْقَوْلَ عِنْدَ ذَكْرِ كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهَا لِتَكُونَ أَبْلَغَ فِي الْقُرْآنِ
وَأَوْكَدَ لِإِقْامَةِ الْحِجَةِ وَالْإِعْذَارِ ، وَمَوَاقِعُ الْبَلَاغَةِ مُحْتَبَرَةٌ لِمَوَاضِعِهَا مِنَ الْحَاجَةِ .
فَإِنْ قِيلَ : إِذَا كَانَ الْمَعْنَى فِي تَكْرِيرِ قَوْلِهِ : ﴿ فَبَأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبُانِ ﴾
تَجَدِيدُ ذَكْرِ النِّعَمِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَاقْتِضَاءُ الشَّكْرِ عَلَيْهَا ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ :
﴿ يُرِسَّلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنِحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرُانِ ﴾^(٥) ثُمَّ أَتَبَعَهُ قَوْلُهُ :
﴿ فَبَأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبُانِ ﴾ وَأَيْ مَوْضِعٌ نِعْمَةٌ هَاهُنَا ؟ وَهُوَ إِنَّمَا يَتَوَعَّدُهُمْ

(١) يُنْسَبُ إِلَى عَبْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ ، رَاجِعُ دِيْوَانِ عَبْدِهِ ص ٢٨ طُ أُورْبَا وَالصَّنَاعَتَيْنِ طُ الْبَجَاوِيِّ وَأَبْيُو الْفَضْلِ سَنة ١٩٥٢ م ص ١٩٤ .

(٢) هُوَ مَهَلَّهَلٌ زَيْبَعَةٌ رَاجِعُ الْأَغْنَانِ طُ دَارُ الْكِتَابِ ٥٩/٥ .

(٣) [الْقَصْصَ ٢٨/٥١] . (٤) [الرَّحْمَنَ ٢٠/١٣] . (٥) [الْقَصْصَ ٥٥/٣٥]

بلهب السعير والدخان المستطير .. قيل إن نعمة الله تعالى فيها أنذر به وحذر من عقوباته على معااصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بـإباء نعمه على ما وعد وبشّر من ثوابه على طاعته ليرغبوا ^(١) فيها ويحرصوا عليها . وإنما تُتحقق معرفة الشيء بـأن يُعتبر بضيده ليوقف على حده .

والوعد والوعيد وإن تقبلا في ذواتهما فإنهما متوازيان في موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما والإبانة على عواقب مصيرهما ، وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء :

والحوادث وإن أصابك بؤسها فهو الذي أبكى كيف تعيمها

وأما قولهم : لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم ، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز وقبيل ، لكان أحسن نظماً وأكثر فائدة ونفعاً فالجواب : أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعانى في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدة وأعم لنفعه . ولو كان لكل باب منه قبيل ، ولكل معنى سورة مفردة لم تكن عائداته ، ولكن الواحد من الكفار ^(٢) والمعاذين المنكرين له إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه ^(٣) الحجة به إلا في النوع الواحد الذى تضمنته السورة الواحدة فقط . ، فكان اجتماع المعانى الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظاً وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد للمعنى الذى ذكرناه . والله أعلم .

وقد أحب الله عز وجل أن يتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهدهم في جمع المتفرق منه ، وفي تنزيله وترتيبه ، وليرفع الله الذين آمنوا منهم والذين أتوا العلم درجات .

(١) في (١) فيرغبوا وهو خطأ . (٢) في «ب» : المتكبرين .

(٣) في الأصل علينا وقد صححتنا «عليه» وكذلك صحيحه (١) .

فإن قيل ما أنكرتم أن القوم قد عارضوه ولكنه ^(١) لم ينقل إلينا وغيب عن ذكره ، وكتم الخبر فيه لما اتسع الإسلام وخافوا على أنفسهم ، فانقطع رسمه وأمحى أثره . قيل : هذا سؤال ساقط ، والأمر فيه خارج عما جرت به عادات الناس ، خواصهم وعوامهم من نقل الأخبار ، والتحدث بالأمور التي لها شأن ، وبالنفوس تعلق ، ولها فيها وقع . وكيف يجوز ذلك عليهم في مثل هذا الأمر العظيم الذي قد انزعجت له القلوب وسار ذكره بين الخافقين ! ولو جاز ذلك في مثل هذا الشأن مع عظيم خطره وجلاة قدره لجاز أن يكون قد خرج في ذلك العصر بآخر ، وأنبياء ذوو عدد ، وتنزلت عليهم كتب من السماء ، وجاءوا بشرائع مخالفة لهذه الشريعة ، وكتم الخير فيها فلم يظهر . وهذا ما لا يتوجه أن يكون لخروجه من سوم الطياع ومجاري العادات ، فكذلك ما سألنا عنه .

فإن قيل : «ما أنكرتم أن المعارضة قد حصلت منهم لبعضه ، وهو ما بلغ مقداره عدد الآي من بعض السور القصار ، نحو ما حكى عن مسيلمة من قوله : «يا ضفدع نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرین ولا الوارد تنفرین» وكما حكى عن بعضهم من قوله : «ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبل ، أخرج منها نسمة تسعي ، بين شهرين وحشى» ن . وكما قال آخر منهم : «الفيل ، وما الفيل ، وما أدرك ما الفيل . له مشعر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل» .

قيل : أما قول مسيلمة في الضفدع فمعلوم أنه كلام حال من كل فائدة ،

(١) علق (١) على هذه العبارة بهامش جاء فيه : (كذا بالأصل ، وفي العبارة حذف ، تقديره : حاصل ، أو واقع ، ولكنه لم ينقل إلينا . . . إلخ) ، وعبارة الأصل مستقيمة لا تحتاج إلى مثل هذا التقدير ولفظة «ما» فيها نافية وليس موصولة .

لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التي هي أركان البلاغة ، وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل ما فيه من السجع . والساجع عادته أن يجعل المعانى تابعة لسجعه ، ولا يبالى بما يتكلم به إذا استوت آساجيعه واطردت .

ولخلو هذا الكلام من كل نوع من الفوائد قال أبو بكر رضى الله عنه حين طرقت^(١) سمعه : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من بال . وأخبرنى ابن الفارسى محمد بن القاسم بن الحكم قال : أخبرنى أبي قال أخبرنى إبراهيم بن هانئ قال : أخبرنى يحيى بن بکير قال : أخبرنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن سعيد بن نشيط . قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلى البحرين ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو ثُمَّ . قال عمرو : فاقتلت حتى مرت على مسيلمة فأعطاني الأمان ثم قال : إن محمداً أرسل في جسم الأمور وأرسلت في المحررات . فقلت : أعرض على ما تقول . فقال : «يا ضفدع نق فـإنك نعم ما تنقين . لا وارداً تنفرین ، ولا ماءً تکدرین ، يا وَبِرُّ يا وَبِرُّ»^(٢) يدان وصدر ، وسائرك حضر^(٣) نفر ». ثم أتى أناس يختصمون إليه في نخل قطعها^(٤) بعضهم لبعض فتسجي بقطيفة ثم كشف رأسه فقال : «والليل الأدهم ، والذئب الأسمح ، ما جاء بنو أبي مسلم من محـرم» ثم تسجي الثانية فقال : «والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما حرمتـه رطبـاً إلا كحرمتـه يابـس ، قوموا فلا أرى عليـكم فيما صنعتـ شيئاً» . قال : قال عمرو : أما والله إـنك تعلم وإنـا

(١) فـ(١) : طرق . (٢) الوبر دويبة كالسنور .

(٣) ذكر (١) أن ابن كثير أورد هذه القصة وفيها : وسيرك حفر ونقر ، وفي (بـ) :

(٤) في الأصل : أقطعها . وسائرك حفر نقر .

لنعلم أنك من الكاذبين .. فتوعدنى .

قلت : صدق عمرو . هل يخالف أحداً شك في ضلاله من هذا سبيله ، وسقوطه . من هذا برهانه ودليله ؟ ! .. وأى بلاغة في هذا الكلام ؟ ، وأى معنى تحته ، وأى حكمه فيه حتى يتورم أن فيه معارضه للقرآن ، أو مبارأة له على وجه من الوجه ؟ . ولكن البائس أعلم بنفسه حين يقول : أرسلت في المحررات ، ولا يراد ^(١) أحقر مما جاء به وأقل . ولعل بعض ما جاء به أبو اليتبعي ^(٢) ، وأبو العبر ، والطرمي وأضرابهم من السخافات أشف منه وأخف على السمع . وما أشبه الأمّ في هذا بما حكى لنا عن أبي عمرو بن العلاء : حدثني محمد ابن الحسين بن عاصم قال : حدثني محمد بن الصباح المازني قال : حدثني عبد الله بن الهيثم حدثنا الأصمّي قال : أنسدَ رجل أبا عمرو بن العلاء شعرًا رديئًا فقال : هذا شبه شعر فلان :

حدارجاً حدارجاً سبعين فرخاً دارجاً

قال : وأنشدَ رجل آخر شعرًا رديئًا فهـ ^(٣) فقال : هذا يشبه شعر بشار ^(٤) :
حبابـة ربةـ الـ بـيـت تـصـبـ الـ خـلـ فـ الـ زـيـت
لـهـاـ سـبـعـ دـجـاجـاتـ وـدـيـكـ حـسـنـ الصـوتـ

وأما قول الآخر : الفيل وما الفيل وما أدرك ما الفيل ، وقول صاحب ^(٥)
ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبل . . . فإن كل واحد من هذين الكلامين
مع قصور آيه ^(٦) ، وقصر معانيه خال من أوصاف المعارضات وشروطها ، وإنما

(١) فـ (بـ) : ولايري . (٢) وهو رجل هايل خليع .

(٣) في الأصل فيها وقد قرأها (١) تفيها وصوّبناها فيها ومعناها عيـاـ .

(٤) البيتان في الأغاني ط دار الكتب ١٦٣/٣ ورواية البيت الأول : ربابة ربة البيت .

(٥) قرأها (١) «صاحبـةـ» والأصل أصحـ .

(٦) الأصل واضحـ كما أثبتناه ولكن (١) قرأها «رأـيـهـ» .

هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن واحتداء لبعض أمثلة نظمه ، وكلا لن يبلغوا شاؤه أو يصيروا في شيء من ذلك حذوه وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر أن ينشئ له كلاماً جديداً ويحدث له معنى بديعاً ، فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه ليوازن بين الكلامين فيحكم بالفلج لمن أَبْرَ^(١) منها على صاحبه ، وليس بأن يتحيز من أطراف كلام خصميه فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلقيق ، ثم يزعم أنه قد وافقه موقف المعارضين وإنما المعارضة على أحد وجوه :

منها أن يتبارى الرجالان في شعر أو خطبة أو محاورة فيأتي كل واحد منها بأمر محدث من وصف ماتنازعاه ، وبيان ماتباريا فيه يوازي بذلك صاحبه أو يزيد عليه ، فيفصل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوى والتفاضل ، نحو ما تنازعه أمرُ القيس وعلقمة بن عبدة من وصف الفرس في قصيدةيهما المشهورتين ، فافتتح أمرُ القيس قصيده بقوله^(٢) :

خَلِيلٌ مَرَأَ بِي عَلَى أَمْ جَنْدِبِ

فلما صَبَرَ إِلَى ذِكْرِ الْفَرَسِ وَسَرْعَةِ رَكْضِهِ قَالَ :

فَلِلزَّجْرِ الْهَوْبُ وَلِلْسَّاقِ دَرَةُ وَلِلسُّوْطِ مِنْهُ وَقْعُ أَهْوَجِ مُنْعِبٍ^(٣)

(١) فـ (ب) : أرب .

(٢) راجع القصة والأبيات في شرح ديوان أمر القيس لأبي بكر عاصم بن أبى ط هندية سنة ١٣٢٤ هـ ص ٧٢ والموضع للمرزباني ، ٣٠ ، ٣١ وبروايات مختلفة .

(٣) هكذا في الأصل ويروى وقع آخر مهذب وكذا في (١) : والأخرج الظليم وهو ذكر النعام ، ومهذب مسرع في عدوه . وفي الديوان البيت :

فَلِلْسَّاقِ الْهَوْبُ وَلِلْسُوْطِ دَرَةُ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَهْوَجِ مُنْعِبٍ
وَأَهْوَجِ الْأَحْمَقِ ، وَالْمُهْوَجَ السَّرِيعَةِ ، وَالْمُنْعِبِ الَّذِي يَسْتَعِنُ بِنَعْقِهِ .

وابتدأ علقة قصيده بقوله ^(١) :

ذهبت من الهجران في غير مذهب

فلما صار إلى ذكر الفرس وركضه قال :

**فعقى على آثارهن بحاصبٍ وغيبةٍ شوبٍ من السد ملهمٍ
فأدراكٌ كهنٌ ثانياً من عنانه يمر كمر الرائع المتغلبٍ ^(٢)**

وكان قد حكمَا بينهما امرأة امرئ القيس ، فقالت لزوجها : علقة أشعر منك ، فقال : وكيف ذلك ؟ قالت : لأنَّه وصف الفرس بأنَّه أدرك ^(٣) الطريدة من غير أن يجهده أو يكلده ، وأنت مريت فرسك بالزجر وشدة التحرير والضرب ، فغضب عند ذلك وطلقها .

ونحو هذا معارضة الحارث بن التوأم اليشكري إيهام في إجازة أبيات :

أخبرني محمد بن الحسين بن عاصم قال أخبرني محمد بن الصباح المازني قال : أخبرني عبيد الله بن محمد الخنفي قال أخبرني محمد بن سلام عن أبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال : كان امرؤ القيس ينزع كل من قيل إنه يقول شعراً ، فنزع الحارث بن التوأم ، فقال امرؤ القيس ^(٤) :

أحاري ترى بريقا هب وهنا

(١) القصيدة في ديوان علقة ضمن مجموعة دواوين خمسة ص ١٣٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ١٣٤ ورواية الشطر : يمر كمر رائع متغلب .

(٣) العبارة غير واضحة في الأصل وتصحيحها من « ب » وهي في المصدر واضحة (راجع مثلاً الموسوعة ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠) . فقلت لامرئ القيس : هو أشعر منك ،رأيتك ضربت فرسك بسوطك وحركته بسافك ورأيته أدرك الصيد ثانياً من عنانه .

(٤) راجع شرح ديوان امرئ القيس ص ١٦٦ وما بعدها والعقد العتيق ١٣٢ ، شعراء ، النصرانية ١ / ١٠ - ١١ والعدمة ١ / ١٣٥ ط سنة ١٩٢٥ هـ ، واسم الشاعر في العدمة الحارث ابن قنادة وكنيته التوأم اليشكري .

فقال الحارث :

كتار مَجُوسَ تَسْتَعِرُّ اسْتِعَارَا

فقال امرؤ القيس :

أَرْقَتُ لَهُ ونَامَ أَبُو شُرِيعٍ

فقال الحارث :

إِذَا مَا قُلْتُ قَدْ هَدَأْ اسْتَطَارَا

فقال امرؤ القيس :

فَمَرَّ بِجَانِبِ الْعَبَلَاتِ مِنْهُ^(١)

فقال الحارث :

وَبَاتٍ يَحْتَفِرُ الْأَكْمَ احْتَفَارَا^(٢)

فقال امرؤ القيس :

فَلَمْ يَتَرَكْ بِبَطْنِ السَّيِّ ظَبِيَّا^(٣)

فقال الحارث :

وَلَمْ يَتَرَكْ بِعَرْصَتِهَا حَمَارَا^(٤)

فقال امرؤ القيس :

كَانَ هَزِيزَةُ بُورَاءِ غَيْبٍ

قال الحارث :

عَشَارُ وَلَهُ لَاقَتْ عَشَارَا

(١) هذا البيت غير موجود بالديوان .

(٢) هكذا الشطر في الأصل وهو غير واضح ومختلط .

(٣) رواية الديوان : فلم يترك بذات السر وهو موضع .

(٤) رواية الديوان : ولم يترك بحملتها ، وكذا في العدة ١ / ١٣٥ .

فقال امرؤ القيس :

فلما أن علا شرجي أضاخ^(١)

: قال الحارث

وهَتْ أَعْجَازُ رِيقَهُ فَخَارَ

قال امرؤ القيس :

فلم تر مثلنا ملّكاً هماماً^(٢)

: قال الحارث

ولم تر مثل هذا الجار جاراً

قال : فالى امرؤ القيس ألا ينافق بعده شاعراً . قال محمد بن سلام في غير هذه الرواية : فلما رأه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن في ذلك الدهر شاعر ماتنه آلى ألا ينماز الشعرا بعده أحداً .

قلت : هذه مباراة عجيبة ، ومعارضة تامة مستوفاة فصلاً فصلاً ، ومصراعاً مصراعاً ، وللحارث فيها ما ليس لامرئ القيس لأن المبتدئ ، متتمكن من الاختيار موسع عليه^(٣) الطرق يسلك أية شاء ، والمجيز مقصور القيد ممنوع من التصرف إلا في الجهة التي هو بيازائها فلذلك قد أُبَرَ عليه الحرف من التصرف إلا في الجهة التي هو بيازائها فلذلك قد أُبَرَ عليه الحارث ل Mage^(٤) من حسن التشبيه والتمثيل الذي خلا منه كلام امرئ القيس ، ولأجل ذلك آلى امرؤ القيس ألا يماتن شاعراً بعده .

(١) رواية الديوان : فلما أن دنا لقفا أضاخ ، وشعراء النصريات : كنف أضاخ ١١ / ١ والعدة ١٢٥ / ١ وأضاخ موضع ، وف الأصل أضاح وكذلك في (١) ، ولم نعثر عليها .

(٢) هنا السطر الذى يليه ليسا في الديوان .

(٣) زاد (١) هنا (ف) فأصبحت العبارة موسع عليه في الطرق .

(٤) زاد (١) (به) والعبارة بدونها مستقيمة .

وقد رُوى لنا أنَّ الوليد بن عبد الملك وأخاه مسلمة تنازعاً ذكر الليل وطوله ، ففضل الوليد أبيات النابغة في وصف الليل ، وفضل مسلمة أبيات أمِّيْر القيس ؛ فجَحَّما الشعبي بينهما ، فقال الشعبي : تُنشدُ الأبيات وأسمع ، فأنشد للنابغة (١) :

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطئ الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ
وليس الذي يرعى النجوم بآبيب
تضاعف فيه الحزن من كل جانب
بصادر أراح الليل عازب همه
ثم أنسد لأمير القيس :

وليل كموج البحر أرخي سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه
واردف أعجازاً وناء بكل كل
بصريح وما الإِصباحِ منك بأمثل
بكل مغار الفتل شدت بيذبل
فيالك من ليل كان نجومه

قال فركض الوليد برجله ، فقال الشعبي : بانت القضية .

قلت : افتتاح النابغة قصيده بقوله (٢) :

كليني لهم يا أميمة ناصب
متناه في الحسن ، بلين في وصف ما شakah ، من همه وطول ليله .
ويقال إنه لم يبتدىء شاعر قصيدة بأحسن من هذا الكلام . و قوله :
وصدري أراح الليل عازب همه

(١) الأبيات من القصيدة المشهورة للنابغة التي يعتذر فيها للنعمان ، راجع الديوان ط مصر ص ٤٢ ، والعقد المثين ٢ .

(٢) ديوان أمِّيْر القيس ٣٦ ، والعقد المثين ١٤٨ .

مستعارً من إرادة الراوى الإبل إلى مباتها ، وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعدوينة ؛ إلا أن في أبيات امرئ القيس من ثقافة الصنعة وحسن التشبيه وإبداع المعانى ما ليس في أبيات النابغة ، إذ جعل للليل صلباً وأعجازاً وكلكلا ، وشبه تراكم ظلمة الليل بموج البحر فى تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً حالا على حال ، وجعل النجوم كأنها مشدودة بحبال وثيقة فهى راكدة لا تزول ولا تبرح ، ثم لم يقتصر على ما وصف من هذه الأمور حتى عللها بالبلوى ونبه فيها على المعنى ، وجعل يتمنى تصرم الليل بعد الصبح لما يرجو فيه من الروح ، ثم ارتجع ما أعطى واستدرك ما كان قد منه وأمضاه ، فزعم أن البلوى أعظم من أن يكون لها في شيء من الأوقات كشف وإنجلاء ، والمحنة فيها أعظـلـ من أن يوجد لدائـهاـ فيـ حالـ من الأحوال دواء وشفاء ، وهذه الأمور لا يتفق مجتمعـهاـ فيـ اليـسـيرـ من الكلام إلا مثلـهـ منـ المـبـرـزـينـ فيـ الشـعـرـ الـحـائـزـينـ فيهـ قـصـبـ السـبـقـ ، ولأجل ذلك كان يركض الوليد برجله إذ لم يتمالك أن يعترف له بفضلـهـ .

فيـ مثلـ هـذـهـ الـأـمـوـرـ تـعـتـبـرـ معـانـىـ الـمـعـارـضـةـ فـيـقـعـ بـهـ الفـصـلـ بـيـنـ الـكـلـامـيـنـ منـ تـقـدـيمـ لـأـحـدـهـماـ أوـ تـأـخـيرـ أوـ تـسوـيـةـ بـيـنـهـماـ^(١) .

وقد يـتناـزعـ الشـاعـرانـ معـنىـ واحـدـاـ فـيـرـتـقـيـ أـحـدـهـماـ إـلـىـ ذـرـوـتـهـ وـيـقـصـرـ شـأـوـ الـآـخـرـ عنـ مـسـاـوـاتـهـ فـيـ درـجـتـهـ ، كـالـأـعـشـىـ وـالـأـخـطلـ حـيـنـ اـنـتـزـعاـ^(٢)

(١) في مثل هذا التحليل يبدو الذوق الفنى عند الخطاب وتتصبح الصلة بين دراسات أسلوب القرآن ودراسات النقد الأدبي ، ويلاحظ أن الباقلاني قد تناول أيضاً ملقة امرئ القيس بالتحليل في معرض الاحتجاج لبلاغة القرآن .

(٢) في (١) ، « ب » اقتربـاـ ، وـقـراءـةـ الـأـصـلـ أـشـبـهـ بـالـسـيـاقـ .

فَوَصَفَ الْخَمْرَ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ فَكَانَ لِأَحْدَهُمَا الْعُلُوُّ ، وَكَانَ لِلآخرِ السُّفْلَ .
 أَخْبَرَنِي أَبُو رِجَاءَ الْغَنْوِيَ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو قَالَ : أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَعْدٍ
 قَالَ : حَدَثَنِي أَبُو غَسَانَ مَالِكَ بْنَ غَسَانَ الْمَسْمَعِيَ قَالَ : حَدَثَنِي هَشَامَ
 ابْنَ أَدْهَمَ الْمَازْنِيَ - وَكَانَ عَلَامَةً - قَالَ : دَخَلَ الشَّعُوبِ عَلَى الْأَخْطَلِ فَوْجَدَهُ ثُمَّاً
 وَحَوْلَهُ لِخَالِخُ^(١) وَرِيَاحِينَ ، فَقَالَ : يَا شَعْبِيَ فَعْلُ الْأَخْطَلِ وَذِكْرُ أَمْهَاتِ
 الشِّعَارِ ، فَقَالَ الشَّعُوبِيُّ : بِمَاذَا يَا أَبَا مَالِكَ ؟ قَالَ : بِقَوْلِهِ :

وَتَظَلُّ تُنْصِيفُنَا هَـا قَرْوِيَّةُ إِبْرِيقَهَا بِرَقَاعِهِ مَلْثُومُ^(٢)

فَإِذَا تَعَاوَرَتِ الْأَكْفَـ زَجَاجَهَا نَفَحَتْ فَنَالَ رِيَاحَهَا الْمَزْكُومُ

فَقَالَ الشَّعُوبِيُّ : أَشَعَرْ مِنْكَ الَّذِي يَقُولُ^(٣) :

وَأَدَكْنَ عَاتِقِيْ جَحَلِيْ سِبْحَلِ^(٤) صَبَحْتَ بِرَاحِيْهِ شَرْبَابَا كِرَاما

مِنَ الْلَّائِي حُمِلْنَ عَلَى الرَّوَايَا كَرِيحَ الْمَسْكِ تَسْتَقْلُ الْزَّكَامَا

فَقَالَ لِهِ الْأَخْطَلُ : مَنْ يَقُولُ هَذَا يَا شَعْبِيُّ ؟ . قَالَ : الْأَعْشَى . قَالَ : قُدُوسُ

قُدُوسُ ، فَعْلُ الْأَعْشَى ، وَذِكْرُ أَمْهَاتِ الشِّعَارِ . فَتَأْمَلْ أَيْنَ مَنْزَلَةُ أَحْدَهُمَا

مِنَ الْآخِرِ ، لَمْ يَزِدِ الْأَخْطَلُ حِينَ احْتَسَدَ وَفَتَحَرَّ عَلَى أَنْ جَعَلَ رَائِحَتَهَا

لَذَكَاهَا تَنْفَذُ حَتَّى تَخْلُصَ إِلَى الرَّأْسِ فِي نَالِهَا الْمَزْكُومُ ، وَجَعَلَهَا الْأَعْشَى

لَحْدَتَهَا وَفَرَطَ . ذَكَاهَا مَسْتَلَةً لِلْزَّكَامِ طَارِدَةً لَهُ ، قَدْ طَبَّتْ لَدَائِهِ وَتَأَيَّتْ

لِبَرَئَهِ وَشَفَائِهِ .

(١) الْخَالِخُ نَوْعٌ مِنَ الطَّيْبِ .

(٢) رَاجِعٌ شِعْرُ الْأَخْطَلِ طِ صَالَحَانِيْ بَيْرُوتُ سَنَةُ ١٩٠٥ مِ صَ ٨٥ وَرِوَايَةُ الْبَيْتِ (بِرَقَاعِهِ

مَلْثُومُ) .

(٣) دِيْوَانُ الْأَعْشَى طِ Geyer, R. سَنَةُ ١٩٢٨ مِ صَ ١٣٥

(٤) السِّبْحَلُ الصَّخْمُ .

وأعجب من هذا في المعارضات ، وأبلغ منه في مذاهب المقابلات والمناقصات بناء الشيء وندهمه ، وتشييده ثم وضعه ونقضه ، كقول حسان بن ثابت .
أخبرني أبو رجاء قال : حدثني أبي قال : حدثني عمر بن شبة قال : حدثني هارون بن عبد الله الزبيري قال : حدثني يوسف بن عبد الله الماجشون عن أبيه قال : قال حسان : أتيت جبلة بن الأئم الغساني وقد مدحته فقال لي : يا أبا الوليد إن الخمر قد شغفتني فاذممها لعل أرضها فقلت :

ولولا ثلاث هن في الكأس لم يكن لها ثمن من شارب حين يشرب
لها نرق مثل الجنون ومصرع دني وأن العقل ينأى ويعزب

فقال : أفسدتها فحسنها ، فقلت :

ولولا ثلاث هن في الكأس أصبحت كأنفسِ مال يستفاد ويطلب
أمانيتها والنفس يظهر طيبها على حزها والهم يُسلِّي فيذهب
فقال : لا جرم . والله لا تركتها أبداً .

قلت : وهذا هنا وجه آخر يدخل في هذا الباب ، وليس بمحض المعاشرة ، ولكنه نوع من الموازنة بين المعاشرة والمقابلة ، وهو أن يجري أحد الشاعرين في أسلوب من أساليب الكلام وواد من أوديته ، فيكون أحدهما أبلغ في وصف ما كان من باله من الآخر في نعت ما هو بإنائه ، وذلك مثل أن يتأمل شعر أبي دؤاد الإيادي والنابغة الجعدى في صفة الخيل ، وشعر الأعشى والأخطل في نعت الخمر ، وشعر الشماخ في وصف الحمر ، وشعر ذى الرمة في صفة الأطلال والدمن ، ونحوت البرارى والقفار ، فإن كل واحد منهم وصف لما يضاف إليه من أنواع الأمور ، فيقال : فلان أَشَّرَ في بابه ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

ومذهبه من فلان في طريقة التي يذهبها في شعره ، وذلك بأن تتأمل نمط كلامه في نوع ما يعني به ويصفه ، وتنظر فيها يقع تحته من النعوت والأوصاف ، فإذا وجدت أحدهما أشد تقصيًّا لها ، وأحسن تخلصًا إلى دقائق معانيها ، وأكثر إصابة فيها حكمت لقوله بالسبق ، وقضيت له بالتربيز على صاحبه ، ولم تبال باختلاف مقاصدتهم وتباين الطرق بهم فيها .

قلت : وإذا أنت وقفت على شروط المعارضات ورسومها ، وتبينت مذاهبها ووجوهاها علمت أن القوم لم يصنعوا في معارضة القرآن شيئاً ، ولم يأتوا من أحكامها بشيء بتة . والأمر في ذلك بين واضح لا يخفى على ذي مسكة ذكي والحمد لله .

فيقال الآن لصاحب الفيل : يا فائل الرأى ^(١) ، أين ما شرطناه من حدود البلاغة فيما جئت به من الكلام ، وأين ما وصفناه من رسوم المعارضات فيما هذيت من جهلك وضلالتك ، افتتحت قولك بـ : « الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل . . . » فهولت وروعت ، وصعدت وصوبت ثم أخلفت ما وعدت وأخذجت ما ولدت حين انقطعت ، وعلى ذكر الذنب والمشفر اقتصرت ، ولو كنت تعرف شيئاً من قوانين الكلام وأوضاع المنطق ورسومه لم تحرّف القول عن جهته ، ولم تضيعه في غير موضعه . أما علمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنما تجعل مقدمة لأمر عظيم الشأن فائت الوصف متناهى الغاية في معناه ، كقول الله تعالى : (الحاقة ، ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة) و (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة) فذكر يوم القيمة وأتبعها من ذكر أوصافها وعظيم أحوالها ما لاق بالمقدمة التي أسلفها وصلّر

(١) كما في (ب) وفي (أ) والطبعة الأولى إلى أى .

الخطبة بها فقال : **﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمُبَثُوثِ وَتَكُونُ الْجَيَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾** إلى آخر السورة . وأنت علقت هذا القول على دابة يدركها البصر في مدى^(١) اللحظة ويحيط بمعانٍها العلم في اليسير من مدة الفكر ، ثم اقتصرت من عظيم ما فيه^(٢) من العجب على ذكر المشفر والذنب . فما أُشِّبِّهُ قولك هذا إِلَّا بِمَا أَنْشَدْنِيهِ بعضاً شيوخنا لبعض نظرائك :

وَإِنِّي وَإِنِّي ثُمَّ إِنِّي وَإِنِّي إِذَا انْقَطَعَتْ نَعْلَى جَعَلْتُ لَهَا شَسْعَةً

أَئِّي صَغِيرٌ مَا أَتَيْتَ بِهِ فِي عَجَزٍ كَلَامَكَ^(٣) مِنْ عَظِيمٍ مَا أَصْمَيْتَهُ فِي صَدْرِهِ وَيَسِيرٌ مَا رَضِيْتَ بِهِ فِي آخِرِهِ مِنْ كَثِيرٍ مَا أَنْمَيْتَهُ فِي أَوْلَاهُ ، وَإِذْ قَدْ دَلَّكَ^(٤) فِيَالَّهُ رَأَيْكَ وَسُوءُ اخْتِيَارِكَ عَلَى مُعَارِضَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بِذِكْرِ الْفَيْلِ وَأَوْصافِهِ ، فَهَلَا أَتَيْتَ مِنْهَا بِمَا هُوَ أَشَفَّ قِيلَالاً^(٥) وَأَشَقَّ وَأَجْمَعَ لِخَواصِّ نَعْوَتِهِ وَأَوْفَ فَتَذَكَّرُ مَا أُعْطِيْتَهُ هَذِهِ الْبَهِيمَةُ الْعَجَمَاءُ مِنَ الْذَّهَنِ وَالْفَطْنَةِ الَّتِي بِهَا تَفَهَّمُ عَنْ سَائِسَهَا مَا يَوْمَيْ بِهِ إِلَيْهَا مِنْ تَدْبِيرِهِ ، وَهَلَا تَعْجَبْتَ وَعَجَبْتَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ حَسْنِ مَوَاتِاهَا وَطَاعَتْهَا لَهِ إِذَا أَغْرَاهَا ، وَقَرَبَ ارْتِدَاعَهَا إِذَا زَجَرَهَا وَنَهَاها . وَهَلَا فَرَنَتْ إِلَى ذِكْرِ مَشْفِرِهَا ذِكْرَ نَابِيَّهَا الَّذِينَ بِهِمَا تَصُولُ ، وَبِسَنَانِهِمَا تَطْعَنُ وَتَجْرَحُ .!!^(٦) وَكَيْفَ أَغْفَلْتَ أَمْرَ أَذْنِيْهَا الْعَرِيْضَتِينَ الَّتِينَ تَلْحَفُهُمَا وَجْهَهُمَا وَتَذَبَّبُ بِتَحْرِيْكَهُمَا الْبَقِّ وَالْذَّبَابِ عَنْ^(٧) صَمَدَاهُمَا وَعَيْنَاهُمَا ، وَبِهِمَا تَرَوْحُ عَلَى نَوَاحِي رَأْسِهَا ،

(١) في (١) سر.

(٢) هكذا في الأصل ، وقد نقلها (١) فيها ، ولعله قصد بذلك عود الصمير على دابة . ويمكن على الأصل أن يعود الصمير على الفيل وهو محور الكلام .

(٣) في الأصل « كلامه » والسياق يتطلب ما أثبتناه .

(٤) في الأصل ذلك - وقرأها (١) كما أثبتناه ، والسياق يتطلب ما أثبتناه .

(٥) في الأصل قليلاً ، وقرأها (١) غليلاً .

(٦) سقطت هذه الكلمة في (١) .

(٧) هكذا في الأصل وقد قرأها (١) على ، والأصل أصح .

وَكِيفَ لَمْ تُفْطِنْ لِمَوْضِعِ التَّدْبِيرِ مِنْ قَصْرِ رَقْبَتِهَا وَانْدِمَاجِ عَنْقِهَا ، فَإِنَّهَا لَوْ طَالَتْ لَمْ تُقْلِّ رَأْسَهَا ، وَلَا وَهْنَاهَا ثَقْلُ حَمْلِهِ . فَإِذَا قَدْ مَنَعَتْ امْتِدَادُ الْعَنْقِ فَقَدْ عَوْضَتْ بِهِ انْسِدَالُ الْمَشْفَرِ ، لِتَتَنَاهُ^(١) بِهِ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ حَاجَتْهَا مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعَلْفِ ، وَتَدَلُّوْ بِهِ شَرْبَهَا مِنَ الْمَاءِ ، وَتَمَلَّاً كَالسَّقَاءِ فَتَنْضَحُ بِهِ أَعْصَاءَهَا إِذَا شَاقَتْ ، ثُمَّ قَدْ مَنَعَتِ الْبَرُوكُ بِأَنَّ لَمْ تَجْعَلْ لَهَا مَفَاصِلَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى النَّهْوِ ، إِذَا لَيْسَ لَهَا عَنْقٌ تَتَطَاوِلُ بِهَا^(٢) كَالْبَعِيرِ الَّذِي يَهْنَعُ بِعَنْقِهِ وَيَنْبَعِثُ وَيَشُورُ ، فَيَا يَشْبِهُ هَذِهِ الْأَمْوَارُ مِنْ نَوْعَتِ خَلْقِهَا وَعَجَائِبِ تَرْكِيبِهَا . وَيَقَالُ لَهُ أَرَأَيْتَ لَوْ عَارِضْتَ فِي قَوْلِكَ سَفِيهَ مُثْلِكَ بِالْبَعْوُضِ الَّذِي هُوَ خَصْمُ فِيلِكَ وَجَنْفِهِ^(٣) فِي مَضَادَةِ الطَّبَاعِ ، وَقَدْ حَكَاهُ فِي مَنَاظِرِ الْخَلْقَةِ مِنْ شَخْصَيِ الْفَوْدَيْنِ وَانْخِرَاطِ الْخَدِينِ . وَانْسِدَالُ الْمَشْفَرِ وَالصُّولِ بِهِ . فَقَالَ : « الْبَعْوُضُ وَمَا الْبَعْوُضُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْبَعْوُضُ ، لَهُ مَشْفَرٌ عَضْوَضُ ، فِي الدَّمَاءِ يَخْوُضُ ، فَهُوَ لِلْفَيْلِ عَرَوْضُ ! » هَلْ يَكُونُ سَبِيلَهِ فِيَا تَهَا طَاهَهُ مِنَ السُّخْفِ إِلَّا سَبِيلَكَ فِيَا أَتَيْتَهُ مِنَ الْمَجْهُولِ ؟ فَإِنْ قِيلَ إِنَّ الْبَعْوُضَ لَيْسَ بِعَرَوْضِ الْفَيْلِ لَبَعْدِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّفَاوتِ فِي الْحَجْمِ وَالْجَثَثَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا^(٤) مِنَ الْفَسْعَ وَالْقُوَّةِ قِيلَ : مَدَارُ الْحُكْمِ فِي بَابِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمَثِيلِ عَلَى الْمَعْنَى دُونَ الْأَعْيَانِ وَالْأَجْسَامِ ، وَالْبَعْوُضُ حَيْوانٌ مِنْ أَوْجَهِ كَافِيلٍ ، يَكْسِبُ الْقُوَّةَ وَيَتَوَقَّعُ الْمَهَالِكَ ، وَلَذِلِكَ صَارَ يَتَوَارِي نَهَارًا وَيَبْرُزُ لَيْلًا ، وَقَدْ أَشْبَهَ خَلْقَهُ الْفَيْلَ بِرَأْسِهِ وَبِخَرْطُومِهِ ، وَبِسَائِرِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَمْرِهِ ، ثُمَّ قَدْ زَادَ عَلَيْهِ بِجَنَاحَيْنِ ، وَفَصَارَ مَوْضِعُ نَفْسِ الْجَسَمِ وَالْجَثَثَةِ مُجْبُورًا بِهِمَا ، فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ فِي الْمَعْنَى الَّتِي تَجْمَعُهُمَا غَيْرُ مُفْتَرَقِيْنِ فِيْهِمَا .

(١) فِي (١) تَنَاهُلُ .

(٢) فِي « بِ » (فَتَنَوْ) زِيَادَةُ بَعْدِ بِهَا .

(٣) غَيْرُ وَاضِحةٍ فِي الأَصْلِ .

(٤) فِي (تِ) وَتَبَيَّنَهُ مَا .

وأما قول الآخر وما جاء به من نعت للجبل ، فإن أول ما غلط به هذا الجاهل أنه وضع الكلمة الانتقام في موضع الكلمة الإنعام حين قال : « ألم تر إلى (١) ربك كيف فعل بالجبل » ، وإنما تستعمل هذه اللفظة في العقوبات ونحوها كقوله : « ألم تر كيف فعل ربكم بأصحاب الفيل » ، وكقوله سبحانه : « ما يفعل الله بعذابكم » وكقوله : « وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » وكقول القائل : فعل الله بفلان و فعل ، إذا دعا عليه ، وإنما وجه الكلام مما رايه من المعنى أن يقول : ألم تر إلى ربك كيف لطف بالجبل ، وكيف أنعم عليها أو نحوها من هذا الكلام الذي يجري مجرى الامتنان والإنعام . وأما قوله : أخرج منها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشى ، فإنما تعاطى استرافقاً من قول الله تعالى : « خلق (٢) من ماء دافق يخرج من بين الصليب والترائب » ، وهذا في أول تارات الخلقة التي ذكرها الله سبحانه عز وجل ؛ ثم ذكر في آية أخرى عدد انتقالاته في الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضخة إلى لحم ، وإنشاء (٣) خلق بعد ذلك آخر ، وهو اجتماع الصورة ونفع الروح فيها ، فدل بها على عظيم قدرته ولطيف حكمته وسعة رحمته ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وإنما تتصرف به هذه الأحوال بعد الانتقال إلى الرحم ، وبين الرحم والشراسيف مسافة وحجب . قال أصحاب التشريح : الرحم موضوعة بين المثانة والمعى المستقيم ، فلم يدر هذا المائس ما يقول حين جعل الولد بعد الجبل خارجاً من بين الشراسيف والوحشى تمثلاً بقوله جل وعز : « يخرج من بين الصليب والترائب » فغلط . في الوصف .

(١) هذه قراءة الأصل وقد جعلها (١) : ألم تر كيف فعل ربك .

(٢) في الأصل : « خلق الإنسان » وهو خطأ في المخطوط وصححة الآية ما أثبتناه .

(٣) على قراءة الأصل ، وحرفها (١) إلى : وأنشأ خلقاً .

وأخطأ في المعنى كما أبطل في المسوى .

وتلك سبيل مقالات المتكلفين وعاقبة دعاوى المبطلين .

قلت^(١) في إعجاز القرآن وجهاً^(٢) آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منتشرًا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنتشر له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتابة قد عرها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمائرها وعقائدها الراسخة فيها ؛ فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكيها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبشو حين وقعت في مسامعهم أن يت حولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالته ، ويدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالة ، وكفرهم إيماناً .

خرج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعد لقتله ، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه ، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن . وبعث الملا من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليواقفوه^(٣) على أمور أرسلوه بها ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من حم السجدة ، فلما أقبل عتبة وأبصره الملا من قريش

(١) يلخص السيوطي في الإتقان ٢ ص ٢٠٥ رأى الخطابي هنا في هذا الوجه من الإعجاز ويلخصه كذلك صاحب مفتاح السعادة ط حيدر آباد ٢ / ٣٦١ .

(٢) أثبها (١) وجه .

(٣) أثبها (١) «ليوافقه» وليس هذا مراداً هنا .

قالوا : أَقْبَلَ أَبُو الْوَلِيدَ بِغَيْرِ الْوِجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ . وَلَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ فِي الْمُوْسَمِ عَلَى النَّفَرِ الَّذِينَ حَضَرُوهُ مِنَ الْأَنْصَارِ آمَنُوا بِهِ وَعَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَظَاهَرُوا الدِّينَ بِهَا ، فَلَمْ يَبْقُ بَيْتٌ مِّنْ بَيْوَاتِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهِ قُرْآنٌ . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : فَتَحَتَ الْأَمْصَارَ بِالسَّيْفِ وَفَتَحَتَ الْمَدِينَةَ بِالْقُرْآنِ .

وَلَا سَمِعْتُهُ الْجِنُ لَمْ تَهَالِكْ أَنْ قَالَتْ : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾^(١) . وَمَصْدَاقُ مَا وَصَفْنَا فِي أَمْرِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٢) ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿الَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ كِتَابًا مُتَشَابِهًًا مَثَانِيَ تَقْسِيرُهُ مِنْهُ جَلُودُ الَّذِي يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جَلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٣) . وَقَالَ سَبِّحَانَهُ : ﴿أَوَلَمْ يَكُفِّهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَلَى عَلَيْهِمْ﴾^(٤) . وَقَالَ سَبِّحَانَهُ : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادُهُمْ إِيمَانًا﴾^(٥) . وَقَالَ سَبِّحَانَهُ : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيقُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(٦) فِي آيَ ذَوَاتِ عَدْدِهِ ، وَذَلِكَ لِمَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ، وَهُوَ مِنْ عَظِيمِ آيَاتِهِ ، وَدَلَائِلِ مَعْجزَاتِهِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْجًا ، قَيْمًا ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَرْسَلِينَ ، غَيْظَ الْكَافِرِينَ ، وَحَتَّى الْمَلَحِدِينَ ، الْمَبْعُوثُ بِدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

وَحَسَبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ

(١) [الجن ٢٠١ / ٧٢] .

(٢) [العنكبوت ٢٩ / ٥١] .

(٣) [المائدة ٨٣ / ٥] .

(٤) [الزمر ٢٢ / ٣٩] .

(٥) [الأنفال ٢ / ٨] .

تم الكتاب بحمد الله وعنه
وصلى الله على محمد وآلـه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين
أوائل شوال عام ستة وألف .

عرفنا الله خيره ووقانا شره

وجاء في آخر النسخة :

«بلغت المقابلة هنا من الأصل المتنسخ منه»

٢

النُّكْتُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ

لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني

(٣٨٦ هـ - ٢٩٦ هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

قال الشيخ الإمام أبو الحسن على بن عيسى الرمانى سأله وفقك الله عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج ، وأنا أجتهد في بلوغ محبتك ، والله الموفق للصواب بمنه ورحمته ، وصلى الله على سيدنا محمد وآلها وصحبه .

وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الداعي وشدة الحاجة ؛ والتحدي للكافية ؛ والصرفة ، والبلاغة ؛ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ؛ ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة .

فأمّا (٢) البلاغة فهي على ثلاثة طبقات : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسيط . بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان في أعلىها (٣) طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن . وما كان منها دون ذلك (٤) فهو ممكناً كبلاغة البلوغاء من الناس . ولن يست البلاغة إفهام المعنى ، لأنّه قد يفهم المعنى متكلماً أحدهما بلغ والآخر عبي ؛ ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى ، لأنّه قد يتحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكرة ونافر متتكلف . وإنما البلاغة بإصال المعنى إلى

(١) ت : وبه توفيق . كتاب النكت في إعجاز القرآن تأليف الشيخ أبي الحسن على بن عيسى النحوي الرمانى رحمه الله رواية القاضى الفقيه أبي الحسن على بن الحسن الخلىعى رضى الله عنه . قال رحمه الله . . .

(٢) ترك الجهات الثلاث الأولى والجهات الثلاث الأخيرة ليتكلم عنها باختصار في آخر الكتاب .

(٣) ت «في أعلى طبقة» .

(٤) ت معجز «وما كان فيها دون ذلك» .

القلب في أحسن صورة من اللفظ. فأعلاها طبقة في الحسن ببلغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة ، وأعلى^(١) طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كاعججاز الشعر المفحّم ، فهذا معجز للمفحّم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة .

والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والبالغة ، وحسن البيان ونحن نفسرها باباً باباً إن شاء الله تعالى .

باب الإيجاز^(٢)

الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بالكلمات. كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بالكلمات. قليلة ، فالكلمات القليلة إيجاز . والإيجاز على وجهين : حذف ، وقصْر^(٣) ، فالحذف إسقاط الكلمة للاجتزاء عنها بدلاً عنها غيرها من الحال أو فحوى الكلام . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ. وتكتير المعنى من غير حذف . فمن الحذف **﴿وَاسْأَلُ الْقَرِيرَ﴾** ، ومنه **﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾** ، ومنه **﴿بِرَاعَةُ مِنَ اللَّهِ﴾** ، ومنه **﴿طَاعَةٌ وَقُولٌ مَعْرُوفٌ﴾** ، ومنه حذف الأجرة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاء منه في القرآن كثير كقوله جل ثناؤه : **﴿وَلَوْ أَنَّ قَرَآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِّمَ بِهِ الْمَوْتَ﴾** كأنه قيل : لكان هذا القرآن . ومنه : **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وُفِّتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾** كأنه قيل : حصلوا على النعم المقيم الذي لا يشوبه

(١) يكتبها أحياناً أعلاه بالألف وأحياناً أعلى بالياء .

(٢) عناوين الأبواب من التيمورية

(٣) يرجع ابن سنان هذه التسمية إلى الرمان (سر الفصاحة / ١٩٩) .

التنعيم والتكميل . وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب بالقصر على الوجه الذي تضمنه البيان ، فحذف الجواب في قوله : **لَوْ رَأَيْتَ عَلَيْاً بَيْنَ الصَّفَيْنِ ، أَبْلَغُ مِنَ الْمَذْكُورِ لَمَا بَيَّنَاهُ** .

وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أعمق من الحذف وإن كان الحذف عامضاً ، للحاجة إلى العلم بالموضع التي يصلح فيها من الموضع التي لا يصلح^(١) . فمن ذلك : **وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حِيَاةٌ**^(٢) ، ومنه : **يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحَّةٍ عَلَيْهِمْ**^(٣) ، ومنه **وَآخَرَ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحْاطَ اللَّهُ بِهَا**^(٤) . ومنه : **إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوِي الْأَنْفُسُ**^(٥) ، ومنه **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ**^(٦) ومنه **وَلَا يَحْقِقُ الْمُكْرُرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**^(٧)

وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير ، وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفي للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : إنه أكثر في الفائدة ، وأوجز في العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلاحمة . أما الكثرة في الفائدة فيه ففيه كل ما في قوله : القتل أنفي للقتل ، وزيادة معانٍ حسنة ، منها إبانه العدل^(٨) لذكره القصاص ، ومنها

(١) ت « هذا شرح الحذف » .

(٢) [البقرة ٢ / ١٧٩] .

(٣) [المنافقون ٦٣ / ٤] .

(٤) [الفتح ٤٨ / ٢١] .

(٥) [البجم ٥٣ / ٢٣] .

(٦) [يونس ١٠ / ٢٣] .

(٧) [فاطر ٣٥ / ٤٣] .

(٨) هذه الكلمة غير واضحة في هذه النسخة ، وهي في ت العدل .

إِبَانَة الغرض المُرْغوبٍ فِيهِ لِذِكْرِهِ الْحَيَاةُ ؛ وَمِنْهَا الْاسْتِدِعَاءُ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ لِحُكْمِ اللَّهِ بِهِ . وَأَمَّا الإِيْجَازُ فِي الْعِبَارَةِ فَإِنَّ الَّذِي هُوَ نَظِيرُ - القَتْلِ أَنْفِي لِلْقَتْلِ - قَوْلُهُ ﴿القصاص حياة﴾ ، وَالْأَوَّلُ أَرْبَعَةُ عَشَرُ حُرْفًا ، وَالثَّانِي عَشْرَةُ أَحْرَفٍ : وَأَمَّا بَعْدُهُ مِنَ الْكَلْفَةِ بِالتَّكْرِيرِ الَّذِي فِيهِ عَلَى النَّفْسِ مَشْقَةٌ فَإِنَّ فِي قَوْلِهِمْ : الْقَتْلُ أَنْفِي لِلْقَتْلِ تَكْرِيرًا غَيْرَهُ أَبْلَغُ مِنْهُ ، وَمَتَى كَانَ التَّكْرِيرُ كَذَلِكَ فَهُوَ مَقْصُرٌ فِي بَابِ الْبَلَاغَةِ عَنِ الْأَعْلَى طَبَقَةٍ ، وَأَمَّا الْحَسْنُ بِتَأْلِيفِ الْحُرُوفِ الْمُتَلَائِمَةِ فَهُوَ مَدْرَكٌ بِالْحَسْنِ وَمُوْجُودٌ فِي الْفَلْسُطِ . فَإِنَّ الْخُرُوجَ مِنَ الْفَاءِ إِلَى الْلَّامِ أَعْدَلُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْلَّامِ إِلَى الْهَمْزَةِ لِبَعْدِ الْهَمْزَةِ مِنَ الْلَّامِ ، وَكَذَلِكَ الْخُرُوجُ مِنَ الصَّادِ إِلَى الْحَاءِ أَعْدَلُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَلْفِ إِلَى الْلَّامِ ، فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الَّتِي ذَكَرْنَا هَا صَارَ أَبْلَغُ مِنْهُ وَأَحْسَنُ ، وَإِنَّ كَانَ الْأَوَّلُ بِلِيْغًا حَسَنًا . وَظُهُورُ الإِعْجَازِ فِي الْوِجْهِ الَّتِي نُبَيِّنُهَا^(١) يَكُونُ بِجَمِيعِ أَمْوَالِ يَظْهُرُ بِهَا لِلنَّفْسِ أَنَّ الْكَلَامَ مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي الْأَعْلَى طَبَقَةٍ ، وَإِنَّ كَانَ قَدْ يَلْتَبِسُ فِيهَا قَلْ بِمَا حَسَنَ^(٢) جَدًّا لِلْإِيْجَازِ ، وَحَسَنَ رُونَقِهِ ، وَعَذْوَبَةُ لَفْظِهِ ، وَصَحَّةُ مَعْنَاهُ . كَقُولُ عَلَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣) : قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يَحْسَنُ . فَهَذَا كَلَامٌ عَجِيبٌ يُعْنِي ظُهُورُ حَسَنَهُ عَنْ وَصْفِهِ . فَمِثْلُ هَذِهِ الشَّذِيرَاتِ لَا يَظْهُرُ بِهَا حُكْمٌ ، فَإِذَا انتَظَمَ الْكَلَامُ حَتَّى يَكُونَ كَأَقْصَرُ سُورَةً أَوْ أَطْوَلُ آيَةً ظَهَرَ حُكْمُ الإِعْجَازِ ، كَمَا وَقَعَ التَّحْدِيدُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَأَتَوْا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ﴾ ، فَبَانَ الإِعْجَازُ عِنْدَ ظُهُورِ مَقْدَارِ السُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ

وَالإِيْجَازُ بِلَاغَةٍ ، وَالتَّقْصِيرُ عَيْ ، كَمَا أَنَّ الْإِطْنَابُ بِلَاغَةٍ وَالتَّطْوِيلُ عَيْ ، وَالإِيْجَازُ لَا إِخْلَالُ فِيهِ بِالْمَعْنَى الْمَدْلُولُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ التَّقْصِيرُ ، لِأَنَّهُ لَا بُدُّ فِيهِ مِنَ الإِخْلَالِ . فَأَمَّا الْإِطْنَابُ فَإِنَّمَا يَكُونُ فِي تَفْصِيلِ الْمَعْنَى وَمَا يَتَعَلَّقُ

(١) فِي تَ «بَيَّنَاهَا» . (٢) ت - بَهْ .

(٣) هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي تَ «كَقُولُ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهِهِ» .

به في الموضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل ، فإنّ لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعًا يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فاما التطويل فعيب وعيّ ، لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفي منه القليل ، فكان كالسلوك طریقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب . وأما الإطناب فليس كذلك لأنّه كمن سلك طریقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة ، فيحمل في الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب .

والإيجاز على وجهين : أحدهما إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة ، والآخر إحضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة . والوجه الأول يكون كثيراً في العلوم القياسية ، وذلك أنه إذا فهم شرح الجملة كفى بعد ذلك حفظ النكتة ، لأنّها تكون حينئذ دالة ومحضية عن التعلق بها في نفسها ، لتعلق النكتة بها ، فهذا الضرب من الإيجاز لا يكون إلا بعد أحوال متقررة من الفهم لشرح الجملة فحينئذ تكون النكتة محسنة . وأما الوجه الآخر فمستأنف لم يقرر له حال خاصة يكون جاراً لها من حيث تعلق بها من فهم كيف وجه التعلق فيهما^(١) .

والإيجاز على ثلاثة أوجه : الإيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد ، وإيجاز باعتماد الغرض دون ما تشعب ، وإيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبل ، لأن المستقبل ثقيل على النفس ؛ فقد يكون للمعنى طريقان أحدهما أقرب من الآخر^(٢) كقولك : تحرك حركة سريعة – في موضع أسرع وقد يكتنف الغرض شعب كثيرة كالتشبيب قبل المدح ، وكالصفات .

(١) هذه الجملة غامضة قلقة .

(٢) ت أحدهما من الآخر .

لما يُعترض الكلام مما ليس عليه الاعتماد ، وإذا ظهرت الفائدة بما يستحسن
فهو إيجاز لخفة على النفس .

وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء في القرآن منه ، عرفت
فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على
غيره من أنواع البيان ، والإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ،
والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن ، والإيجاز البيان عن
المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ .^(١) ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ
اليسير ، والإيجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد ، وذلك ظاهر في جملة
العدد وتفصيله كقول القائل لي عنده خمسة وثلاثة وأثنان في موضع عشرة^(٢)
وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز .
وإذا كان الإطناب لا منزلة إلا ويحسن أكثر منها فالإطناب حينئذ إيجاز
كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه ، فإطناب فيه إيجاز .

باب التشبيه

التشبيه هو العَقْد على أنَّ أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل
ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس . فأما القول فنحو قولك :
زيد شديد كالأسد . فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه ، وأما العقد في
النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول . وأما التشبيه الحسي فكماءين وذهبين
يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه ، وأما التشبيه النفسي فنحو تشبيه قوة

(١) فالأصل تصفية الكلام ثم شطبت لفظة الكلام ووضع مقابلتها في الماشر كلمة « الألفاظ » .
وفى التيمورية الكلام ولكن عودة الضمير عليها مؤثراً يرجع « الألفاظ » .

(٢) ت فى موضع لي عنده العشرة .

زيد بقوة عمرو ، فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم^(١) سادة مسد أخرى فتشبه . والتشبيه على وجهين^(٢) : تشبيه شتئين متفقين بأنفسهما ، وتشبيه شتئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما . فال الأول كتشبيه الجوهر بالجوهر . وتشبيه السواد بالسواد والثاني كتشبيه الشدة بالموت والبيان بالسحر الحال . والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بآدأة التشبيه مع حسن التأليف .

وهذا الباب يتفضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلوغ ، وذلك أنه يكسب الكلام بياناً عجيباً . وهو على طبقات في الحسن كما بينا . فبلاغة التشبيه الجمع بين شتئين لمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما . والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه : منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة . ومنها إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومنها إخراج مala قوة له في الصفة إلى ماله قوة في الصفة . فال الأول نحو تشبيه المدوم بالغائب ، والثاني تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء السراج بضياء النهار .

التشبيه على وجهين : تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة . فتشبيه الـ بغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب . وتشبيه الحقيقة نحو : هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت . ونحن نذكر بعض ما جاء في القرآن من التشبيه ، وننبه على ما فيه من البيان بحسب الإمكان^(٣) . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه

(١) ت ولكنه سادة .

(٢) راجع رقم ٣ من ملحق تعليقات المؤخرین .

(٣) ت والله المبين على الصواب .

لم يَجِدُهُ شَيْئاً)^(١) فهذا بيان قد أَخْرَجَ مالاً تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه^(٢) ، وقد اجتمعوا في بطلان المتشوّه مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائي ماءً ثم يظهر أنه على خلاف ما قَدِرَ لكان بليناً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمان أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيّره إلى عذاب الأبد في النار – نعوذ بالله من هذه الحال – وتشبيهه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعدوبه للفظ وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿مَثُلُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرِمَادٌ اشتدَّ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾^(٣) فهذا بيان قد أَخْرَجَ ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدارك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَا آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾^(٤) ثم قال : ﴿فَمَثَلُهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرْكِهِ يَلْهَثْ﴾^(٥) فهذا بيان قد أَخْرَجَ ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعوا في ترك الطاعة على وجه من وجوه التدبير وفي التخسيس ؛ فالكلب لا يطيعك في ترك اللheit حملت عليه أو تركه ، وكذلك الكافر لا يطيع بالإيمان على رفق ولا على عنف ، وهذا يدل على حكمته الله سبحانه وتعالى في أنه لا يمنع اللطف . وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بَشَّىٌ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ

(١) ت الحاسة .

(٢) [النور / ٢٤ / ٣٩] .

(٤) [الأعراف / ١٧ / ٥٧] .

(٣) [إبراهيم / ١٨ / ١٤] .

(٥) [الأعراف / ٦٧ / ١٧] .

بِبَالِغِهِ^(١) فهذا بيان قد أخرج مالاً تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعوا في الحاجة إلى نيل المنفعة ، والحسنة بما يفوت من درك الطلبة ، وفي ذلك الزجر عن الدعاء إلا لِللهِ عز وجل الذي يملك النفع والضر ، ولا يضيع عنده مثقال ذر . وقال عز وجل ﴿وَإِذْ نَتَقَنَا الْجَبَلَ فَوْهُمْ كَأَنَّهُ ظَلَّهُ﴾ وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة ، وقد اجتمعوا في معنى الارتفاع في الصورة ، وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو عمله به ليطلب الفوز من قبله ، ونيل المنافع بطاعته . وقال عز وجل : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾^(٢) الآية ، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمع^(٣) والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكري أن كل فان حقير وإن طالت مدة ، وصغير وإن كبر قدره . وقال عز وجل : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرِصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ . تَنْزَعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٌ مُنْقَعِرٌ﴾^(٤) وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعوا في قلع الريح لهما ، وإهلاكها إياهما . وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخييف من تعجيل العقوبة . وقال عز وجل : ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالدَّهَانِ﴾^(٥) فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعوا في الحمرة ، وفي لين الجواهر السائلة وفي ذلك الدلالة على عظيم الشأن ونفوذ السلطان ، لتنصرف لهم بالأمل إلى ما هناك^(٦) . وقال عز وجل : ﴿أَعْلَمُوا

(١) [الرعد ١٣ / ١٤] .

(٤) [القمر ٥٤ / ٢٠] .

(٦) ت «لتنصرف لهم إلى ما هناك بالأمل» .

(٢) [يونس ١٠ / ٢٤] .

(٣) المشبه والمشبه به .

(٥) [الرحمن ٥٥ / ٣٧] .

أَنَّمَا الْحِيَاةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَانِرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نِبَاتَهُ^(١) الآية ، فهذا تشبيه قد أخرج مالم تجربه عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعوا في شدة الإعجاب ثم في التغيير بالانقلاب ، وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكنون إليها . وقال عز وجل : « وجنةٌ عرضها كعرض السماء والأرض^(٢) » فهذا تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبادية إلى ما يعلم ، وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور ، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع مالها من السعة ، وقد اجتمعوا في العظم ، وقال عز وجل : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوَارَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا^(٣) » ، وهذا تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبادية إلى ما يعلم بالبادية ، وقد اجتمعوا في الجهل بما حمل ، وفي ذلك العيب لطريقة من ضيق العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية . وقال عز وجل : « كَانُوكُمْ أَعْجَازًا نَخْلٌ خَاوِيَةٌ^(٤) » وهذا تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبادية إلى ما يعلم ، وقد اجتمعوا في خلو الأجساد من الأرواح ، وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يرؤون به الأمر إلى ذلك المال . وقال عز وجل : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ^(٥) » الآية . فهذا تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبادية إلى ما يعلم بالبادية وقد اجتمعوا في ضعف المعتمد ، ووهاء المستند ، وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين ، مع الشعور بما فيه التوهين .

وقال عز وجل : « وَلِهِ الْجَوَارُ الْمُنْشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ^(٦) » فهذا

(١) [الحديد ٥٧/٢١] .

(٢) [الحقة ٦٢/٥] .

(٣) [الرحمن ٥٥/٢٤] .

(٤) [العنكبوت ٢٩/٤١] .

تشبيه قد أخرج مالا قوَّة له في الصِّفَة إلى ماله قوَّة فيها ، وقد اجتمعوا في العظم ، إلا أن الجبال أَعْظَم . وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيها سُخْرَة من الفُلُك الجاربة مع عظمها ، وما في ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها . وقال عز وجل : ﴿ خَلَقَ إِنْسَانًا مِّنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارٍ ﴾^(١) . وهذا تشبيه قد أخرج مالا قوَّة له في الصِّفَة إلى ماله القوَّة وقد اجتمعوا في الرخاوة والجفاف ، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالريح . وقال عز وجل : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجَّ وِعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾^(٢) . (وفي هذا إنكار لأن يجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن وكحرمة الجهاد)^(٣) وهو بيان عجيب ، وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس الفاسد ، وفي ذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لا يُساوى به مخلوق على صفتة في القياس . ومثله ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنَّ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾^(٤) .

باب الاستعارة

الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضحت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبارة . والفرق بين الاستعارة والتشبيه أنَّ ما كان من التشبيه^(٥) باءة التشبيه في الكلام فهو على أصله ، لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك

(١) [الرحمن ١٤/٥٥] . (٢) [التوبه ٩/١٩] .

(٣) هذه العبارة في الأصل مضطربة وهي هكذا : « فهذا إنكار لأن يجعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله » ونرى أن الصحيح ما أثبتناه . وقد أوردها ابن أبي الإصبع كما ميل : وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر (بدائع القرآن . نسخة دار الكتب . ورقة ١٩ ب) .

(٤) [ابياتية ٢٥ / ٢١] . (٥) هذه الزيادة من الهمش .

الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرج ما العبارة [ليست^(١)] له في أصل اللغة .

وكل استعارة فلابد فيها من أشياء : مستعار ومستعار له ، ومستعار منه . فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان . وكل استعارة بلية فهى جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه ، إلا أنه بنقل الكلمة والتشبيه بآداته الدالة عليه في اللغة . وكل استعارة حسنة فهى توجب بيان لا تنوب منابه الحقيقة ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ، ولم تَجُز الاستعارة . وكل استعارة فلابد لها من حقيقة ، وهى أصل الدلالة على المعنى في اللغة كقول أمرى القيس في صفة الفرس : « قيد الأوَابد » والحقيقة فيه : مانع الأوَابد ، وقيد الأوَابد أبلغ وأحسن . وقولك : ميزان القياس ، حقيقته تعديل القياس ، والاستعارة فيه أبلغ وأحسن . فكل استعارة لابد لها من حقيقة . ولا بد من بيان لايفهم بالحقيقة . ونحن نذكر ما جاء في القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقَدِيمُنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْشُورًا ﴾^(٢) . حقيقة قدمنا هنا عمدنا وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادر من سفر ، لأنه [عاملهم]^(٣) من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قدِيم فرآهم على خلاف ما أمرهم . وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال ، والمعنى الذى يجمعهما العدل ، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بيَّنا . وأما هباء منشوراً فيبيان قد أخرج مالا تقع عليه الحامة

(١) أضفنا كلمة (ليست) ل تستقيم العبارة ويصح المراد ، ونصها في « سر الفصاحة » (ص ١١١) « وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له في أصل اللغة . (وراجع رقم ٤ في ملحق تعليقات المتأخرین) .

(٢) زيدت هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) [الفرقان ٢٥ / ٢٣] .

إلى ما تقع عليه حاسة . وقال عز وجل : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمِنُ ﴾^(١) . حقيقته فيبلغ ما تؤمن به ، والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأن الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة ، والتبلیغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير منزله ما لم يقع . والمعنى الذي يجمعهما الإيصال ، إلا أن الإيصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَىٰ الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾^(٢) . حقيقته علاً والاستعارة أبلغ لأن طغي الماء شهيقاً وهو مبالغة في عظم الحال . وقال عز وجل : ﴿ بِرِيحٍ صَرِصِيرٍ عَاتِيَةٍ ﴾^(٣) . حقيقته شديدة ، والعتو أبلغ منه لأن العتو شدة فيها ترد . وقال تعالى : ﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾^(٤) ، شهيقاً حقيقته صوتاً فظيعاً كشهيق الباكى ، والاستعارة أبلغ منه وأوجز ، والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت . ﴿ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ حقيقته : من شدة الغليان بالاتقاد ، والاستعارة أبلغ منه ، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس ، مدرك [مدى] ما يدعوه إليه من شدة الانتقام ، فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل ، وفي ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ ، وأدل دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة . ومنه : ﴿ إِذَا رَأَتُهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغْيِظًا وَزَفِيرًا ﴾^(٥) أي تستقبلهم بالإيقاع بهم استقبال مغناط ، يزفير غيظاً عليهم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمُّ الْكِتَابِ لَدِينَاهُ ﴾^(٦) . وحقيقته أصل الكتاب ، وهو أبلغ لأن الأم أجمع وأظهر فيها يردد إليه مما ينشأ عنه ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾^(٧) . وحقيقته انتفاء الغضب ، والاستعارة أبلغ لأنه انتهى انتفاء مراصد بالعودة ، فهو كالمسكوت على مراصدة

(١) [الحجر ١٥ / ٩٤] .

(٢) [الحاقة ٦٩ / ٦] .

(٣) [الملك ٦٧ / ٨] .

(٤) [الرعد ٤٣ / ٤] .

(٥) [الحاقة ٦٩ / ١١] .

(٦) [الفرقان ٢٥ / ١٢] .

(٧) [الأعراف ٧ / ١٥٢] .

الكلام بما توجّبه الحكمة في الحال ، فانتهى الغضب بالسكت عما يكره ، والمعنى الجامع بينهما الإمساك عما يكره . وقال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحْيِلًا ﴾^(١) . ذرنِي هنا استعار ، وحقيقة قوله : ذر عقابي ومن خلقت وحيداً يترك مسأّلتي فيه ، إلا أنه أخرج لتفخيم الوعيد مخرج ذرنِي وإياه لأنَّه أبلغ ، وإن كان الله تعالى لا يجوز عليه المنع ، وإنما صار أبلغ لأنَّه لامنزلة من العقاب إلا وما يقدر الله تعالى عليه منها أعظم . وهذا أعظم ما يكون من الضرر . وقال تعالى : ﴿ سَنُنْفَرُّ لَكُمْ أَيْمَانَ الثَّقَلَانِ ﴾^(٢) والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ في الوعيد ، وحقيقة سنه محمد ، إلا أنه لما كان الذي يعمد إلى شيء قد يقصّر فيه لشغله بغيره مجده ، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجري به التعارف ، دلَّنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الضرر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكم . وقال تعالى : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبَصِّرَةً ﴾^(٣) . فمبصرة هنا استعارة ، وحقيقة مصيّرة ، وهي أبلغ من مصيّرة ، لأنَّه أدل على موقع النعمة ، لأنَّه يكشف عن وجه المنفعة . قيل : هو يعني ذات إبصار وعلى هذا يكون حقيقة . وقال تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾^(٤) . أصل الاشتعال للنار وهو في هذا الموضع أبلغ . وحقيقة كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايداً سريعاً صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار .. وله موقع في البلاغة عجيب ، وذلك أنه انتشر في الرأس انتشاراً لا يتلافى كاشتعال النار . وقال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾^(٥) . فالقذف

(١) [المدثر ٧٤ / ١٢] . (٢) [الإسراء ٧ / ٣١] . (٣) [الرحمن ٥٥ / ١٧]

(٤) [مریم ١٩/٤] . [الأنباء ٢١ (٥) / ٣٨]

والدمع هنا مستعار وهو أبلغ ، وحقيقة : بل نور الحق على الباطل فينذهب به ، وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف دليلاً على القهر ، لأنك إذا قلت : قذف به إليه فإنما معناه القاء إليه على جهة الإكرام والقهر ، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياح ، ويادمه أبلغ من يذهبه لما في يدمجه من التأثير فيه فهو أظهر في النكبة وأعلى في تأثير القوة .

وقال تعالى : ﴿ عَذَابٌ يَوْمٌ عَقِيمٌ ﴾^(١) وعقيمها هنا مستعار وحقيقة لها هنا مبادر ، والاستعارة أبلغ لأن قد دل على أن ذلك اليوم لاخير بعده للمعذبين ، فقيل : يوم عقيم ، أى لا ينتج خيراً ، ومعنى الهاك فيهما إلا أن أحد الهاكين أعظم . وقال تعالى : ﴿ وَآيَةً لَهُمُ الدَّلِيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾^(٢) نسلخ مستعار ، وحقيقة : يخرج منه النهار . والاستعارة أبلغ لأن السلح إخراج الشيء مما لا يسعه وعسر انتزاعه منه للتحامه به ، فكذلك قياس الليل . وقال تعالى ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مِيتًا ﴾^(٣) النشر هنا مستعار ، وحقيقة : أظهرنا به النبات والأشجار والشمار فكانت كمن أحivedناه بعد إماتته ، فكانه قيل : أحivedنا به بلدة ميتاً من قولك : أنشر الله الموق فنشروا . وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في أظهرنا ، والإظهار في الإحياء والإنبات إلا أنه في الإحياء أبلغ . وقال تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾^(٤) اللفظ هنا هنا بالشوكة مستعار ، وهو أبلغ ، وحقيقة : السلاح ، فذكر الحد الذي به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكتة ، وإذا كان السلاح يشتمل على

. (١) [الحج / ٥٥ / ٢٢].

. (٢) [الأنفال / ٧ / ٤٣].

. (٣) [الزخرف / ١١ / ٤٣].

ما له حد، وما ليس له حد ، فشوكة السلاح هي التي تبقى . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَنُوْدُ دُعَاءً عَرِيضًا﴾^(١) عريض هنا مستعار ، وحقيقةه كبير، والاستعارة فيه أبلغ لأنَّه أَظْهَر بوقوع الحاسة عليه ، وليس كذلك كل كثرة . وقيل : عريض لأنَّ العرض أَدَل على الطول . وقال تعالى : ﴿حَتَّى تَضُعُ الْحَرْبُ أَوْزَارُهَا﴾^(٢) وهذا مستعار ، وحقيقةه : حتى يضع أَهْلُ الحرب أثقالها ، فيجعل وضع أَهْلُها الأثقال وضعًا لها على جهة التفخيم لشأنها وقال تعالى : ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾^(٣) وتنفس هنا مستعار ، وحقيقةه إذا بدأ انتشاره ، وتنفس أَبلغ منه ، ومعنى الابتداء فيهما ، إلا أنه في التنفس أَبلغ لما فيه من الترويح عن النفس ، وقال تعالى : ﴿فَإِذَا قَهَّا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخُوفِ﴾^(٤) وهذا مستعار ، وحقيقةه أَجَاعَهَا اللَّهُ وَأَخَافَهَا والاستعارة أَبلغ ، الدلالتها على استمرار ذلك بهم كاستمرار لباس الجلد وما أَشبهه . وإنما قيل ذاقوه لأنَّه كما يجد الذائق مرارة الشيء فهم في الاستمرار كتلك الشدة في المذaque ، وقال تعالى ﴿مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا﴾^(٥) وهذا مستعار ، وزلزلوا أَبلغ من كل لفظ . كان يعبر به عن غلظ ما نالهم . ومعنى حركة الإزعاج فيهما ، إلا أنَّ الزلازلة أَبلغ وأَشد . وقال تعالى : ﴿رَبَّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبَرًا﴾^(٦) . أَفرغ مستعار وحقيقةه افعلينا صبراً ، وأَفرغ أَبلغ منه لأنَّ في الإفراغ اتساعاً مع بيان ، وقال عز وجل : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذُّلَّةُ أَيْنَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾^(٧) حقيقةه حصلت عليهم الذلة . والاستعارة أَبلغ لما فيه من الدلالة على تثبيت ما حصل

(٢) [محمد ٤٧ / ٤] .

(٤) [النحل ١٦ / ١٢] .

(٦) [البقرة ٢ / ٢٥٠] .

(١) [فصلت ٤١ / ٥١] .

(٣) [التكوير ٨١ / ١٨] .

(٥) [البقرة ٢ / ٢١٤] .

(٧) [آل عمران ٣ / ١١٢] .

عليهم من الذلة كما يثبت الشئ بالضرب لأن التمكين به محسوس ، والضرب مع ذلك ينبي عن الإذلال والنقص^(١) ، وفي ذلك شدة الناجر لهم والتنفير من حالهم ، وقال تعالى : ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم﴾ حقيقته تعرضا للغفلة عنه ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على ما يتصور . وقال تعالى : ﴿رَبُّنَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾^(٢) حقيقته تكون لنا ذات سرور ، والاستعارة أبلغ لما للإحالة فيه على ما قد جرت العادة بمقدار السرور به . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخْوْضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾^(٣) كل خوض ذمه الله تعالى في القرآن فلفظه مستعار من خوض الماء ، وحقيقة : يذكرون آياتنا ، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما تقع عليه المشاهدة من الملابسة ، لأنه لا تظهر ملابسة المعانى لهم كما تظهر ملابسة الماء لهم . وقال تعالى : ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾^(٤) وحقيقة صيرهما إلى الخطيئة بغور ، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما يحسن من التدلى من علو إلى سفل . وقال تعالى : ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِبِّيَّةً فِي قُلُوبِهِم﴾^(٥) وقال تعالى : ﴿أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرَضْوَانِ﴾^(٦) الآية . كل هذا مستعار ، وأصل البنيان إنما هو للحيطان وما أشبهها ، وحقيقة اعتقادهم الذى عملوا عليه ، والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بما يحسن ويتصور ، وجعل البنيان ريبة وإنما هو ذوريبة ، والاستعارة أبلغ ، كما تقول : هو خبث كله ، وذلك

(١) هذا التعليل محل النظر فشل هذا الأسلوب تستعمله العرب أحياناً حيث لا يلحظ الإذلال ولا النقص كقول الشاعر :

إن الساحة والمروءة والندي في قبة ضربت على ابن الحشاج

(٢) [المائدة ٥ / ١١٤] .

(٤) [الأعراف ٧ / ٢٢] .

(٥) [التوبه ٩ / ١١٠] .

(٦) [التوبه ٩ / ١٩٠] .

أَبْلَغَ مِنْ أَنْ يَجْعَلَهُ مُمْتَزِجًا ، لَأَنَّ قُوَّةَ النَّمْ لِلرِّيَبَةِ ، فَجَاءَ عَلَى الْبَلَاغَةِ لَا عَلَى
الْحَذْفِ الَّذِي إِنَّمَا يَرَادُ بِهِ الْإِيْجَازُ فِي الْعَبَارَةِ فَقَطْ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿الَّذِينَ
يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوْجَانًا﴾^(١) الْعَوْجُ هَا هُنَا مُسْتَعْجَلُونَ ، وَحَقِيقَتُهُ
خَطَأً وَالْاسْتَعْرَةَ أَبْلَغَ مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ بِالْإِحْاطَةِ عَلَى مَا يَقُولُ عَلَيْهِ الْإِحْسَاسُ مِنْ
الْعَدْلِ عَنِ الْاسْتِقَامَةِ بِالْأَعْوَاجِ . وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً
أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٢) أَصْلُ الْأَرْكَانِ لِلْبَنِيَانِ ، ثُمَّ كَثُرَ وَاسْتَعْيَرَ حَتَّى
صَارَ الْأَعْوَانَ أَرْكَانًا لِلْمُعْنَانِ ، وَالْحَجَّاجُ أَرْكَانًا لِلْإِسْلَامِ ، وَحَقِيقَتُهُ إِلَى مُعِينٍ
شَدِيدٍ . الْاسْتَعْرَةَ أَبْلَغَ لَأَنَّ الرَّكْنَ يَحْسُسُ ، وَالْمُعِينُ لَا يَحْسُسُ مِنْ حَيْثُ هُوَ
مُعِينٌ . قَالَ تَعَالَى : ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيَلَّاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ
تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾^(٣) أَصْلُ الْحَصِيدِ لِلنَّبَاتِ ، حَقِيقَتُهُ مَهْلَكَةُ ، وَالْاسْتَعْرَةُ
أَبْلَغَ مَا فِيهِ مِنِ الْإِحْالَةِ عَلَى إِدْرَاكِ الْبَصَرِ . وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الَّرَّ، كِتَابٌ
أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٤) . كُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فَهُوَ مُسْتَعْجَلٌ ، وَحَقِيقَتُهُ مِنِ الْجَهَلِ إِلَى الْعِلْمِ ،
وَالْاسْتَعْرَةَ أَبْلَغَ مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ بِالْإِخْرَاجِ إِلَى مَا يَدْرِكُ بِالْأَبْصَارِ . وَقَالَ تَعَالَى :
﴿حَصِيدًا خَامِدِين﴾^(٥) أَصْلُ الْخَمْدَةِ لِلنَّارِ وَحَقِيقَتُهُ هَادِئَيْنِ ، وَالْاسْتَعْرَةُ
أَبْلَغَ لَأَنَّ خَمْدَةَ النَّارِ أَقْوَى فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْهَلاَكَ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : طُفَّيْ
فُلَانٌ كَمَا يُطْفَأُ السَّرَّاجُ . وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾^(٦)
وَادٌ هُنَا مُسْتَعْجَلُونَ ، وَكَذَلِكَ الْهَيَّمَانُ ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الْبَيَانِ ، وَحَقِيقَتُهُ
يَخْلَطُونَ فِيهَا يَقُولُونَ ، لَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى قَصْدِ لَطْرِيقِ الْحَقِّ ، وَالْاسْتَعْرَةَ أَبْلَغَ

(١) [الأعراف ٧/٤٥].

(٢) [يونس ١٠/٢٤].

(٣) [الأنبياء ٢١/١٥].

(٤) [هود ١١/٨٠].

(٥) [إبراهيم ١٤/١].

(٦) [الشعراء ٢٦/٢٢٥].

لَا فيه من البيان بالإخراج إِلَى مَا يقع عليه الإدراك من تخليط الإنسان بالهوان في كل وادٍ يعن له فيه الذهاب . وقال تعالى : ﴿ وَدَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَاجًِا مُنِيرًا ﴾^(١) السراج هنا مستعار وحقيقة مبينا ، والاستعارة أبلغ للإحالات على ما يظهر بالحاسة . وقال عز وجل : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ قَدِنَا ﴾^(٢) أصل الرقاد النوم وحقيقة من مهلكنا ، والاستعارة أبلغ لأن النوم أظهر من الموت ، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت ، لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة ، وليس كذلك الموت والحياة . وقال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾^(٣) أصل الموج للماء وحقيقة تخليط بعضهم ببعض ، والاستعارة أبلغ ، لأن قوة الماء في الاختلاط أعظم . وقال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾^(٤) العقيم مستعار للريح ، وحقيقة ريح لا يأتي بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التي لا تأتي بمطر ، لأن مالا يقع من أجل حال منافية أو كد مما يقع من غير حال منافية وأظهر . وقال عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولًا إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾^(٥) ، حقيقة لا تمنع نائلك كل المنع ، والاستعارة أبلغ لأن جعل منع النائل بمنزلة غل اليد إلى العنق ، وذلك مما يحسن حال التشبيه فيه بالمنع فيهما إلا أن حال المغلول اليد أظهر وأقوى فيما يكره . وقال تعالى : ﴿ وَلَنُذَاقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾^(٦) حقيقة لتعذيبنَّهم ، والاستعارة أبلغ ، لأن احساس الذائق أقوى لأنه طالب لإدراك ما يذوقه ، ولأنه جعل بدل إحساس

(١) [الأحزاب ٣٣ / ٤٦].

(٢) [الذاريات ٥١ / ٤١].

(٣) [السجدة ٢٢ / ٣٢].

(٤) [الكهف ١٨ / ٩٩].

(٥) [الإسراء ١٧ / ٢٩].

(٦) [الأحزاب ٣٣ / ٤٦].

الطعم المستلذ إحساس الآلام ، لأن الأسبق في الذوق ذوق الطعام . وقال تعالى : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَّا﴾^(١) حقيقته منعهم الإحساس بآذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ لأنه كالضرب على الكتاب فلا يقرأ ، كذلك المنع من الإحساس فلا يُحسّ ، وإنما دل على عدم الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأ بصار ، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأ بصار من غير عمى فلا يبطل الإدراك رأساً ، وذلك بتغميض الأ جفان ، وليس كذلك منع الإسماع من غير صمم في الآذان ، لأنه إذا ضرب عليها من غير صمم دل على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك ، ولأن الأذن لما كانت طريقة إلى الانتباه ثم ضربوا عليها لم يكن سبيلاً إليه . وقال عز وجل : ﴿ ثُمَّ نُكَسُّوُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾^(٢) هذا استعارة ، حقيقته أطروقاً للمذلة عند لزوم الحجة ، إلا أنه بولغ في العبارة بجعلهم كالواقع على رأسه للحيرة بما نزل به من الآبة . وقال تعالى : ﴿ وَلَا سُقْطَةَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾^(٣) هذا مستعار وحقيقته : ندموا لما رأوا من آسباب الندم ، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالات فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليدين ، فكانت حاله أكشف في سوء الاختيار لما يوجب من الوصال .

باب التلاؤم

التلاؤم نقىض التناقض ، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، والتأليف على ثلاثة أوجه^(٤) :

(٢) [الأنياء / ٢١ / ٦٥] .

(٤) راجع رقم ٥ في ملحق تعلیقات المتأخرین .

(١) [الكهف / ١٨ / ١١] .

(٢) [الأعراف / ٧ / ١٤٩] .

متناfter ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا .

فالتأليف المتناfter كقول الشاعر :

وَقِبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانِ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرٍ حَرْبٍ قَبْرٌ^(١)

وذكروا أن هذا من أشعار الجن لأنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يستوعب ، وإنما السبب في ذلك ما ذكرنا من تناfter الحروف .

وأما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى - وهو من أحسنها - فكقول

الشاعر :

رَمَتِنِي وَسِرْتُ اللَّهَ بَيْنِ وَبَيْنَهَا عَشِيشَةً آرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمُ
(رَمِيمُ الَّتِي قَالَتْ لِجِيرَانِ بَيْتَهَا ضَسِنْتُ لَكُمْ لَا يَزَالَ يَهِيمُ)^(٢)
أَلَا رَبَّ يَوْمٍ لَوْ رَمَتِنِي رَمِيمُهَا وَلَكِنْ عَهْدِي بِالنُّضَالِ قَدِيمُ^(٣)

والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين من تأمله . والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتناfter والمتلائم في الطبقة الوسطى^(٤) . وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون في الشعر من المكسور ، واختلاف

(١) رواه الباحظ في البيان والتبيين ط السندي ٤٧ ويدركه الباقلانى مستشهدًا على المتناfter دا فعل الرمانى (إعجاز القرآن ط خفاجى ٢٨٥).

(٢) هذا البيت زيادة من البيان والتبيين (١/٨٢ . السندي) ويدركه فى المؤتلف .

(٣) هذه الأبيات الثلاثة لأبى حية التمري الشاعر الأموى الجيد ، من شعراء الحماسة .

وتروى فى الحماسة (شرح الحماسة للتبريزى ط . محى الدين ٣/٢٦٩) :

رَمَتِنِي وَسِرْتُ اللَّهَ بَيْنِ وَبَيْنَهَا وَنَحْنُ بِأَكْنَافِ الْحِجَازِ رَمِيمُ
فَلَوْ أَنَّهَا لَمَا رَمَتِنِي رَمِيمُهَا وَلَكِنْ عَهْدِي بِالنُّضَالِ قَدِيمٌ
وَيَرُوِيهَا الْمَبْرَدُ (١٩١) الْكَاملُ . ط . مَصْرُوهٌ ١٣٥٥ هـ كَا رَوَاهَا الرَّمَانِى .

(٤) فى الأصل . . . بين المتلائم والمتنافر فى الطبقة الوسطى» والصواب من سر الفصاحة (من ٩١) .

الناس في ذلك من جهة الطياع كاختلافهم في الصور والأخلاق . والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً . وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من بعد الشديد أو القرب الشديد ^(١) وذلك أنه إذا بعُدَّ بعد الشديد كان منزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان منزلة مشى المقيد ، لأنَّه منزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال ، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال .

والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة . ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحرف ، وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط . ، فذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعانى واحدة .

ومخارج الحروف مختلفة ، فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو في الوسائط . بين ذلك .

والالتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد . وذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه في الأسماع ، وتقبيله في الطياع ، فإذا اضياف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطياع البصير بجوهر الكلام ، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أنها إذا تفاوت ما بينهما . وقد عم التحدى به للجميع لرفع الإشكال ، وجاء على

(١) ينافق ابن سنان هذا الرأي (سر الفصاحة ٩٤) وسيجيء نص مناقشته في الباب الأخير من هذا الكتاب .

جهة الإِخْبَار بِأَنَّه لا تقع المعارضَة لِأَجْلِ الْإِعْجَاز ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ فَقُطِعَ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَفْعَلُوا . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونُونَ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ هَذَا الْقُرْآنُ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾^(٢) . وَقَالَ : ﴿ فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾^(٣) . وَلَا تَعْلَمُوا بِالْعِلْمِ وَالْمَعْنَى^(٤) الَّتِي فِيهِ قَالَ : ﴿ فَأَتُوا بِعِشْرُ سُورَ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾^(٥) . فَقَدْ قَامَتِ الْحِجَّةُ عَلَى الْعَرَبِيِّ : وَالْعَجَمِيِّ بِحَجْزِ الْجَمِيعِ عَنِ الْمَعْرَضَةِ إِذْ بِذَلِكَ تَبَيَّنَ الْمَعْجَزَةُ .

باب الفوائل

الفوائل حروف متباينة في المقاطع توجب حسن إِفَهَامِ المعنى . والفوائل بلاغة ، والأسجاع عجيب^(٦) ، وَذَلِكَ أَنَّ الفوائل تابعة للمعنى ، وأَمَّا الأَسجاع فالمعنى تابعة لها . وَهُوَ قلب ما توجَّهُ الْحِكْمَةُ فِي الدِّلَالَةِ ، إِذْ كَانَ الْغَرْضُ الَّذِي هُوَ حِكْمَةٌ إِنَّمَا هُوَ الإِبَانَةُ عَنِ الْمَعْنَى الَّتِي الْحَاجَةُ إِلَيْهَا مَاسَّةً ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَشَاكِلَةُ وَصَلَةٌ إِلَيْهِ فَهُوَ بِلَاغَةٌ ، وَإِذَا كَانَتِ الْمَشَاكِلَةُ عَلَى خَلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ وَلُكْنَةٌ ، لَأَنَّهُ تَكَلَّفُ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي تَوجَّهُ الْحِكْمَةُ ، وَمِثْلُهُ مِثْلٌ عَيْبٌ تَاجًا ثُمَّ أَلْبَسَهُ زَنجِيًّا ساقِطًا ، أَوْ نَظَمَ قَلَادَةً درَشَمَ أَلْبِسَهَا كَلْبًا . وَقَبِحَ ذَلِكَ وَعَيْبُهُ بَيْنُ مَنْ لَهُ أَدْنَى فَهُمْ ، فَمَنْ ذَلِكَ مَا يَحْكَى عَنْ بَعْضِ الْكَهَانَ : « وَالْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ ، وَالْغَرَابُ الْوَاقِعَةُ بِنَقْعَاءِ ، لَقَدْ نَفَرَ الْمَجْدُ إِلَى الْعُشَرَاءِ » .

(١) [البقرة ٢٣/٢] . (٢) [آلِسْرَاءٍ ١٧/٨٨] . (٣) [الطور ٥٢/٤٣] .

(٤) شَرَحُ عبدِ الْقَاهِرِ هَذِهِ الْفَكْرَةَ فِي رِسَالَةِ (الشَّافِيَةِ) الْمَذَكُورَةِ بَعْدِ صِ ١٣٨ وَ ١٩٩ .

(٥) [هود ١١ / ١٣] . (٦) راجع رقم ٦ فِي مَلْحُقِ التَّعْلِيقَاتِ .

ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب : « يا ضفدع نتوكل على تكدرين ولا النهر تفارقين ». .

فهذا أغث كلام يكون وأسخنه ، وقد بيّنا عليه ، وهو تكلف المعنى من أجله^(١) ، وجعلها تابعة له من غير أن يبالى المتكلم بها ما كانت .

وفوائل القرآن كلها ببلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعنى التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمام ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس في سجع الحمام إلا الأصوات المتشاكلة ، إذ كان المعنى لما تُكَلِّفَ من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به ، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة . .

والفوائل على وجهين : أحدهما على الحروف التجانسة والآخر على الحروف المتقاربة^(٢) ، فالحروف التجانسة كقوله تعالى : ﴿ طه ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُشْقِي إِلَّا تَذَكِّرَ مَنْ يَخْشَى ﴾^(٣) . الآيات . وكقوله : ﴿ وَالظُّرُورُ وَكَتَابٌ مُسْطُورٌ ﴾ . . الآيات ، وأما الحروف المتقاربة فكالميم من النون ، كقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، وكالدال مع الباء نحو : ﴿ قٌ ، وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدٌ ﴾ ثم قال : ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ وإنما حسن في الفوائل الحروف المتقاربة لأنها يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفوائل والمقطاع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة . وأما القواف فلَا تحتمل ذلك لأنها ليست في الطبقة العليا من البلاغة وإنما حسن الكلام فيها إقامة

(١) أي من أجل السجع .

(٢) ذكر ابن سنان الوجهين على أنهما تماثل وتقرب أو حروف متاثلة ومتقاربة وناقشه رأى الرماني فيها وسيجيء بعد (سر الفصاحة ١٦٣ ، ١٦٤ وما بعدها) (٣) [طه ١٢٠] .

الوزن ومجانسة القوافي ، فلو بطل أحد الشيئين^(١) خرج عن ذلك المنهاج . وبطل ذلك الحسن الذي له في الأسماع ، ونقصت رتبته في الأفهام . والفائدة في الفوائل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبداؤها في الآى بالنظائر .

باب التجانس

تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة . والتجانس على وجهين ؛ مزاوجة ومناسبة^(٢) ، فالمزاوجة تقع في الجزاء^(٣) كقوله تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾^(٤) أى جازوه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثاني لغرض الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار ، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان . ومن ذلك ﴿مُسْتَهْزِئُونَ ، اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ، أى يجازيهم على استهزائهم ؛ ومنه : (ومَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ^(٥) أى جازاهم على مكرهم . فاستعير للجزاء على المكر لتحقیق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم . ومنه ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(٦) أى مجازيهم على خديعتهم ، وبالخدية راجع عليهم . والعرب تقول : الجزاء بالجزاء ، والأول ليس بجزاء ، وإنما هو على مزاوجة الكلام .

(١) هذه الكلمة في الأصل يمكن أن تقرأ : البيتين .

(٢) راجع رقم ٧ في ملحق تعليقات المؤلفين .

(٣) ذكر المبرد هذا النوع في «ما اختلف لفظه» ونها المزج (ص ١٣ - ١٤) .

(٤) [البقرة ٢ / ١٤] .

(٥) [آل عمران ٣ / ٥٤] .

(٦) [النساء ٤ / ١٤٢] .

قال عمرو بن كلثوم :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنِجْهَلُ فُوقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١)

فهذا حسن في البلاغة ، ولكنه دون بлагة القرآن لأنّه لا يؤذن بالعدل كما آذنت ببلاغة القرآن ، وإنما فيه الإيذان براجع الوبال فقط ، والاستعارة للثاني أولى من الاستعارة للأول لأن الثاني يحتذى فيه على مثال الأول في الاستحقاق ، فال الأول منزلة الأصل والثاني منزلة الفرع الذي يحتذى فيه على الأصل ، فلذلك نقصت منزلة قولهم : الجزاء بالجزاء ، عن الاستعارة بمزاوجة الكلام في القرآن .

الثاني من المجانس وهو المناسبة ، وهي تدور في فنون المعانى التى ترجع إلى أصل واحد . فمن ذلك قوله تعالى : **﴿إِنَّمَا قُرْبَةً مَنْ أَنْصَرُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٢)** فجonus بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء ، أما هم فذهبوا عن الذكر ، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير . ومنه : **﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(٣)** فجonus بالقلوب التقلب ، والأصل واحد ، فالقلوب تتقلب بالخواطر ، والأبصار تتقلب في المناظر ، والأصل التصرف . ومنه . **﴿يَمْحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِيكُ الصَّدَقَاتِ﴾^(٤)** فجونس بيارباء الصدقة ربا الجاهلية ، والأصل واحد وهو الزيادة إلا أنه جعل بذلك الزيادة المذمومة زيادة محمودة .

(١) قال المبرد : لم يمدح بأنه جاهم ، إنما قصد المكافأة والشرف في قوله :
فوق جهل الجاهلين

(٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه . السلفية ١٣٥٠ ص ١٤ .

(٣) [التوبه ٩/١٢٧] .

(٤) [البقرة ٢ / ٢٧٦] .

باب التصريف

التصريف تصريف المعنى في^(١) المعانى المختلفة ، كتصريفه في الدلالات المختلفة ، وهو عقدها به على جهة التعاقب ، فتصريف المعنى في المعانى كتصريف الأصل في الاستئناف في المعانى المختلفة ، وهو عقدها به على جهة المعاقبة ، كتصريف الملك في معانى الصفات ؛ فصرف في معنى مالك ، وملك ، ذى الملكوت ، والمليك ، وفي معنى التمليلك ، والمالك ، والإملاك . والتملك ، والمملوك .

كذلك تصريف معنى العرض في الأعراض ، والاعتراض ، والاستعراض ، وبالتعرض ، والتعریض والمعارضة والعرض والحروض . وكله منعقد بمعنى الظهور . ومنه : أَعْرَضْتِ الْيَامَةَ أَى ظهرت وهو الأصل ، ومنه أَيْضًا الإعراض عن الإنسان لأنَّه انزوأَ عن الظهور له ، ومنه الاعتراض وهو ظهور ما يقصد عن الذهاب ، ومنه الاستعراض للجارية لأنَّه طَلَبَ لظهورها للحاسة ، ومنه التعریض للأمر لأنَّه طَلَبَ لظهوره بالفعل ، ومنه التعریض للنفع لأنَّه يصير على السبب الذي به يقع ظهور النفع ، ومنه المعارضة لأنَّها مقابلة يقع منها ظهور المساواة ، أو المخالفة ، ومنه المُعْرِض لأنَّ ظهور الشيء به أَبْيَن ، ومنه العرض لأنَّه على ظهور شيء لا يلبث ، ومنه العَرُوض لأنَّه ميزان الشعر ، يظهر به المنكسر من المتن . وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التي تظهره وتدل عليه . أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصة ، منها قصة موسى

(١) راجع رقم ٨ في التعليقات .

عليه السلام ، ذكرت في سورة الأعراف وفي طه والشعراء . . وغيرها لوجوه من الحكمة ، منها التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة ، ومنها تمكين العبرة والمعوظة ، ومنها حل الشبهة في المعجزة ، وذلك أن الأشياء على وجهين : منها مالا يدخل تحت الممكن فيه معارضية ، ومنها ما يدخل تحت الممكن ، فال الأول كالتحدى بعده يضرب في عدد فيكون منه خمسة وعشرون غير خمسة في خمسة وكذلك التحدي في قصة المقادير أنه لا يخلو مقداران من أن يكون أحدهما أزيد من الآخر أو أنقص أو مساوياً . فإذا قال قائل : هاتوا مثل هذه القسمة في غير المقادير قلنا لا يلزم ذلك لأنه لا يدخل تحت الممكن . وكذلك سبيل الجذور ، ولو قال جذر مائة عشرة فهاتوا لها جذراً غير العشرة . وليس كذلك سبيل أعلى الطبقات في البلاغة لأن الذي قدر على أن يأتي بسورة آل عمران والذي قدر على المائدة هو الذي قدر على الأنعام ، وهو الله عز وجل الذي يقدر أن يأتي بما شاء من مثل القرآن فظهور العجاج على الكفار بأن آتى في المعنى الواحد بالدلائل المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة .

باب التضمين

تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة هي عبارة عنه . والتضمين على وجهين : أحدهما ما كان يدل عليه الكلام دلالة الإثبات ، والآخر ما يدل عليه دلالة القياس .

فال الأول كذكر الشيء بأنه محدث ، فهذا يدل على الحديث دلالة الإثبات ، والتضمين في الصفتين جميعاً ، إلا أنه على الوجه الذي بينا .

وكذلك سبيل المكسور ومنكسر ، وساقط . ومسقط .

والتضمين على وجهين ، تضمين توجيه البنية ، وتضمين يوجيه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به ، ومن حيث جرت العادة بأن يعقد به . فاما الذى توجيه نفس البنية ، فالصفة بعلم يوجب أنه لابد من عالم ، وكذلك مكرم . وأما الذى يوجيه معنى العبارة من حيث لا تصح إلا به ، فكالصفة بقاتل يدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل ، ولا مقتول^(١) ، فهو على دلالة التضمين .

وأما التضمين الذى يوجيه معنى العبارة من جهة جريان العادة فكقولهم : «**الْكُرْبَاسِتِين**^(٢)» المعنى فيه بستين ديناراً ، فهذا مما حذف وضمن الكلام معناه لجريان العادة به . والتضمين كلها إيجاز استغنى به عن التفصيل إذ كان مما يدل دلالة الإخبار في كلام الناس ، فاما التضمين الذى يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز في كلام الله عز وجل خاصة ، لأنه تعالى لا يذهب عليه من وجوه الدلالة ، فنسبة لها يوجب أن يكون قد دل عليها من كل وجه يصح أن يدل عليه . وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة ، لأنه قد تذهب إليه دلالتها من جهة القياس ولا يخرجه ذلك عن أن يكون قد قصد بها الإبانة عما وضعت له في اللغة من غير أن يلحقه فساد في العبارة . وكل آية فلا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة ، فمن ذلك : «**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» قد تضمن التعليم لاستفتاح الأمور على التبرك به والتعظيم لله بذكره ، وأنه أدب من آداب الدين وشعار للمسلمين ، وأنه إقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التي هي من أجل نعمة ، وأنه ملجاً الخائف :

(١) أي الحال أنه لا مقتول .

(٢) الكربالضم مكيال للعراق وستة أوقار حمار وهو ستون قفيزاً أو أربعون إربداً .

ويعتمد للمستنجد . وقد بَيَّنَ ذلك بعد انقضاء كل آية في كتاب « الجامع لعلم القرآن »^(١) .

باب المبالغة

المبالغة هي الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبادة . والمبالغة على وجوه منها المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى^(٢) المبالغة ، وذلك على أبنية كثيرة منها : فعلان ، ومنها فعال ، وفועל ، ومفعول ، ومفعال . ففعلان كرحمان عدل عن راحم للمبالغة ، ولا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل لأنَّه يدل على معنى لا يكون إلا له ، وهو معنى وسعت رحمته كل شيء . ومن ذلك فعال كقوله عز وجل : ﴿ وَإِنِّي لِغَفَارٌ مِّنْ تَابٍ ﴾ معدول عن غافر للمبالغة ، وكذلك تَوَاب ، وعلام . ومنه فعل كغفور وشكور ، وودود ، ومنه فعيل كقدير ، ورحيم ، وعليم . ومنه مفعول كمدعس ، ومطعن ، ومفعال كمنحر ، ومطعم .

الضرب الثاني المبالغة بالصيغة العامة في موضع الخاصة ، كقوله تعالى :

﴿ خَالِفُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٣) وكقول القائل : أَتَانِي النَّاسُ ، ولعله لا يكون أَتَاه (إلا) خمسة فاستكثرهم ، ويبالغ في العبارة عنهم .

الضرب الثالث : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقول القائل : جاءَ الْمَلِكُ^(٤) إذا جاءَ جيُوشٌ عظيمٌ له ، ومنه قوله

(١) أعل الإشارة هنا إلى كتابة « الجامع الكبير » في التفسير .

(٢) يورد الباقلاف تعريف المبالغة على أنها الدلالة على كثرة المعنى [إعجاز القرآن ص ٢٨٨ ط. خفاجي] .

(٣) [الأنعام ٦ / ١٠٢] .

(٤) في المأمور كلمة « نفسه » تجاه هذا السطر ، وتترد العباره في التيموريه جاءَ الملك بنفسه . وقد آثرنا العباره كما وردت في المتن من غير التأكيد لأنَّه لا يستقيم مع معنى المجاز في العباره .

عز وجل : ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾^(١) فجعل مجيء دلائل الآيات مجبيئاً له على المبالغة في الكلام . ومنه : ﴿فَاتَّى اللَّهُ بِذِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾^(٢) أى أنتم بعظيم شأنكم يجعل ذلك إثباتاً له على المبالغة . منه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ لِلنَّجَابِ جَعَلَهُ دَكَّ﴾^(٣) .

الضرب الرابع : إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة ، نحو قوله تعالى : ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلْجُجَ الْجَمْلُ فِي سَمَّ الْخَيَاطِ﴾^(٤) .

الضرب الخامس : إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج ، فمن ذلك : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٥) . ومنه : ﴿فُلِّ إِنْ كَانَ لِرَحْمَنِ وَلَدٌ فَإِنَّا أَوْلُ الْعَابِدِينَ﴾^(٦) وعلى هذا النحو خرج مخرج الشك للشك للمبالغة في العدل ، جاء على التسليم أن لهم مستقرراً خيراً من جهة السلامة من الآلام ، لأنهم ينكرون إعادة الأرواح إلى الأجسام فقيل على هذا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرأ . ومنه : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ﴾^(٧) على التسليم أن أحدهما أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء .

الضرب السادس : حذف الأجيوبة للمبالغة كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾^(٨) و﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾^(٩) ومنه : ﴿صَ ، وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْر﴾^(١٠) كأنه قيل : لجاج الحق أو لعظم

. (٢) [النحل ١٦ / ٢٦].

(١) [الفجر ٢٢ / ٨٩].

. (٤) [الأعراف ٧ / ٤٠].

(٣) [الأعراف ١٤٣ / ٧٦].

. (٦) [الزخرف ٤٣ / ٨١].

(٥) [سباء ٢٤ / ٣٤].

. (٨) [آل عمران ٦ / ٢٧].

(٧) [الفرقان ٢٥].

. (١٠) [ص ٣٨ / ١].

(٩) [البقرة ٢ / ١٦٥].

الأمرُ أو لجأة بالصدقِ . كل ذلك يذهب إِلَيْهِ الوهم لما فيه من التفخيم . والمحذف أَبلغ من الذكر ، لأنَّ الذكر يقتصر على وجه والمحذف يذهب فيه الوهم إِلَى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم .

باب البيان

البيان هو الإِحْضار لما يظهر به تمييز الشيء من غيره في الإِدراك . والبيان على أربعة أقسام^(١) : كلام ، حال ، وإشارة ، وعلامة . والكلام على وجهين : كلام يظهر به تمييز الشيء من غيره فهو بيان ، وكلام لا يظهر به تمييز الشيء فليس ببيان كالكلام المخلط . والحال الذي لا يفهم به معنى . وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قبل أنه قد يكون على عي وفساد ، كقول السوادي وقد سئل عن أَتَانَ مَعَهُ فَقِيلَ لَهُ : مَا تَصْنَعُ بِهَا ؟ ، فَقَالَ : أَحْبَلَهَا وَتَوَلَّ لَيْ . فهذا كلام قبيح فاسد ، وإن قد فهم به المراد وأبان عن معنى الجواب . وكذلك ما يحكى عن باقل ، والعرب تضرب به المثل في العي فتقول : أَعْيَ من باقل ، وأَبْيَنَ من سحبان وائل ، فبلغ من عيه أَنَّهُ سُئلَ عن ظبية كانت معه بكم اشتراها ، فأراد أن يقول بأحد عشر ، فاخرج لسانه وفرج عشر أصابعه فأفلحت الظبية من يده . وهذا وإن كان قد أَكَدَ للإِفهام ، فهو أَبعد الناس من حسن البيان . وليس بحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبَح من الكلام ، لأنَّ الله قد مدح البيان واعتَدَ به في أيديه الجسام ، فقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعني به إِفهام المراد جاز .

(١) سبق المحافظ الرمافي إلى تعريف البيان وقرر أن جميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لاتنقص ولا تزيد : أوطا اللفظ ، ثم الإشارة ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسنى نسبة ، والنسبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقتصر عن مدى تلك الدلالات . (بيان والتبيين ط . هارون ج ١ / ٧٥ - ٧٦) .

وحسن البيان في الكلام على مراتب : فاعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتنبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة .

والبيان في الكلام لا يخلو من أن يكون باسم أو صفة أو تأليف من غير اسم للمعنى أو صفة ، كقولك : غلام زيد ، فهذا التأليف يدل على الملك من غير ذكر له باسم أو صفة ، دلالة الاستفهام كدلالة التأليف في أنه من غير ذكر اسم أو صفة ، كقولك : قاتل تدل على مقتول وقتل من غير ذكر اسم أو صفة لواحد منها ، ولكن المعنى مضمن بالصفة المشتقة وإن لم تكن له . دلالة الأسماء والصفات متناهية ، فاما دلالة التأليف فليس لها نهاية ، ولهذا صار التحدي فيها بالمعارضة لظهور المعجزة ، ولو قال قائل ، قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن أحداً أن يأتي بقصيدة إلا وقد قيلت فيما قيل لكان ذلك باطلا ، لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية كما أن الممكن من العدد ليس لها نهاية يوقف عندها لا يمكن أن يزداد عليها . والقرآن كله في نهاية حسن البيان ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعِيُونٍ وَرُزُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾^(١) ، فهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الاغترار بالإلهال . وقال سبحانه : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) ، وقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾^(٣) فهذا من أحسن الوعد والوعيد . وقال : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْسِنُ الْعَظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْسِنُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوْلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٤) فهذا أبلغ ما يكون من

(٢) [الدخان ٤٤ / ٤٠] .

(١) [الدخان ٤٤ / ٢٦] .

(٤) [يس ٣٦ / ٥١] .

(٣) [الدخان ٤٤ / ٧٦٩] .

الحجاج وقال : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الدّكَرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾^(١) ، فهذا أشد ما يكون من التقرير وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾^(٢) فهذا أعظم ما يكون من التحسير . وقال : ﴿ وَلَوْ رُدُوا لَعَادُوا لِمَا نَهُوا عَنْهُ ﴾^(٣) ، وهذا أدلة دليل على العدل من حيث لم يقتطعوا عمما يتخلصون به من ضرر الجرم ، ولا كانت قبائحهم على طريق الجبر . وقال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾^(٤) وهذا أشد ما يكون من التنفير على الخلة إلا على التقوى . وقال تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾^(٥) فهذا أشد ما يكون من التحذير من التفريط . وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مِنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾^(٦) . وهذا أشد ما يكون في التبعيد . وقال عز وجل : ﴿ اعْمَلُوا مَا شَاءْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٧) وهذا أعظم ما يكون من الوعيد . وقال عز وجل ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾^(٨) ، وهذا أشد ما يكون من التحسير . وقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بِلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾^(٩) وهذا أشد ما يكون في التقرير من أجل التماي في الأباطيل وقال عز وجل : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾^(١٠) وهذا أشد ما يكون من الإذلال . وقال عز وجل ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ

(١) [الزخرف ٤٣/٥].

(٢) [الأنعام ٦١/٢٨].

(٣) [ال Zimmerman ٣٩ / ٥٦].

(٤) [فصلت ٤١ / ٤٠].

(٥) [الذاريات ٥١/٥٣].

(٦) [الزخرف ٤٣/٣٩].

(٧) [الزخرف ٤٣/٦٣].

(٨) [فصلت ٤١ / ٤٠].

(٩) [الشورى ٤٢ / ٤٤].

(١٠) [الرحمن ٥٥ / ٤١].

بها المُجْرِمُونَ^(١) وهذا أشد ما يكون من التقرير . وقال تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ
الَّذِيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ^(٢)﴾ وهذا أشد ما يكون من التحذير . وقال عز وجل :
﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَدُّلُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٣)﴾ وهذا أشد
ما يكون من الترغيب . وقال عز وجل : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ
مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ^(٤)﴾ وقال
تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لِفَسَلَّتَا^(٥)﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج ،
وهو الأصل الذي عليه الاعتماد في صحة التوحيد ، لأنَّه لو كان إله آخر لبطل
الخلق بالتمام بوجودهما دون أفعالهما .

باب البيان عن الوجوه التي ذكرنا في أول الكتاب

وهي : ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة .
والصرف ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض
العادة ، وقياسه بكل معجزة .

أما توفر الدواعي فيوجب الفعل مع الإمكان لامحالة ، في واحد كان
أو جماعة . والدليل على ذلك أنَّ إنساناً لو توفرت دواعيه إلى شرب ماء
بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه . وكل داع يدعوا إلى مثله ،
وهو مع ذلك ممكن له فلا يجوز ألا تقع شربه منه حتى يموت عطشاً لتتوفر
الدواعي على ما بینا ، فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه
عنه . فكذلك توفر الدواعي إلى المعارضة على القرآن لما لم تقع المعارضة دل
ذلك على العجز عنها .

(٢) [آل عمران ٣ / ١٨٥] .

(١) [الرحمن ٥٥ / ٤٣] .

(٤) [المؤمنون ٣ / ٩١] .

(٣) [الزخرف ٤٣ / ٨١] .

وأما التحدي للكافرة فهو أظهر في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الداعي إلا للعجز عنها .

وأما الصُّرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقل .

وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة فإنه لما كان لا يجوز أن تقع على الاتفاق دل على أنها من عند علام الغيوب ، فمن ذلك قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ يَعْدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوْدُونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوَكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيُقْطَعَ دَابِرُ الْكَافِرِينَ﴾ فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين : العبر التي كان فيها أبو ميفيان ، أو الجيش الذين خرجوا يحمونها من قريش ، فاظفرتهم الله عز وجل بقريش يوم بدر على ما تقدم به الوعد . ومنه قوله تعالى : ﴿الَّمْ غُلْبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبَهُمْ سَيَغْلِبُونَ﴾^(١) . ومنه : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ لَوْكَرَةُ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) ومنه : (فَتَمَنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَنْ يَتَمَنُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُهُمْ)^(٣) . ومنه : ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنَّمَا لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾^(٤) ، ومنه : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلَمُونَ الدُّبُرُ﴾^(٥) ، ومنه : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ

(٢) [الصف ٦١ / ٩] .

(٤) [البقرة ٢ / ٢٣] .

(١) [الروم ٣٠ / ١] .

(٣) [البقرة ٩٤ / ٢] .

(٥) [القمر ٥٤ / ٤٥] .

المسجد الحرام إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ مُحَلَّقِينَ رَوْسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ^(١) .
ومنه : « وَعَدْكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَ أَيْدِي
الثَّالِثِ عَنْكُمْ^(٢) ». ثم قال : « وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحْاطَ اللَّهُ بِهَا^(٣) » .

وَأَمَّا نَقْضُ الْعَادَةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ كَانَتْ جَارِيَةً بِضَرْبِ الْكَلَامِ
مَعْرُوفَةً : مِنْهَا الشِّعْرُ وَمِنْهَا السِّجْعُ وَمِنْهَا الْخَطْبُ وَمِنْهَا الرِّسَالَاتُ ، وَمِنْهَا المُشَوَّرُ
الَّذِي يَدُورُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَدِيثِ ، فَأَتَى الْقُرْآنُ بِطَرِيقَةٍ مُفَرِّدةٍ خَارِجَةٍ عَنِ
الْعَادَةِ لَهَا مَنْزَلَةٌ فِي الْحَسْنِ تَفْوِيقُهُ كُلَّ طَرِيقَةٍ . وَلَوْلَا أَنَّ الْوَزْنَ يَحْسَنُ
الشِّعْرَ لَنَقْضَتْ مَنْزِلَتَهُ فِي الْحَسْنِ نَقْصًا عَظِيمًا . وَلَوْلَا عَامِلٌ مِنَ الْكَتَابِ
بِالْيَدِ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا حَفَّ^(٤) مَا يَفْوِقُ الدِّيْقَيْقَ^(٥) فِي الْلَّيْنِ وَالْحَسْنِ حَتَّى
لَا يَشْكُ مَنْ رَأَهُ أَنَّهُ أَرْفَعُ الشَّيَابِ الدِّيْقَيْقَيَّةِ الَّتِي بَلَغَتْ فِي الْحَسْنِ النَّهَايَا لِكَانَ
مَعْجَزًا . وَلَذِلِكَ مِنْ جَاءَ بِغَيْرِ الْوَزْنِ الْمُعْرُوفِ فِي الْطَّبَاعِ ، الَّذِي مِنْ شَائِنَهُ أَنَّ
يَحْسَنُ الْكَلَامُ بِمَا يَفْوِقُ الْمَوْزُونَ فَهُوَ مَعْجَزٌ .

وَأَمَّا قِيَاسُهُ بِكُلِّ مَعْجَزٍ فَإِنَّهُ يَظْهُرُ إِعْجَازَهُ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ ، إِذْ كَانَ
سَبِيلُ فَلْقِ الْبَحْرِ وَقَلْبِ الْعَصَاحِيَّةِ وَمَا جَرِيَ هَذَا الْمَجْرِيُ فِي ذَلِكَ سَبِيلًاً وَاحِدًا
فِي إِعْجَازِهِ ، إِذَا خَرَجَ عَنِ الْعَادَةِ وَقَدِعَ الْخَلْقُ فِيهِ عَنِ الْمَعَارِضَةِ . فَإِنْ قَالَ
قَائِلٌ : فَلَعْلَ السُّورُ الْقِصَارُ مُمْكِنٌ لِلنَّاسِ ، قَيِيلٌ لَهُ : لَا يَجُوزُ ذَلِكَ ؛ مِنْ قَبْلِ
أَنَّ التَّحْدِيَ قَدْ وَقَعَ بِهَا فَظَهَرَ الْعَجْزُ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « قُلْ فَاتُوا بِسُورَةِ
مِنْ مُثْلِهِ^(٦) فَلَمْ يَخْصُ بِذَلِكَ الطَّوَالَ دُونَ الْقِصَارِ ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَإِنَّهُ يَكُنَّ
فِي الْقِصَارِ أَنْ تَغْيِيرُ الْفَوَاصِلِ فَيَجْعَلُ بَدْلَ كُلِّ كَلْمَةٍ مَا يَقُولُ مَقَامَهَا ، فَهَلْ

(١) [الفتح ٤٨ / ٢٧] . (٢) [الفتح ٤٨ / ٢٠] .

(٣) [الفتح ٤٨ / ٢١] . (٤) الحف : المنسج .

(٥) نوع من الشياب الرقيقة ينسب إلى بلدية مصرية اسمها دبيق كانت بين الفرما وتنيس .

يكون ذلك معارضة ؟ ! قيل له : لا ، من قبل أن المفْحَم^(١) يمكنه في قوافي الشعر مثل ذلك ، وإن كان لا يمكنه أن ينشئ بيتاً واحداً ، ولا يفصل بطبعه بين مكسور وموزون ، فلو أن مفْحَماً رام أن يجعل بدل قوافي قصيدة رؤبة^(٢)

وقاتِم الأَعْمَاق خاوِي المختَرَقْ

مشتَبِيهُ الْأَعْلَام لَمَاعُ الْخَفَقْ

يَكِيلُ وَفْدُ الرِّيحِ مِنْ حَيْثُ انْخَرَقْ

فجعل بدل المخترق المُمْتَزَقْ ، وبدل الخفَق الشَّفَقْ ، وبدل انْخَرَق انْطَلَقْ لِأَمْكَنه ذلك ولم يجب به قول الشعر ولا معارضة رؤبة في هذه القصيدة عند أحد له أدنى معرفة . فكذلك سبيل من غَيْر الفواصل وزعم أنه قد عارض . وهذا واضح بَيْنَ لا يُخْفِي على متأمل والحمد لله .

فإن قال : فما ينكر أن يكونوا عدلوا عن معارضة الطوال للعجز وعدلا عن معارضة القصار لخفاء المساواة في الحكم ! . قيل له : لا يجوز ذلك ، لأن الحجة لهم به قائمة لو كان الأمر على تلك الصفة ، إذ كانت المعارضه فيما جرت به العادة على ذلك وقعت من عصبية قوم لأحد الفريقيين ، وعصبية فريق للآخر على نحو نقائض جرير والفرزدق ؟ وقبلهما عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فلو كان مما يجوز أن يقع فيه الاختلاف بين الجيدى الطباع لخفاء الأمر فيه لم يتركوا المعارضه له والاحتجاج به .

(١) المفْحَم كِفْرَم الْعَيْ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ يَقُولُ شِعْراً .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة مرجزة مشهورة لرؤبة بن العجاج وهي ترد في كتب النحو شاهداً على أن تنوين الترم الذى قد يلحق الروى المقيد ويسميه بعضهم النالى . [راجع خزانة الأدب ص ٨١-٩٤ ط القاهرة ١٣٤٧ هـ] .

فِيَانُ قَالَ قَاتِلُ : فَلَمْ اعْتَدْتُمْ عَلَى الْاحْتِجاجِ بِعِجزِ الْعَرَبِ دُونَ الْمَوَالِدِينِ ،
وَهُوَ عِنْدَكُمْ مَعِجزٌ لِلْجَمِيعِ ، مَعَ أَنَّهُ يَوْجُدُ لِلْمَوَالِدِينِ مِنَ الْكَلَامِ الْبَلِيجِ شَيْءٌ
كَثِيرٌ ؟ قَيْلَ : لَأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَقْيِيمُ الْأَوْزَانَ وَالْإِعْرَابَ بِالْطَّبَاعِ ، وَلَيْسَ فِي
الْمَوَالِدِينِ مَنْ يَقْيِيمُ الْإِعْرَابَ بِالْطَّبَاعِ كَمَا يَقْيِيمُ الْأَوْزَانَ وَالْعَرَبَ عَلَى الْبَلَاغَةِ
أَقْدَرَ لِمَا بَيَّنَاهُ مِنْ فَطْنَتِهِمْ لَمَا لَا يَفْطَنُ لَهُ الْمَوَالِدُونَ مِنْ إِقْامَةِ الْإِعْرَابِ بِالْطَّبَاعِ ،
فَإِذَا عَجَزُوا عَنِ ذَلِكَ فَالْمَوَالِدُونَ عَنْهُ أَعْجَزُ .

* فِي الأَصْلِ بَعْدَ هَذَا : تَمَّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى يَدِ الْعَبْدِ
الْفَقِيرِ مُحَمَّدِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ عَبْدِ الْخَالِقِ الْأَنْصَارِيِّ سَنَةَ ٦٤٢ .

الرسالة الشافية

لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني
(٤٧١ - ٥٠٠ هـ)

[عن نسخة حسين جلى المصورة بمعهد مخطوطات الجامعة العربية]

قال الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ. هو به أخص وأولى ، وضرورياً من العبارة هو بتäßيته أقوم ، وهو فيه أجيلى ، وما خذنا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل ؛ وإذا كان الشيء متعلقاً بغيره ، ومقيساً على ما سواه . كان من خير ما يستعان به على تقريره من الأفهام وتقريره في النقوص أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه ويؤنس به ، ويكون زماماً عليه يمسكه على المفهوم له والطالب علمه .

وهذه جمل من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضته القرآن ، وإذعنهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائت المقوى البشرية ومتجاوز للذى يتسع له ذرع المخلوقين ، وفيها يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم ، وبعلم الأدب جملة ، قد تحررت فيها الإيضاح والتبيين وحدوت الكلام حذواً هو بعرف علماء العربية أشبه ، وفي طريقهم أذهب ، وإلى الأفهام جملة أقرب ؛ وأسأل الله التوفيق للصواب والعون عليه ، والإرشاد إلى كل ما يزلف لديه ، إنه على ما يشاء قادر .

معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل ، وأن للتفاضل فيه غaiات ينأى بعضها عن بعض ، ومنازل يحلو بعضها بعضاً ، وأن علم ذلك علم يخص أهله ، وأن الأصل والقدوة فيه للعرب ، ومن عداهم تبع لهم وقاصر

فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرین ؛ من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي - صلی الله علیه وسلم - الذي نزل فيه الوحي ، وكان فيه التحدی أنّهم زادوا على أولئك الأولین ، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له . كيف ونحن نراهم يجهلون^(١) عنهم أنفسهم . ويبررون من دعوى المدانة معهم ، فضلاً عن الزيادة عليهم . هذا خالد بن صفوان يقول ، كيف نجاريهم وإنما نحكى لهم ، أم كيف نسابقهم وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم ؟ . ونرى الجاحظ يدعى للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة ، ويناظر في ذلك الشعوبية ، ويجهلهم ويصفه أحلامهم في إنكارهم ذلك ، ويقضى عليهم بالشقاوة وبالتهالك في المصيبة ، ويطيل ويطنب ، ثم يقول : « ونحن أبناء الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة ، من القصيدة والأرجاز ، ومن المنشور والأشجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الدبةاجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والشيء القليل »^(٢) . انتهى كلامه . والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى ، أو أن ينكحه إلا جاهل أو معاند . وإذا ثبت أنهم الأصل والقدوة ، فإن علمهم العلم ؛ فبنا أن ننظر في دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تلى عليهم القرآن وتحدوا إليه ، ومُلئت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله ومن التقرير بالعجز عنه ، وبه الحكم بأنهم لا يستطيعونه ولا يقدرون عليه ، وإذا نظرنا وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله ،

(١) هذه الكلفة في الأصل غير واضحة ، وهي بين يجعلون ويجهلون وقد رجحنا الأخيرة .

(٢) ترد هذه الفقرة في البيان والتبيين ط هارون ٣/٢٩ بخلاف يسير ، وفي التصين غموض الكلمة الواردة بعد « وما لا يزدوج » وقد جاءت في النسخة التي اعتمد عليها الناشر هكذا : « فعنـا العلم أن ذلك » - وقد أشار في هامشة إلى رواية تتفق وما نقله عبد القاهر هنا .

ولم تحلّ لهم أنفسهم بـأأن لهم إلـى ذلك سبيلاً على وجه من الوجوه ؛ أما الأحوال فدللت من حيث كان المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف ، وطبائعهم التي لا تتبدل أـن لا يسلـموا لخصومهم الفضيلة ، وـهم يجدون سبيلاً إـلى دفعها ، ولا يـنتـحلـون العجز وـهم يستـطـيـعون قـهـرـهم والظـهـورـ عليهم . كـيفـ وأنـ الشـاعـرـ أوـ الخطـيبـ أوـ الكـاتـبـ يـبـلـغـهـ أـنـ بـأـقصـىـ الإـقـلـيمـ الذـيـ هوـ فيهـ مـنـ يـبـأـيـ^(١) بـنـفـسـهـ ، وـيـدـلـ بـشـعـرـ يـقـولـهـ أـوـ خطـبـةـ يـقـومـ بـهـ أـوـ رسـالـةـ يـعـمـلـهـ ، فـيـدـخـلـهـ مـنـ الـأـنـفـهـ والـحـمـيـةـ ماـ يـدـعـهـ إـلـىـ مـعـارـضـتـهـ ، وـإـلـىـ أـنـ يـظـهـرـ ماـ عـنـدـهـ مـنـ الـفـضـلـ ، وـيـبـذـلـ مـاـ لـدـيـهـ مـنـ الـمـنـةـ . حتىـ إـنـهـ لـيـتوـصـلـ إـلـىـ أـنـ يـكـتـبـ إـلـيـهـ ، وـأـنـ يـعـرـضـ كـلـامـهـ عـلـيـهـ بـعـضـ الـعـلـلـ وـبـنـوـعـ مـنـ التـسـحـلـ ، هـذـاـ وـهـوـ لـمـ يـرـ ذـلـكـ الـإـنـسـانـ قـطـ ، وـلـمـ يـكـنـ مـنـهـ إـلـيـهـ مـاـ يـهـزـ وـيـحـركـ وـيـهـيـجـ عـلـىـ تـلـكـ الـمـعـارـضـةـ ، وـيـدـعـوـ إـلـىـ ذـلـكـ التـعـرـضـ . وـإـنـ كـانـ الـمـدـعـىـ ذـلـكـ عـرـأـيـ مـنـهـ وـمـسـعـ كـانـ ذـلـكـ أـدـعـىـ لـهـ إـلـىـ مـبـلـأـتـهـ . وـإـلـىـ إـظـهـارـ مـاـ عـنـدـهـ ، وـإـلـىـ أـنـ يـعـرـفـ النـاسـ أـنـ لـاـ يـقـصـرـ عـنـهـ ، أـوـ أـنـ مـنـهـ أـفـضـلـ ؟ فـإـنـ اـنـضـافـ إـلـىـ ذـلـكـ أـنـ يـدـعـهـ الرـجـلـ إـلـىـ مـاـ تـنـتـهـ وـيـحـركـهـ لـمـقاـولـتـهـ ، فـذـلـكـ الذـيـ يـسـهـرـ لـيـهـ وـيـسـلـبـهـ الـقـرـارـ ، حتىـ يـسـتـفـرـغـ مـجـهـودـهـ فـيـ جـوـابـهـ ، وـيـبـلـغـ أـقـصـيـ الـحدـ فـيـ مـنـاقـضـتـهـ ، وـقـدـ عـرـفـتـ قـصـةـ جـرـيرـ وـالـفـرـزـدقـ ، وـكـلـ شـاعـرـينـ جـمـعـهـمـاـ عـصـرـ ، ثـمـ عـرـضـ بـيـنـهـمـاـ مـاـ يـهـيـجـ عـلـىـ الـمـقاـولـةـ ، وـيـدـعـوـ إـلـىـ الـمـفـاخـرـةـ وـالـمـنـافـرـةـ ، كـيفـ جـدـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـاـ فـيـ مـعـاـلـيـةـ الـآـخـرـ ، وـكـيفـ جـعـلـ ذـلـكـ هـمـهـ وـكـلـهـ وـقـصـرـ عـلـيـهـ دـهـرـهـ ، هـذـاـ وـلـيـسـ بـهـ وـلـاـ يـخـشـيـ إـلـاـ أـنـ يـقـضـيـ لـصـاحـبـهـ بـأـنـهـ أـشـعـرـ مـنـهـ ، وـأـنـ خـاطـرـهـ أـحـدـ وـقـوـافـيـهـ أـشـرـدـ : لـاـ يـنـازـعـهـ مـلـكـاـ وـلـاـ يـفـتـاتـ عـلـيـهـ بـغـلـبـتـهـ لـهـ حـقـاـ . وـلـاـ يـلـزـمـهـ بـهـ أـتـاـوـةـ ، وـلـاـ يـضـرـبـ عـلـيـهـ ضـرـبـةـ .

(١) أـيـ يـفـخـرـ وـيـبـاهـيـ .

وإذا كان هذا واجباً بين نفسيين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلا ما يجري على الألسن من ذكره بالفضل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوى الأنفس الآبية والهم العلية ، والأئفة والحمية ، من يدعى النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدح به صل الله عليه وسلم ثم يقول : وحجي أن الله تعالى قد أنزل على كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون الفاظه وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولو جهdtكم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس ، ثم لا تدعهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سرفة في دعوah ، مع إمكان ذلك ومع أنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثله أو قريب منه ؟ هذا وقد بلغ بهم الغيظ . من مقالته ومن الذى ادعاه حداً تركوا معه أحلامهم الراجحة ، وخرجوا له عن طاعة عقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكل قبيح ، ولقوه بكل أذى ومكره ، ووقفوا له بكل طريق ، وكادوه وكل من تبعه بضرور المكابدة ، وأرادوهم بأنواع الشر . وهل سمع قط . بذى عقل ومسكة استطاع أن يخسر خصماً له قد اشتطر . في دعوه بكلمة يجيئها بها ، فترك ذلك إلى أمور يسفه فيها وينسب معها إلى ضيق النزع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعزته الحيلة وعز عليه المخلص ، أم هل عرف في مجرى العادات وفي دواعي النفوس ومبني الطبائع أن يدع الرجل ذو اللب حجته على خصميه ، فلا يذكرها ولا يفصح بها ولا يجعل عن وجهها ولا يزريه الغلط . فيما قال ، والكذب فيما ادعى ، ولا يدعى أن ذلك عنده وأنه مستطيع له ، بل يجعل

أول جوابه له ومعارضته إِيَاه التسريع إِلَيْهِ والسفه عليه ، والإقدام على قطع رحمه ، وعلى الإفراط في أذاه ؟ أم هل يجوز أن يخرج خارج من النام على قوم لهم رياسته ، ولهم دين ونحلة فيؤلب عليهم الناس ، ويذهب في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديقهم وكبارهم ، وسب ذراريهم وأولادهم ، وعدته التي يجد بها السبيل إلى تألف من يتآلفه ، ودعائه من يدعوه ، دعوى له إِذَا هى أُبْطلت بطل أمره كله وانتقض عليه تدبيره ، ثم لا يعرض له في تلك الدعوى ولا يشتغل بِإِبْطالها ، مع إِمكان ذلك ومع أنه ليس بمتذر . ولا ممتنع ؟ . وهل مثُلُّ هذا إِلا مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه ، فادعى عليه دعوى إن هى سمعت كان منها على خططي ماله ونفسه ، فلأحضر بيته على دعواه تلك ، وعند هذا المدعى عليه ما يبطل تملك البيته أو يعارضها ، وما يحول على الجملة بينه وبين تنفيذ دعواه ، فيدع إِظهار ذلك والاحتجاج به ، ويضرب عنه جملة ، ويدعه وما يريد من إِحکام أمره وإِتمامه ، ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة وإِلـ الإخـطار بالمهـجـ والنفـوسـ فـيـطاـولـ الـحـربـ ، ويـقـتـلـ فـيـهاـ أـوـلـادـهـ وـأـعـزـتـهـ ، وـيـنـهـاـكـ عـشـيرـتـهـ وـيـغـنـمـ أـمـوالـهـ ، وـلـاـ يـقـعـ لـهـ فـيـ أـثـنـاءـ تـلـكـ الـحـالـ أـنـ يـرـجـعـ إـلـىـ القـاضـىـ الذـىـ قـضـىـ لـخـصـمـهـ ، وـلـاـ إـلـىـ^(١) الـقـومـ الـذـينـ سـمـحـواـ مـنـهـ وـتـصـورـوـهـ بـصـورـةـ الـحـقـ فـيـقـولـ : لـقـدـ كـانـتـ عـنـدـيـ حـيـنـ اـدـعـىـ مـاـ اـدـعـىـ - بـيـنـةـ عـلـىـ فـسـادـ دـعـواـهـ وـعـلـىـ كـذـبـ شـهـودـهـ ، قـدـ تـرـكـتـهـ تـهـاـوـنـاـ بـأـمـرـهـ ، أـوـ أـنـسـيـتـهـ ، أـوـ مـنـعـ مـانـعـ دـونـ عـرـضـهـ ، وـهـاـ هـىـ هـذـهـ قـدـ جـئـتـكـمـ بـهـ فـاـنـظـرـوـاـ فـيـهـ لـتـعـلـمـوـاـ أـنـكـمـ قـدـ غـرـرـتـمـ ؟ وـمـعـلـومـ بـالـضـرـورةـ أـنـ هـذـاـ الرـجـلـ لوـ كـانـ مـنـ الـمـجـانـينـ لـمـ صـحـ أـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ ، فـكـيـفـ بـقـوـمـ هـمـ أـرـجـعـ أـهـلـ زـمـانـهـ عـقـولاـ ، وـأـكـمـلـهـمـ مـعـرـفـةـ

(١) فـيـ الأـصـلـ كـلـمـاتـانـ غـامـضـتـانـ أـثـبـتـنـاهـ أـقـرـبـهـاـ إـلـىـ الرـسـمـ وـالـمـعـنـىـ .

وأَجْزَلُهُمْ رَأْيًا ، وَأَثْقَبُهُمْ بَصِيرَةً ؟ فَهَذِهِ دَلَالَةُ الْأَحْوَالِ .

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْأَقْوَالِ فَكَثِيرَةٌ ، مِنْهَا حَدِيثُ ابْنِ الْمَغِيرَةِ رُوِيَ أَنَّهُ جَاءَ حَتَّى
أَتَى قَرِيشًا فَقَالَ : إِنَّ النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ غَدًا بِالْمَوْسِمِ ، وَقَدْ فَشَّا أَمْرُ هَذَا الرَّجُلِ
فِي النَّاسِ فَهُمْ سَائِلُوكُمْ عَنْهُ فَمَاذَا تَرْدُونَ عَلَيْهِمْ ؟ فَقَالُوا مَجْنُونٌ يَخْنَقُ ۝ فَقَالَ :
يَأْتُونَهُ فِي كَلْمَوْنِهِ فَيَجْدُونَهُ صَحِيحًا فَصَحِيحًا عَادِلًا فِي كَذِبَوْنِكُمْ ! قَالُوا : نَقُولُ
هُوَ شَاعِرٌ . قَالَ : هُمُ الْعَرَبُ ، وَقَدْ رَوَوَا الشِّعْرَ ، وَفِيهِمُ الشِّعْرَاءُ ، وَقَوْلُهُ لَيْسَ
يُشَبِّهُ الشِّعْرَ ، فِي كَذِبَوْنِكُمْ ! قَالُوا نَقُولُ : هُوَ كَاهِنٌ قَالَ ، إِنَّهُمْ لَقَوْا الْكَهَانَ
فَإِذَا سَمِعُوا قَوْلَهُ لَمْ يَجْدُوهُ يُشَبِّهُ الْكَهَانَةَ ، فِي كَذِبَوْنِكُمْ ! . ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى
مَنْزِلِهِ ، فَقَالُوا : صَبَّا الْوَلِيدَ - يَعْنِي أَسْلَمَ - وَلَئِنْ صَبَّا لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا صَبَّا ،
فَقَالَ لَهُمْ ابْنُ أَخِيهِ أَبُو جَهَلَ بْنَ هَشَامَ بْنَ الْمَغِيرَةِ : أَنَا أَكْفِيكُمْ . قَالَ
فَأَتَاهُ مَحْزُونًا فَقَالَ : مَالِكُ يَا بْنَ أَخَ ? قَالَ : هَذِهِ قَرِيشٌ تَجْمَعُ لَكَ
صَدْقَةً يَتَصَدَّقُونَ بِهَا عَلَيْكَ ، نَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى كَبِرِكَ وَحاجِتكَ . قَالَ : أَوْلَى
أَكْثَرِ قَرِيشٍ مَالًا ؟ ! . قَالَ : بَلِي وَلَكُنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ صَبَّاتٌ لِتَصْبِيبِ مِنْ
فَضْلِ طَعَامِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا يُشَبِّعُونَ مِنَ الطَّعَامِ فَكَيْفَ
يَكُونُ لَهُمْ فَضْلٌ ؟ ! ، ثُمَّ أَتَى قَرِيشًا فَقَالَ ، أَتَزْعُمُونَ أَنِّي صَبَّاتٌ وَلِعُمرِي
مَا صَبَّاتٌ ، إِنَّكُمْ قَلْتُمْ : مُحَمَّدٌ مَجْنُونٌ ، وَقَدْ وَلَدَ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ لَمْ يَغْبُ عَنْكُمْ
بِلَةٌ وَلَا يَوْمًا ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَخْنَقُ قَطًّا ؟ ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَجْنُونًا وَلَمْ يَخْنَقْ
قَطًّا ؟ ۝ وَقَلْتُمْ : شَاعِرٌ ؟ وَأَنْتُمْ شِعَارٌ فَهَلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَقُولُ مَا يَقُولُ ؟ ،
وَقَلْتُمْ : كَاهِنٌ ، فَهَلْ لَحْدَتُكُمْ مُحَمَّدٌ فِي شَيْءٍ يَكُونُ فِي غَدٍ إِلَّا أَنْ يَقُولَ إِنَّ
شَاءَ اللَّهُ ! ، قَالُوا : فَكَيْفَ تَقُولُ يَا أَبَا الْمَغِيرَةِ ؟ قَالَ : أَقُولُ هُوَ سَاحِرٌ ؟
فَقَالُوا : وَأَيْ شَيْءٍ السَّاحِرُ ؟ قَالَ : شَيْءٌ يَكُونُ بِبَابِلٍ ، مِنْ حَذْقَهُ فَرْقٌ بَيْنَ
الرَّجُلِ وَامْرَأَتِهِ وَالرَّجُلِ وَأَخِيهِ [أَلِيسْ مَا تَعْلَمُونَ] ، أَنَّ مُحَمَّدًا فَرْقٌ بَيْنَ

(١) فِي الأَصْلِ عِبَارَةٌ غَامِضَةٌ ، وَمَا أَثْبَتَنَا يَرْتَضِيهِ السِّيَاقُ .

فلان وفلانة زوجته ، وبين فلان وابنه ، وبين فلان وأخيه ، وبين فلان ومواليه لما فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ولا يأتينهم ؟ قالوا : بلى . فاجتمع رأيهم على أن يقولوا إنه ساحر ، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول . وانصرف ، فمر بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منطلقًا إلى رجله ، وهم جلوس في المسجد فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة إلى خير ؟ فرجع إليهم فقال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال : ما يقول أصحابكم إلا سحرًا وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره ، وعبس في وجوههم وبسر ، ثم أدبر إلى أهله مكذبًا ، واستكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيمان ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّهُ فَكَرَّ وَلَدَرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدْرٌ﴾^(١) الآية . ومنه ما رواه محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً حليماً – قال يوماً : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكثرون ، قالوا : بلى يا أبا الوليد ! فقام إليه – وهو صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده – فقال : يا ابن أخي ! إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقـت بين جماعتهم وسفـهـت أحـلامـهـمـ ، وعـبـتـ آـلـهـتـهـمـ ، وـكـفـرـتـ مـنـ مـضـىـ مـنـ آـبـائـهـمـ ، فـاسـمعـ مـنـ أـعـرضـ عـلـيـكـ أـمـوـرـاـ تـنـظـرـ فـيـهاـ لـعـلـكـ أـنـ تـقـبـلـ مـنـهـ بـعـضـهـاـ ، فـقـالـ رسولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : قـلـ . قـالـ : إـنـ كـنـتـ إـنـماـ تـرـيـدـ الـمـالـ بـمـاـ جـئـتـ بـهـ مـنـ هـذـاـ القـوـلـ ، جـمـعـنـاـ لـكـ مـنـ [أـمـوـالـنـاـ] حـتـىـ تـكـوـنـ أـكـثـرـنـاـ مـالـاـ ، وـإـنـ كـنـتـ تـرـيـدـ

(١) [المدثر ٧٤ / ١٨].

شرقاً سودناك حتى لانقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريده به ملائكة ملائكتك
عليينا ، وإن كان هذا الذي بك رئيساً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا
لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربها غالب التابع على
الرجل حتى يداوى منه ، أو لعل هذا شعر جاش به صدرك ، فإنكم لعمري
بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا تقدر عليه ؟ حتى إذا فرغ قال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوَقْدَ فرَغْتُ ؟ قال : نعم ، قال ، فاسمع
مني ، قال : قل . قال : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حَمْ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بِشَيْرًا، وَنَذِيرًا، فَأَعْرَضُ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(١) ثم مضى فيها يقرؤها ، فلما سمعها عتبة
أنصت له ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، يستمع منه حتى انتهى
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال له : قد
سمعت ما سمعت فأنت وذاك ! . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم
لبعض ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قالوا
ما وراءك ، قال : ورأى أنى سمعت قوله ولا والله ما سمعت بمثله قط ، وما
هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يامعشر قريش أطيعوني ، خلوا بين
هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فهو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبيا ،
فإن تصيبه العرب فقد كفيتكم بغيركم^(٢) ، وإن يظهره على العرب به فملوكه
ملككم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك بلسانه ! قال : هذا رأي
فاصنعوا ما بداركم . ومنه ما جاء في حديث أبي ذر في سبب إسلامه :
روى أنه قال : قال لي أخي أنيس : إن لي حاجة إلى مكة ، فانطلق فرات ،
فقلت : ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلا [يقول] إن الله تعالى أرسله .

(١) (فصلت ٤١ - ٢) .

(٢) في هذه العبارة اضطراب ولعلها « فإن تصيبه غير العرب »

فقلت : فما يقول الناس ؟ . قال : يقولون شاعر ساحر كاهن . قال أبوذر : وكان أنيس أحد الشعراء قال : تالله لقد وضعت قوله على أقراء^(١) الشعر فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة بما هو بقولهم ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . ومن ذلك ما روى أن الوليد بن عقبة أنى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ . فقرأ عليه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَإِلَّا حُسْنَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعْظُمُكُمْ لَعْلَكُمْ تذَكَّرُونَ﴾^(٢) فقال : أعد ، فأعاد ، فقال : والله إن له لحلوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفه لمعرق^(٣) ، وإن أعلىه لثمرة ، وما يقرب هذا بشر .

واعلم أنه لايجوز أن يقال في هذا وشبهه إنه لا يكون دليلاً حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض حين خلوا بأنفسهم ، فتفاوضوا وتحاوروا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض ؛ وإن كان منه من كلام المؤمنين ، أو من قاله ثم آمن ، فإنه لا يصح الاحتجاج به في حكم الجدل من حيث يصير كذلك تحتاج على الخصم برأى تراه أنت ، وبقول أنت تقوله ، وذلك أنه إنما يتمنع أن يدل إذا صدر القول مصدر الدعوى والشيء يدفعه الخصم وينكره ، فاما ما كان مخرجه مخرج التنبية على أمر يعرفه ذو الخبرة ، وأطلقه قائله إطلاق الواقع بأنه معلوم للجميع ، وأنه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنقص إلا وهو يحوج إلى تسليمه والاعتراف به شاء أم أبى فهو دليل بكل حال ؛ ومن قول كل قائل ، وحججة من غير مشروعة ، ومن غير أن ينظروا إلى قائله أموافق أم مخالف ، ذلك لأن الدلالة ليست من نفس القول وذات الصفة ، بل في مصدرهما وفي أن أخراجا مخرج

(١) الأقراء القوافي ، واحده قره .

(٢) [التحل ٩٠/١٦] .

(٣) ف رواية أخرى لعذق .

لإخبار عن أمر هو كالشىء البادى للعيون ، لا يُعمل أحد بصره إلّا رأه ،
إذا رأينا الأحوال والأقوال فمنهم قد شهدت كالذى بان باستسلامهم للعجز
علمهم بالعظيم من الفضل والبائن من المزية ، الذى إذا قيس إلى
ما يستطيعونه ويقدرون عليه فى ضروب النظم وأنواع التصرف فاته الفوت الذى
ينال ، وارتقا إلى حيث لا تطمع إليه الآمال ؛ فقد وجوب القطع بأنه
عجز ؛ ذلك لأنّه ليس إلّا أحد أمرين^(١) فإذا ما أن يكونوا قد علموا المزية التى
ذكرنا أنّهم علموها على الصحة ، وإنما أن يكونوا قد توهموها فى نظم القرآن
ولم يست هى فيه لغلط دخل عليهم . ودعوى الثاني من الأمرين سخف : فإن
ذلك لو ظن بالواحد منهم وبعد ، ذلك لأنّه لا يتصور أن يتوهם العاقل فى
نظم كلام - جل مناه ومني أصحابه أن يستطيع معارضته وأن يقدر على
إسكات خصمه المباهى به - أنه قد بلغ فى المزية هذا المبلغ العظيم غلطاً
وسهوا ، فكيف ، بأن يشتمل هذا الغلط . كلّهم ويدخل على كافتهم ؟ !
وأى عقل يرضى من صاحبه بأن يتوهם عليهم مثل هذا من الغلط ، وهم من
إذا ذاق الكلام عرف قائله من قبل أن يذكر ؛ ويسمع أحدهم البيت قد
استرده الشاعر فادخله فى أثناء شعر له ، فيعرف موضعه وينبه عليه كما
قال الفرزدق لذى الرمة^(٢) : أهذا شعرك ؟ ، هذا شعر لا كه أشد لحيين
منك . إلى ضروب من دقيق المعرفة يقل هذا فى جنبها ، وإذا لم يصح الغلط
عليهم ، ولم يجز أن يدعى أنه كان فى زمانهم من كان بالأمر أعلم ، وبالذى
وقع التحدى إليه أقوم ، فقد زالت الشبهة فى كونه معجزا له .

وإن قالوا : فإن هاهنا أمرا آخر ، وهو ما علمنا من تقديمهم شعراء

(١) في الأصل : (ليس أحد الأمرين) .

(٢) راجع ما سبق عن هذه القصة فى رسالة الخطابى .

الجاهلية على أنفسهم ، وإفراهم لهم بالفضل وإجماعهم في أمره القيس وزهير والنابغة والأعشى أنهم أشعر العرب ، وإذا كان ذلك كذلك فمن أين لنا أن نعلم أنهم لم يكونوا بحيث لو تحدوا إلى معارضته القرآن لقاموا بها واستطاعوها !

قيل لهم : هذا الفضل على ما فيه لا يقدح في موضع الحجة ، وذلك أنهم كانوا — كما لا يخفى — يرون أشعار الجاهليين وخطبهم ، ويعرفون مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تُشكِّلُ جهات الفضل عليه ؟ فلو كانوا يرون فيما رروا مزية على القرآن ، أو رأوه قريباً منه ، أو بحيث يجوز أن يعارض بمثله ، أو يقع لهم إذا قاسوا أو وزنوا أن هذا الذي تحدوا إلى معارضته لو تحدى إليه من قبلهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله ، لكنوا يدعون ذلك ويذكرونها ، ولو ذكروه لذكر عنهم ، ومحال إذا رجعنا إلى أنفسنا واستشفينا حال الناس فيما جبلوا عليه ، أن يكونوا قد عرفوا لما تحدوا إليه وقرعوا بالعجز عنه شيئاً ونظموا ، ثم يتلى عليهم : ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُوْنُ وَالْجِنُّوْنُ عَلَى أَنْ يَأْتُوْنَا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُوْنَا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(١) فلا يزيدون في جوابه على الصمت ، ولا يقولون : لقد روينا لمن تقدم ما علمت وعلمنا أنه لا يقصـر [عما] أتـيت به . فمن أين استجزـتـ أن تدعـى هذه الدعـوى ؟ ، فإذا كان من المعلوم ضرورة أنـهم لم يقولـوا ذلك ، ولا رأـوا أنـ يقولـوه ، ولو على سـبيل الدفع والتـلبـيس والـشـغـب بالـباطـل ، بل كانوا بين اـمـرـيـنـ : إـماـ أنـ يـخـبـرـواـ عنـ أنـفـسـهـمـ بالـعـجزـ وـالـقـصـورـ ، وـذـلـكـ حـيـنـ يـخـلـوـ بـعـضـهـمـ لـبـعـضـ ، وـكـانـ الـحـالـ حـالـ تـصـادـقـ ، وـإـماـ أنـ

يتعلقوا بما لا يتعلق به إلا من أعزته الحيلة ، ومن (فعل) ^(١) بالحججة من نسبته إلى السحر تارة ، وإلى أنه مأخوذ من فلان وفلان آخر ، يسمون أقواماً مجهمولين لا يُعرفون بعلم ، ولا يُظن بهم أن عندهم علمًا ليس عند غيرهم ، ثبت أنهم قد كانوا علماً أن صورة أولئك الأوائل صورتهم ، وأن التقدير فيهم أنهم كانوا في زمان النبي صلى الله عليه وسلم - ثم تحدوا إلى معارضته - لكانوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حاليهم ، وإذا كان هذا هكذا فقد انتفى الشك ، وحصل اليقين الذي تسكن معه النفس ، ويطمئن عنده القلب أنه معجز ناقص للعادة ، وأنه في معنى قلب العصا حية ، ولحياء الموتى في ظهور الحججة به على الخلق كافة ، وبيان أن قد سعد المؤمنون وخسر المبطلون . والحمد لله رب العالمين على أن هدانا لدينه وأنار قلوبنا ببرهانه ودليله ، وإياه جل وعز نسأل التثبيت على ما هدى له ، وإن تمام النعمة بإدامه ما خوله ، بفضله ومنه .

فصل

واعلم أن هاهنا باباً من التلبيس أنت تجده يدور في نفس قوم من الأشقياء ، وترأه يؤمنون إليه ، ويسمون به ويستهون الغر الغبي بذكرة ، وهو قولهم : قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له ، وحتى لا يطمع أحد في مدعاته ، وحتى ليقع ^(٢) الإجماع فيه أنه الفرد

(١) هكذا في الأصل وقد وضعنا الكلمة بين قوسين ولعلها أفحى .

(٢) في الأصل : « حتى لا يقع » ، والنفي هنا غير مسقيم مع السياق .

الذى لا ينazuع . ثم يذكرون امرأً القيس والشعراء الذين قدموا على من كان معهم في أعصارهم ، وربما ذكروا الجاحظ . وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان في عصره ، ولهم في هذا الباب خبط . وتخليط . لا إلى غاية ، وهى نفثة نفثها الشيطان فيهم ، وإنما أتوا من سوء تدبيرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل ؛ وذلك أن الشرط . في المزية الناقصة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر ، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة ، وتخرس الألسن عن دعوى المدانة ، حتى لا تحدث نفسُ صاحبها بأن يتحدى ، ولا يجول في خلد أن الإتيان بهله يمكن ، وحتى يكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كله .

وليت شعري من هذا الذى سلم لهم أنه كان في وقت من الأوقات من بلغ أمره في المزية وفي العلو على أهل زمانه هذا المبلغ ، وانتهى إلى هذا الحد ! ، إن قيل امرأ القيس ، فقد كان في وقته من يباريه ويماته ، بل لا يتحاشى من أن يدعى الفضل عليه : فقد عرفنا حديث علقة الفحل ، وأنه لما قال امرأ القيس - وقد تناشدا - : أينَا أَشْعَر ، قال : آنَا . غير مكتثر ولا مبال ؛ حتى قال امرأ القيس ، فقل وانعت فرسك وناقتاك ، وأقول وانعت فرسى وناقتى ، فقال علقة : إني فاعل ، والحكم بيني وبينك المرأة من ورائك - يعني أم جندي امرأة امرأ القيس . فقال امرأ القيس :

خليلى مرا بي على أم جندب نقض لباناتِ الفوادِ المُعدّبِ

قال علقة :

ذهبتِ من الهجرانِ في كل مذهبِ ولم يك حقاً كلُّ هذا التجنبِ

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

وتحاكما إلى المرأة، ففضلت علقة^(١).

وجرى بين أمرى القيس والحارث، اليشكري في تتميمه أنصاف الأبيات
التي أولها^(٢):

أَحَارِ أَرِيكَ بِرْقَا هَبَّ وَهَنَّا كَنَارِ مَجَوَسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارًا
ما هو مشهور، حتى قال أمرؤ القيس: لا أماتنك^(٣) بعد هذا.

ثم وجدنا الأخبار تدل على خلاف لم يزل بين الناس فيه وفي غيره أي أشعار؟، وعلى أي لم يستقر الأمر في تقديميه قراراً يرفع الشك. رروا أن أمير المؤمنين عليه رضوان الله عليه - كان يُفطر الناس في شهر رمضان، فإذا فرغ من العشاء تكلم فأقل وأوجز فتأبلغ ، قال: فاختصم الناس ليلة في أشعار الناس، حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال رضوان الله عليه لأبي الأسود الدؤلي: قل يا أبا الأسود - وكان يتعصب لأبي دواد - فقال: أشعرهم الذي يقول :

وَلَقَدْ أَغْتَدِي يَدَافِعُ رُكْنِي أَحْوَذِي ذُو هَيْعَةٍ إِضْرِيجُ^(٤)
مَخْلُطٌ مَزْبِدٌ مَكْرُ مَفْرُ مَنْفَحٌ مَطْرُ سُبُوحٌ خَرْوَجٌ
سَلْهَبٌ شَرْبٌ كَانَ رِمَاحًا حَمْلَتْهُ وَفِي السَّرَّا دَمْوَجُ^(٥)

فأقبل أمير المؤمنين - رضوان الله عليه - على الناس فقال: كل شعرائكم محسن ، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومنذهب واحد في القول لعلمنا

(١) سبق أن وردت هاتان القستان في رسالة الخطابي ، هذا وفي الأصل هامش - لعله من الناسخ - يبين وجه تفضيل علقة على أمرئ القيس.

(٢) هنا في الأصل هامش يفسر الماتنة بأن يقول أحد الشاعرين بيتاً ويقول الآخر بيتاً كأنهما يمتدان إلى غاية .

(٤) حاذ ساق ، وأحوذى حسن السوق ، والإضريج : الخز الأحمر.

(٥) سلهب فرس طويل ، والسراء الظهر ، ودموج متداخل بعضه في بعض .

أئمَّا سبق إِلَى ذَلِكَ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ أَصَابَ الَّذِي أَرَادَ وَأَحْسَنَ فِيهِ ، وَإِنْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ أَفْضَلَ فَالَّذِي لَمْ يَقُلْ رَغْبَةً وَلَا رَهْبَةً ؛ امْرُؤُ القيس بن حجر ، كَانَ أَصَحُّهُمْ بَادْرَةً وَأَجَودُهُمْ نَادِرَةً^(١) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَأَلَ الْحَطِيَّةَ : مَنْ أَشَعَّرَ النَّاسَ مِنَ الْمَاضِينَ وَالْبَاقِينَ؟

فَقَالَ : إِذْنُ مِنَ الْمَاضِينَ فَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ يَفْرُهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِّ
وَمَا الَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعْثٍ ، أَىْ الرِّجَالُ الْمَهَذَّبُ
بِدُونِ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ الْفَرَاعَةَ أَفْسَدَتْهُ كَمَا أَفْسَدَتْ جَرْوَلَا – يَعْنِي نَفْسَهُ –
وَاللَّهُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ لَوْلَا الْجُشُعُ وَالْطَّمْعُ لَكُنْتُ أَشَعَّرَ الْمَاضِينَ ، فَأَمَّا الْبَاقِونَ
فَلَا أَشَكُ أَنِّي أَشَعَّرُهُمْ^(٢) .

وَقَالَ : كَانَ الْأَوَّلُلَ لَا يَفْضِلُونَ عَلَى زَهِيرٍ أَحَدًا فِي الشِّعْرِ وَيَقُولُونَ : قَدْ
ظَلَمَهُ حَقٌّ مِنْ نَجْعَلِهِ كَالنَّابِغَةِ . قَالُوا : وَعَامَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ عَلَى ذَلِكَ . وَعَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : سَامِرَتْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَابَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ذَاتَ لَيْلَةٍ
فَقَالَ : أَنْشَدْنِي لِشَاعِرِ الشِّعْرِ . فَقَلَتْ : وَمَنْ شَاعِرُ الشِّعْرِ؟ قَالَ :
زَهِيرٌ . قَلَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِمَ كَانَ شَاعِرُ الشِّعْرِ؟ قَالَ : لَأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ
وَحْشَى الْكَلَامِ فِي شِعْرِهِ ، وَلَا يَعْاَذِلُ بَيْنَ الْقَوْلِ .

وَرُوِيَّ عَنْ أَبِي عَبِيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ : أَشَعَّرَ النَّاسَ ثَلَاثَةً ، امْرُؤُ القيسِ بْنِ
حَجَرَ ، وَزَهِيرَ بْنَ أَبِي سَامِيٍّ ، وَالنَّابِغَةَ الْذِبِيَّانِيَّةَ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ : فَزُورَتْ

(١) فِي هَذَا الْقَوْلِ الْمُنْسُوبِ إِلَى عَلِ طَرَافَةَ فَهُوَ يُشَيرُ إِلَى نُوحٍ لَابْدَ مِنَ الْاِتْفَاقِ عَلَيْهَا لِتَسْتَحْقَنَ
الْمُفَاضَلَةَ ، وَهُوَ يُنْبِهُ إِلَى فَكْرَةِ الشِّعْرِ لِلشِّعْرِ لَا عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ ، وَهِيَ فَكْرَةٌ غَيْرُ مَطْرُوْقَةٌ كَثِيرًا فِي
النَّقْدِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ ، وَرَاجِعٌ تَفْضِيلِ عَلِ لَامِرَيِ القيسِ فِي الْعَمَدةِ ط١٩٢٢ / ٥٩ .

(٢) رَاجِعُ الْحِبْرِ فِي الْعَمَدةِ ط١ / ٦١ وَيُزِيدُ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ لَهُ : كَذَلِكَ أَنْتَ يَا أَبَا مَلْكِيَّةَ !

اليمنية تقدعاً لصحابهم أخباراً رفعوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى عن يحيى بن سليمان الكاتب أنه قال : بعثني المنصور إلى حماد الرواية أَسْأَلُه عن أَشْعَرَ النَّاسِ فَأَتَيْتَهُ وَقَلَّتْ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُكَ عَنْ أَشْعَرَ النَّاسِ . فَقَالَ : ذَاكَ الْأَعْشَى صَنَاجَهَا .

فقد علمنا أنَّ امرأَ القيس كان أَشْعَرَهُمْ عِنْدَهُمْ ، وَأَنَّ تفضيلهم غيره عليه إنما كان على سبيل المبالغة ، وعلى جهة الاستحسان للشيء يتمثل به في الوقت ، ويقع في النفس ، وما أَشْبَهُ ذلك من الأسباب التي يعطى بها الشاعر أَكْثَرَ مَا يَسْتَحِقُ . أَلِيسَ فِيهِ أَنَّهُ مَا لَا يَبْعُدُ فِي القياس وَأَنَّهُ مَا يَتَسْعَ لِهِ الاحتمال ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِالقولِ الَّذِي يَعْلَمُ وَالْحُكْمُ الَّذِي يَزْرِي بِصَاحْبِهِ ، وَأَنَّ فضْلَهُ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ بِالفضلِ الَّذِي يَمْنَعُ أَنْ يَكُونُوا أَكْفَاءَ لِهِ وَنَظْرَةً يَسْوَغُ لِلواحدِ مِنْهُمْ – وَيَسْوَغُ هُوَ لِنَفْسِهِ – دُعْوَى مَسَاوَاتِهِ وَالتَّصْدِي لِمَبَارَاتِهِ ! هَذَا وَفِي حَاجَةِ الْمَنْصُورِ إِلَى أَنْ يَسْأَلَ عَنْ أَشْعَرِ الشَّعْرَاءِ – وَقَدْ مَضِي الدَّهْرُ بَعْدَ الدَّهْرِ – دَلِيلٌ أَنَّ لَمْ يَكُنْ الَّذِي رَوَى مِنْ تفضيله مَجْمِعًا عَلَيْهِ مِنْ أَصْلِهِ وُفَيَّ أَوْلَى مَا قِيلَ ، وَأَنَّهُ كَانَ كَالرَّأْيِ يَرَاهُ قَوْمٌ وَيَنْكِرُهُ آخَرُونَ ، وَأَنَّ الصُّورَةَ كَانَتْ كَالصُّورَةِ مَعَ جَرِيرَ وَالْفَرِزَدْقَ ، وَأَبِي تَمَّامَ وَالْبَحْتَرِيِ . ذَاكَ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ القَوْلُ بِأَنَّهُ أَشْعَرَ النَّاسِ قَوْلًا صَدَرَ مَصْدِرَ الإِجْمَاعِ فِي أَوْلَهُ ، وَحَكِيمًا أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْكَافَةَ حِينَ حُكِمَ بِهِ حَتَّى لَمْ يَوْجُدْ مُخَالِفٌ ، ثُمَّ اسْتَمْرَ كَذَلِكَ إِلَى زَمَانِ الْمَنْصُورِ ، لَكَانَ يَكُونُ مَحْلًا أَنْ يَخْفِي عَلَيْهِ حَتَّى يَحْتَاجَ فِيهِ إِلَى سَوْالِ حَمَادَ ، وَكَانَ يَكُونُ كَذَلِكَ بَعِيدًا مِنْ حَمَادَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ مِثْلَ الْمَنْصُورِ ، فِي هَيْبَتِهِ وَسَلَطَانَهُ وَدَقَّةِ نَظَرِهِ وَشَدَّةِ مَوَانِدَتِهِ ، يَسْأَلُهُ فِي جَازِفِهِ فِي الْجَوابِ وَيَقُولُ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَطْلُقُهُ إِطْلَاقُ الشَّيْءِ الْمُوثَقِ بِصَحِّهِ الْمُتَقَدِّمِ فِي شَهْرَتِهِ . فَتَدْبِرُ ذَلِكَ .

ويزيد الأمر ببياناً أنا رأيناهم حين طبّقوا الشعراة جعلوا امراً القيس وزهيرًا والنابغة والأعشى في طبقة^(١)، فأعلموا بذلك أنهم أكفاء ونظراء ، وأن فضلاً إن كان لواحد منهم فليس بالذى يوئس الباقيين من معاناته ، ومن أن يستطاعوا التعلق به والجرى في ميدانه، وينعمون أن يدعوا لأنفسهم ، أو يُدعى لهم أنهم ساوروه في كثير مما قالوه أو دنوا منه ، وأنهم جروا إلى خايته أو كادوا ، وإذا كان هذا صورة الأمر كان من العمى التعلق به ، ومن الخسار الوقوع في الشبهة بسببه .

وطريقة أخرى في ذلك ، وتقرير له على ترتيب آخر ، وهو أن الفضل يجب ، والتقديم إما لمعنى غريب يسبق إليه الشاعر فيستخرجه ، أو استعارة بعيدة يفطن لها ، أو لطريقة في النظم يخترعها . ومعلوم أن المعول في دليل الإعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أن ليس الدليل في المجرى بنظم لم يوجد من قبل فقط ، بل في ذلك مضموماً إلى أن يبين ذلك النظم من سائر ما عرف ويعرف من ضروب النظم ، وما يعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه ، البينة التي لا يعرض معها شك لواحد منهم أنه لا يستطيعه ، ولا يهتدى لِكُنْهِ أَمْرِهِ ، حتى يكونوا في استشعار اليأس من أن يقدروا على مثله ، وما يجريجرى المثل له ، على صورة واحدة ، وحتى كان قلوبهم في ذلك قد أفرغت في قلب واحد . وإذا كان الأمر كذلك لم يصح لهم تعلق بشأن امرئ القيس حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم بان من كل نظم عرف لمن قبله ولمن كان معه في زمانه البينة التي ذكرنا أمراها . وهم إذا فعلوا ذلك ورّطوا أنفسهم في أعظم ما يكون من الجهالة ، من حيث إنه يفضي بهم إلى أن يدعوا على من كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من الشعراة والبلغاء

(١) هكذا فعل ابن سلام الجمحى (ت ٢٣١ هـ) في طبقاته .

قاطبة الجهل بمقادير البلاغة ، والنقصان في علمها ، ولأنفسهم الزيادة عليهم وأن يكونوا قد استدركوا في نظم أمرى القيس مزية لم تعلمها قريش والعرب قاطبة ؟، ذلك لما مضى آنفًا من أن محالاً أن يكون معهم وبين أيديهم نظم يعرفون من حاله أنه مساو في الشرف نظم القرآن ، ثم لا يذكرونه ولا يحتاجون به على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يخبرهم أن الذي أتى به خارج عن طوق البشر ويتجاوز قواهم . هذا ومن يسلم بأن امرأ القيس زاد في البلاغة وشرف النظم على نظم من كان قبله ما إذا اعتبر كان في مزية قدر القرآن على نظم من كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ! أم من أين لهم هذه الدعوى ؟، الشيء علموه هم في شعره ، بان لهم عند قياسه إلى شعر من كان قبله كأبي دؤاد والأفود الأودي وغيرهما ؟ . أم لخبر أتاهم فليروا مكانه ، وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل قد أتى الخبر بما يُجهلهم في هذه الدعوى ويكتنفهم ، وهو الذي تقدم من قول أبي الأسود وتفضيله أبا دؤاد بحضوره أمير المؤمنين على رضوان الله عليه ، وبعد أن قال له :

قل يا أبا الأسود . أفيكون أن يكونوا قد عرفوا لأمرى القيس المزية التي ذكروها ، وكان فضلها على من تقدمه الفضل الذي قالوه ، ثم يقول أمير المؤمنين لأبي الأسود : قل ، بحضور العرب وبعقب أن تشاجروا في أشعار الناس ، فيؤخره ويقدم أبا دؤاد ، ثم لا يسمع نكيراً كالذى يجب فيمن قال الشيء الظاهر بطلانه ، وذهب مذهبًا لا مساغ له ! وليس تذكر أمثال هذه الزيادة ، ويتكلف الجواب عنها أنها تأخذ موضعًا من قلب ذى لب ، ولكن الاحتياط . بذكر ما يتوجه أن يستروح إليه الغوى ويغالط به الجاهل .

وإذا كانت الشبهة في أصل الدين ، كانت كالداء الذى يخشى منه

على الروح ، ويختلف منه على النفس ، فلا يستقل قليلاً ولا يتهاون باليسir منه ، ولا يتواهم مكان حركة له إلا استقصى النظر فيه وأعيد الكى على نواحيه ، وكالحيوان ذى السم يعاد الحجر على رأسه ، مادام يرى به حس وإن قل .

والله ولعنة ، والمسئول أن يجعل كل ما نعيده ونبذى فيه لوجهه بفضلـه ومنه .

فاعلم أنـهم إذا ذكرـوا – في تعلقـهم بالتوابـع ، ومحاـولـتهم أنـ يـمنعـوا من الاستـدلال مع تـسـاـيم عـجزـ العـرب عن مـعـارـضـةـ القرآن – من تـراـخـى زـمانـه عن زـمانـ النـبـي صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، كـالـجـاحـظـ. وـأـشـيـاهـ كـانـواـ فـيـ ذـلـكـ أـجـهـلـ ، وـكـانـ النـقـضـ عـلـيـهـمـ أـسـهـلـ ، وـذـلـكـ أـنـ الشـرـطـ. فـيـ نـقـضـ العـادـةـ أـنـ يـعمـ الأـزـمـانـ كـلـهـاـ ؛ وـأـنـ يـظـهـرـ عـلـىـ مـدـعـىـ النـبـوـةـ مـاـ لـمـ يـسـتـطـعـهـ مـمـلـوكـ قـطـ .

وـأـمـاـ تـقـدـمـ وـاحـدـ مـنـ أـهـلـ الـعـصـرـ سـائـرـهـمـ ، فـنـىـ مـعـنىـ تـقـدـمـ وـاحـدـ مـنـ أـهـلـ مـصـرـ مـنـ الـأـمـصـارـ غـيرـهـ مـمـنـ يـضـمـهـ وـإـيـاهـ ذـلـكـ المـصـرـ ، لـافـضـلـ فـيـ ذـلـكـ بـيـنـ الـأـمـصـارـ وـالـأـعـصـارـ إـذـاـ حـقـقـتـ النـظـرـ ، إـذـ لـيـسـ بـأـكـثـرـ مـنـ أـنـ وـاحـدـاـ زـادـ عـلـىـ جـمـاعـةـ مـعـدـوـيـنـ فـيـ نـوـعـ مـنـ الـأـنـوـاعـ ، فـكـانـ أـعـلـمـهـمـ أـوـ أـكـتـبـهـمـ أـوـ أـشـعـرـهـمـ ، أـوـ أـحـدـقـهـمـ فـيـ صـنـعـةـ ، وـأـبـهـرـهـمـ فـيـ عـمـلـ مـنـ الـأـعـمـالـ ، وـلـيـسـ ذـلـكـ مـنـ الإـعـجازـ فـيـ شـئـ ، إـنـاـ مـعـجزـ مـاـ عـلـمـ أـنـ فـوـقـ قـوـىـ الـبـشـرـ وـقـدـرـهـمـ ؛ إـنـ كـانـ مـنـ جـنـسـ مـاـ يـمـيـقـعـ التـفـاضـلـ فـيـهـ مـنـ جـهـةـ الـقـدـرـ ، أـوـ فـوـقـ عـلـومـهـمـ إـنـ كـانـ مـنـ قـبـيلـ مـاـ يـتـفـاضـلـ النـاسـ فـيـهـ بـالـعـلـمـ وـالـفـهـمـ ، وـإـذـاـ كـنـاـ نـعـلـمـ أـنـ اـسـتـمـداـدـ الـجـاحـظـ. وـأـشـيـاهـ الـجـاحـظـ. مـنـ كـلـامـ الـعـربـ وـالـبـلـغـاءـ الـذـيـنـ تـقـدـمـواـ فـيـ الـأـزـمـنـةـ وـأـنـهـمـ فـجـرـواـ لـهـمـ يـنـابـيعـ الـقـوـلـ فـاستـقـواـ ، وـمـثـلـواـ لـهـمـ مـثـلـاـ فـيـ الـبـلـاغـةـ فـاحـتـذـواـ ،

إذن لم يبلغوا شأو ما بلغوا ، ولم يدرّ لهم من ضرورة القول ما در ؟ ولو أن طباعاً لم تشرب من مائتهم ، ولم تُعذَّ بجناهم ، ولم يكن حالهم في الاكتساب منهم ، والاستمداد من ثمار قرائحيهم ، وتششم الذي فاح من روائحهم ، حال النحل، التي تغتذى بأرثي الأنوار وطيب الأزهار ، وتملأ أجوفها من تلك اللطائف ، ثم تتجها أريًا وتقذفها مديًا ، إذن لكان الجاحظ وغير الجاحظ. في عداد عامة زمانهم الذين لم يرووا ، ولم يحفظوا ، ولم يتبعوا كلام الأولين من لدن ظهر الشعر وكانت الخطابة إلى وقتهم الذي هم فيه ، ولم يعرفوا إلا ما يتكلم به آباءهم وإنواعهم ومساكنهم في الدار والمحلة ، أو كانوا لا يزيدون عليهم إن زادوا إلا بمقدار معلوم . فمن أعظم الجهل وأشد الغبارة أن يجعل تقدم أحدهم لأهل زمانه من باب نقض العادة ، وأن يُعدَّ بعد المعجز .

فمثل هذه الطبقة إذن مع الصدر الأول ، وقياس هؤلاء الخلف مع أولئك السلف ، ما جرى بين ابن ميادة وعقال : قال ابن ميادة^(١) :

فَجَرْنَا يَذَابِعُ الْكَلَامَ وَبَحْرَهُ فَأَصْبَحَ فِيهِ ذُو الرَّوَايَةِ يَسْبَحُ
وَمَا الشِّعْرُ إِلَّا شِعْرٌ قَيْسٌ وَخَنِدِفٌ وَقُولٌ سَوَاهُمْ كُلْفَةٌ وَتَلْحُ
فقال عقال يجيبه :

بَهَا خَطِيلَ الرَّمَاحُ أَوْ كَادَ يَمْزُحُ	أَلَا أَبْلَغَ الرَّمَاحَ نَقْضَ مَقَالَةٍ
بِحُورَ الْكَلَامِ تُسْتَقَى وَهِيَ طُفَّحُ	لَقَدْ خَرَقَ الْحَقَّ الْيَمَانُونَ قَبَاهُمْ
وَهُمْ أَعْرَبُوا هَذَا الْكَلَامَ وَأَوْضَحُوا	وَقَدْ عَلَّمُوا مَنْ بَعْدَهُمْ فَتَعْلَمُوا

(١) ٣٩٣ دلائل الإعجاز ١٣٢١ هـ والبيت الثاني لابن ميادة يروى : « وشعر سواثم ». وابن ميادة هذا هو الرماح بن أبى وجدة لأبيه سلمى بنت كعب بن زهير بن أبي سلمى وهو من شعراء الدولتين (معجم الشعراء للمرزبانى ١٣٥٤ هـ ص ١٢٤ ، ٣١٩) .

فَلِلْسَابِقِينَ الْفَضْلُ لَا تَنْكِرُونَهُ وَلَيْسَ لِخُلُوقِ عَلَيْهِمْ تَبْجُحٌ^(١)

وفي الذي قدمت في أول الجزء مفتتح هذه الرسالة من قول خالد بن صفوان : كيف نجاريهم وإنما نحكى لهم ، وما أتبعته من قول الجاحظ في شأن العرب ، وفي أن الاقتداء بهم والأخذ منهم والتسليم لهم ، وأنه لا يستطيع أشعر الناس وأرفعهم في البيان أن يضاهياهم ، ويقول مثل الذي قالوه في جودة السبك والنحت ، وكثرة الماء والرونق – إلا في اليسير – غنى لعاقل وكفاية ، اللهم إلا أن يتتجاهل متتجاهل فيدعى في الجاحظ . وأمثاله فضلاً لم يدعوه لأنفسهم ، أو يزعم أنهم ضامروا أنفسهم تحصباً للعرب فتشاهدوا لها بأكثر مما عرفوا وتواصفوها بعذية لم يعلموها ، فيفتح بذلك باباً من الركاكة والسفح لا يဂاب عن مثله ، ولا يستغل بالإصغاء إليه ، فضلاً عن الكلام عليه .

واعلم أنه إن خيل إلى قوم من جهال الملاحدة أنه كان في المتأخرین من البلاغة كالجاحظ . وأشباهه الجاحظ . من استطاع معارضته القرآن فترك خوفاً ، أو أنهم فعلوا ذلك ثم أخفوه ، لم يتصور تخيلهم ذلك حتى يقتسموا هذه الجهة التي ذكرتها ، أعني أن يزعموا أنهم كانوا عند أنفسهم أفضح وأبلغ من بلغاء قريش وخطبائهم ، وأن خطيبهم كان أخطب من قس وسبحان ، وشاعرهم أشعر من أمرئ القيس ومن كل شاعر كان في العرب ، إلا أنهم صانعوا الناس فمعنوا أنفسهم الفضيلة ونحلوها العرب . وذاك أن محلاً أن يعتقدوا فيهم – أعني في العرب – ما اعتقده الناس ، وفي أنفسهم ما أفضحوا به من القصور عن مداناتهم ، وشدة الانحطاط عنهم ، ثم أن يستطيعوا ما لم يستطعه العرب ويكملاً ما لم يكملوا له .

(١) في الدلائل :

فَلِلْسَابِقِينَ الْفَضْلُ لَا تَجْحِدُونَهُ وَلَيْسَ لِسُبُوقِ عَلَيْهِمْ تَبْجُحٌ

ومن هذا الذى يشك فى بطلان دعوى من بلغ بالمصلى غاية قد انقطع السابق [عنها] ، وزعم فى الناقص الحدق أَنَّه استقل بشئٍ عَيْنِي به المشهود له بالحدق والتقدم ، هذا ما لا يدور في خلد ، ولا تنعقد له صورة في وهم ، فاعرف ذلك .

فصل

في جزء آخر من السؤال ، وهو أن يقولوا : إننا قد عاملنا من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد منهم تواتيه العبارة ، ويطبيعه اللفظ . في صنف من المعانى ، يمتنع عليه مثل تلك العبارة وذلك اللفظ . في صنف آخر .

فقد يكون الرجل - كما لا يخفى - في المديح أَشَعَر منه في المراثى ، وفي الغزل واللهو والصيد أَنْفَذَ منه في الحكم والأداب ، وتراءه يستطيع في الأوصاف والتشبيهات مالا يستطيع مثله في سائر المعانى ، وترى الكاتب وهو في الإخوانيات أَبْلَغَ منه في السلطانيات ، وبالعكس . هذا أمر معروف ظاهر لا يشتبه .

وإذا كان كذلك ، فلعل العجز الذى ظهر فيهم عن معارضته القرآن لم يظهر لَا لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم ، ولكن لَا لأنهم لا يستطيعونه في مثل معانى القرآن .

وأعلم أن هذا السؤال يجئ لهم على وجه آخر ، وفي صورة أخرى ، وأنا أستقصيه ، حتى إذا وقع الجواب عنه وقع عن جملته ، وكان الجسم في الداء كله . وذاك أن يقولوا : إنه لا يصبح المطالبة إِلَّا بما يتصور وجوده ، وما يدخل في حيز الممكن ؛ وإنما لنعلم من حال المعانى أن الشاعر يسبق في الكثير

منها إلى عبارة يُعلَمُ ضرورة أنها لا يجيء في ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها ، حتى نقضى له بأنه قد غلب عليه واستبدل به ، كما قضى العاجظ لبشرار في قوله :

كَانَ مُثَارَ النَّقْعَ فَوَّ رُمُوسَنَا وَاسِيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوِي كَوَاكِبُهُ

فإنه أَنشد هذا البيت مع نظائره ثم قال : وهذا المعنى قد غلب عليه بشار ، كما غلب عنترة على قوله :

وَخَلَا الْذِبَابُ بِهَا فَلِيسَ بِبَارِحٍ غَرَدًا كَفَعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَسِّ

هَزْجًا يَحْلُكُ ذَرَاعَهُ بِذَرَاعِهِ قَدْحُ الْمَكِبُّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَنِ

قال : فلو أنَّ امرأً القيس عرض لمذهب عنترة في هذا لافتضح ، وليس ذلك لأنَّ بشاراً وعنترة قد أُوتيا في علم النظم جملة ما لم يؤت غيرهما ، ولكن لأنَّه إذا كان في مكان خبيء فعشر عليه إنسان وأخذله لم يبق لغيره مرام في ذلك المكان ، وإذا لم يكن في الصدفة إلا جوهرة واحدة فعمد إليها عامد فشقها عنها استحال أن يستمام هو أو غيره إخراج جوهرة أخرى من تلك الصدفة . وما هذا سبيله في الشعر كثير لا يخفى على من مارس هذا الشأن .

فمن البَيْنِ في ذلك قول القَطَاطِمِيَّ^(١) :

فَهُنَّ يَنْبِذِنَ مِنْ قُولٍ يُصْبِنَ بِهِ مَوْاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَةِ الصَّادِيِّ

وَقُولَّ أَبِي حَازِمٍ^(٢) :

كَفَاكَ بِالشَّيْبِ ذَنْبًا عِنْدَ غَانِيَةٍ وَبِالشَّيْبِ شَفِيعًا أَيْهَا الرَّجُلُ

(١) أورد عبد القاهر هذا البيت في الدلائل في معرض الكلام على متعلقات الفعل وأثرها في معنى الجملة . دلائل الإعجاز ، الطبعة الثانية ص ٤١٣ . وهو من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث (راجع طبقات ابن سلام ٥٣٤ والأغانى ٢٠/١٢٠) .

(٢) هذا البيت ثالث ثلاثة أبيات لأبي حازم الباهلي يوردها أبو هلال العسكري في ديوان المعافى ونقل عن ابن الأعرابي قوله إنه لا يعرف في التفجع على الشباب وفي ذم الشيب أحسن منها [ديوان المعافى ٢/١٥٢ ط ١٣٥٢ هـ] .

وقول عبد الرحمن بن حسان :

لم تفتتها شمس النهار بشيء غير أن الشباب ليس يدوم

وقول البحتري^(١) :

عرى قون في الأفضال يؤتنف الندى
اناشئهم من حيث يؤتنف العمر
ولا ينظر في هذا وأشباهه عارف إلا عام أنه لا يوجد في المعنى الذي يرى
مثله ، وأن الأمر قد بلغ غايته ، وأن لم يبق للطالب مطلب .

وكذلك السبيل في المنشور من الكلام ، فإنك تجد فيه متى شئت فصولاً
تعلم أن لن يستطيع في معانيها مثلها ؛ فمما لا يخفي أنه كذلك قول أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كل أمرٍ ما يحسنها ».
وقول الحسن رحمة الله عليه : « ما رأيت يقييناً لا شك فيه أشبه بشك
لا يقين فيه من الموت ». ولن تعدم ذلك إذا تأملت كلام البلغاء ، ونظرت
في الرسائل . ومن أَخص شيء بـأن يطلب ذلك فيه الكتب المبتدأة الموضوعة في
العلوم المستخرجة ، فإننا نجد أربابها قد سبقوا في فصول منها إلى ضرب من
اللفظ . والنظم أَعيا من بعدهم أن يطبوها مثله ، أو يجيئوا بشبيه له ، فجعلوا
لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويرددوا ألفاظهم
فيها على نظامها وكما هي . وذلك ما كان مثل قول سبيويه في أول الكتاب :
« وأما الفعل فـأمثولة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى وما
يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع »^(٢) ، لا نعلم أحداً أَتى في معنى
هذا الكلام بما يوازنه أو يداريه ، أو يقع قريباً منه . ولا يقع في الوهم

(١) الديوان ط هندية سنة ١٩١١ م / ٢٠١٠ من قصيدة ي مدح بها أبا عامر الخضرى بن أحمد .

(٢) ونص عبارة سبيويه في أول الكتاب / ١ / ٢ : « وأما الفعل فـأمثولة أخذت من لفظ أحداث
الأسماء وبنيت لما مضى ولا يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع » .

أيضاً أن ذلك يستطاع ، أولاً ترى أنه إنما جاء في معناه قولهم : والفعل ينقسم بأقسام الزمان ، ماض وحاضر ومستقبل . وليس يخفى ضعف هذا في جنبه وقصوره عنده . ومثله قولهم : كأنهم يقدمون الذي بيانيه أعلم لهم وهم بشأنه أعني ، وإن كانوا جميعاً يهتمون ويحيطون بهم .

وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع أن يكون سبيل لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل ، وأن يكون عجزهم عن أن يأتوا بمثله في طريق العجز عما ذكرنا ومثلنا . فهذا جملة ما يجيء لهم في هذا الضرب من التعلق قد استوفيته . وإذ قد عرفته فاسمع الجواب عنه ، فإنه يسقطه عنك دفعه ويحسمه عندك حسماً . واعلم أنهم في هذا كرامٍ قد أضل الهدف ، وبانٍ قد زال عن القاعدة ، وذاك أنه سؤال لا يتوجه حتى يقدّر أن التحدى كان إلى أن يعبروا عن معانٍ القرآن أنفسها وبأعيانها بلفظ . يشبه لفظه ونظم يوازي نظمه ، وهذا تقدير باطل ؛ فإن التحدى كان إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا من المعانى بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه . يدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ قل فاتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ ﴾^(١) أي مثله في النظم ، ولتكن المغنى مفترى لما قلتم ، فلا إلى المغنى دعيم ، ولكن إلى النظم ، وإذا كان كذلك كان بيّنا أنه بناء على غير أساس ، وردي من غير مرد ، لأنَّه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة وفي شيء مخصوص ، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها وفي الأشياء أجمعها . فلو كان إذا سبق الخليل وسيبويه في معانى النحو إلى ما سبقا إليه من اللفظ والنظام ، لم يسبق الجاحظ في معانيه التي وضع كتبه لها إلى ما يوازي ذلك ويضاهيه ؟ أو كان بشار إذ سبق في معناه إلى ما سبق إليه لم يوجد مثل نظمه فيه لشاعر في شيء من

(١) [هود / ١٢] .

المعانى ، لكان لهم فى ذلك متعلق ، فاما وليس من نظم يقال إنه لم يسبق إليه فى معنى إلا ويوجد أمثاله أو خير منه فى معان آخر فمن أشد الحال وأبىئه الاعتراض به . واعلم أنا لو سلمنا لهم الذى ظنوه على بطلانه من أن التحدى كان إلى أن يعبر عن أنفس معانى القرآن بما يشبه لفظه ونظمه لم نعدم الحاجاج معهم ، وأن يكون لنا عليهم كلام فى الذى تعلقا به ودفع لهم عنه ، إلا أن العلماء آثروا أن يكون الجواب من الوجه الذى ذكرت ، إذا كان وفق ما نص عليه فى التنزيل ، وكان فيه سد الباب وجسم الشبه جملة . ومن ضعف الرأى أن تسلك طريقة يغمض وقد وجدت السنن اللاحب ، وأن تطاول المريض فى علاجك وجعلك الدواء الذى يشفى من كثب ، وأن ترخي من خناق الخصم وفي قدرتك ألا يملك نفسا ، ولا يستطيع نطقا . ثم إن أردت أن تكلمهم على تسليم ذلك فالطريق فيه أن يقال لهم على أول كلامهم حيث قالوا : إننا رأينا الرجل يكون فى نوع أشعر ، وعلى حوك اللفظ . والنظم أقدر منه فى غيره : إنه ينبغي أن تعلموا أول شيء أنكم حرftم كلام الناس فى هذا عن موضعه ، فإذا تأملنا الحال فى تقديمهم الشاعر فى فن من الفنون ، وجدناهم قد فعلوا ذلك على معنى أنه قد خرج فى معانى ذلك الفن ما لم يُخرجه غيره ، واتسع لما [لم]^(١) يتسع له من سواه . فإذا قالوا : هو أنساب الناس ، فالمعنى أنه قد فطن فى معانى الغزل [وما]^(٢) يدل على شدة الوجد وفرط الحب والهيمنان لما لم يفطن له غيره . وكذلك إذا قالوا : أمدح ، وأهجى ؛ فالمعنى أنه قد اهتدى فى معانى الزين والشين وفي التحسين والتهجيج إلى ما لم يهتد إليه نظراوه ، ولو كانوا في

(١) زدنا كلمة لم لأن السياق يتقتضيها .

(٢) زدنا كلمة وما لأن السياق يتقتضيها .

اللفظ والنظم يذهبون لكن محالاً أن يقولوا : هو أَنْسَب ، لأن ذلك في صفة اللفظ والنظم م الحال . ومن هذا الذي يشك أن لم يكن قول جرير :
أَلْسِنُمْ خَيْرٌ مِّنْ رَكْبِ الْمَطَايَا وَأَنْدِي الْعَالَمِينَ بَطْوَنَ رَاحَ

أَمْدَحْ بِيَتْ عِنْدَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ لَفْظِهِ وَنَظْمِهِ ، وَأَنْ ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَجْلِ مَعْنَاهُ ؟ . هَذَا مَا لَا يَعْنِي لِزِيادةِ الْقَوْلِ فِيهِ .

فَإِنْ قَالُوا : هُمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَرَادُوا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِمْ : هَذَا أَمْدَحْ ، وَذَلِكَ أَهْجِي ، وَهَذَا أَنْسَب ، وَذَلِكَ أَوْصِفْ ، فَإِنَّهُ لَنْ تَتَسْعَ الْمَعْنَى حَتَّى تَتَسْعَ الْأَلْفَاظُ ، وَلَنْ تَقْعُدْ مَوَاقِعُهَا الْمُؤْثِرَةُ حَتَّى يَحْسَنَ النَّظَمُ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ مَوْضِعُنَا مِنْهُ بِحَالَهُ^(١) ، ثُمَّ لَيْسَ بِمُنْكَرٍ وَلَا مُجَهُولٍ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ الشَّاعِرِ وَنَظْمُهِ إِذَا تَعَاطَى الْمَدْحُ أَحْسَنَ وَأَفْضَلَ مِنْهُمَا إِذَا هُوَ هَجَاءٌ أَوْ نَسْبٌ .

فَيَلِ : إِنَا نَدْعُ النَّزَاعَ فِي هَذَا وَنُسَلِّمُهُ لَكُمْ ، فَلَا يَخْبُرُونَا عَنْ مَعْنَى الْقُرْآنِ^(٢) ؛ أَهِي صَنْفٌ وَاحِدٌ أَمْ أَصْنَافٌ ؟ فَإِنْ قَلْمَ : صَنْفٌ وَاحِدٌ تَجَاهَلُوهُ ، فَقَدْ عَلِمْنَا الْحَجَجَ وَالْبَرَاهِينَ ، وَالْحُكْمَ وَالْآدَابَ ، وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيبُ ، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ، وَالْوَصْفُ وَالتَّشْبِيهُ وَالْأَمْثَالُ ، وَذَكْرُ الْأُمَمِ وَالْقَرْبَوْنَ وَاقْتِصَاصُ أَهْوَالِهِمْ ، وَالنَّبَأُ عِمَّا جَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَمَا لَا يَحْصِي وَلَا يَعْدُ .

وَإِنْ قَلْمَ : هِيَ أَصْنَافٌ كَمَا لَا بُدُّ مِنْهُ ، قَيْلَ لَكُمْ : فَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِشَعَرَاءِ الْعَرَبِ وَبِلْغَائِهَا أَنْ يَعْمَدْ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى الصَّنْفِ الَّذِي تَنْفَذُ قَرِيرَتِهِ فِيهِ فَيَعْارِضُهُ ، وَأَنْ يَجْعَلُوا الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ قَسْمَةٍ بَيْنَهُمْ ، وَفِي هَذَا كَفَايَةٌ لِمَنْ عَقْلٌ .

(١) هذه العبارة قلقة مخاطبة ولعل بها تصحيحاً .

(٢) في الأصل الأقران وأصلحتها تمشياً مع السياق .

وأما قولهم : إنـه قد يكونـ أن يسبقـ الشاعـرـ فـ المعـنىـ إـلـىـ ضـربـ منـ اللـفـظـ . والـنـظمـ يـعـلـمـ أـنـ لـاـ يـجـيـءـ فـ ذـلـكـ المـعـنىـ أـبـدـاـ إـلـىـ ماـ هـوـ مـنـحـطـ . عـنـهـ ، فـإـنـهـ يـبـغـيـ أـنـ يـقـالـ لـهـمـ : قـدـ سـامـنـاـ أـنـ الـأـمـرـ كـمـاـ قـلـتـ وـعـلـمـ ، أـفـعـلـمـ شـاعـرـاـ أـوـ غـيرـ شـاعـرـ عـمـدـ إـلـىـ مـاـلـاـ يـحـصـىـ كـثـرـةـ مـنـ الـمـعـانـيـ فـتـائـيـ لـهـ فـ جـمـيعـهـ لـفـظـ . أـوـ نـظـمـ أـعـيـاـ النـاسـ أـنـ يـسـتـطـيـعـواـ مـثـلـهـ ، أـوـ يـجـدـوـهـ لـمـ تـقـدـمـهـ ، أـمـ ذـلـكـ شـيـءـ يـتـفـقـ لـلـشـاعـرـ مـنـ كـلـ مـائـةـ بـيـتـ يـقـولـهـ فـ بـيـتـ ؟ـ وـلـعـلـ [ـغـيرـ]ـ الشـاعـرـ عـلـىـ قـيـاسـ ذـلـكـ ، وـإـذـ كـانـ لـاـ بـدـ مـنـ الـاعـتـرـافـ بـالـثـانـيـ مـنـ الـأـمـرـيـنـ وـهـوـ أـنـ لـاـ يـكـونـ إـلـاـ نـادـرـاـ وـفـيـ الـقـلـيلـ ، فـقـدـ ثـبـتـ إـعـجـازـ الـقـرـآنـ بـنـفـسـ ماـ رـأـمـواـ بـهـ دـفـعـهـ ، مـنـ حـيـثـ كـانـ النـظـمـ الـذـيـ لـاـ يـقـدـرـ عـلـىـ مـثـلـهـ قـدـ جـاءـ مـنـهـ فـيـاـ لـاـ يـحـصـىـ كـثـرـةـ مـنـ الـمـعـانـيـ .

وهـكـذـاـ القـوـلـ فـيـ الـفـصـولـ التـيـ ذـكـرـوـاـ أـنـهـ لـمـ يـوـجـبـ أـمـثالـهـ فـ مـعـانـيهـ لـأـنـهـ لـاتـسـتـمـرـ وـلـاـ تـكـثـرـ ، وـلـكـنـكـ تـجـدـهـ كـالـفـصـوصـ الـشـمـيـنةـ وـالـوـسـائـطـ . النـفـيـسـةـ وـأـفـرـادـ الـجـواـهـرـ تـعـدـ كـثـيـرـاـ حـتـىـ تـرـىـ وـاحـدـاـ . فـهـذـاـ وـشـبـهـهـ مـنـ القـوـلـ -ـ فـيـ دـفـعـهـمـ مـعـ تـسـلـيمـ ماـ ظـنـوـهـ مـنـ أـنـ التـحـدـىـ كـانـ إـلـىـ أـنـ يـعـبـرـ عـنـ مـعـانـيـ الـقـرـآنـ أـنـفـسـهـاـ -ـ مـمـكـنـ غـيرـ مـتـعـدـرـ ، إـلـاـ أـنـ الـأـوـلـىـ أـنـ يـلـزـمـ الـجـدـدـ الـظـاهـرـ ، وـأـنـ لـاـ يـجـابـوـإـلـىـ مـاـ قـالـوـهـ مـنـ أـنـ التـحـدـىـ كـانـ إـلـىـ أـنـ يـؤـتـيـ فـ أـنـفـسـ مـعـانـيـهـ بـنـظـمـ وـلـفـظـ يـشـابـهـ ، وـيـساـوـيـهـ ، وـيـجـزـمـ لـهـمـ القـوـلـ بـأـنـهـمـ تـحدـدـوـإـلـىـ أـنـ يـجـيـشـوـ فـ أـيـ مـعـنـىـ أـرـادـوـاـ مـطـلـقـاـ غـيرـ مـقـيـدـ ، وـمـوـسـعـاـ عـلـيـهـمـ غـيرـ مـضـيقـ ، بـمـاـ يـشـبـهـ نـظـمـ الـقـرـآنـ أـنـ يـقـرـبـ مـنـ ذـلـكـ .

وـمـمـاـ يـحـيـلـ أـنـ يـكـونـ التـحـدـىـ قـدـ كـانـ إـلـىـ مـاـ ذـكـرـوـهـ ، وـمـعـ الشـرـطـ الـذـيـ توـهـمـوـهـ ، أـنـ الـعـربـ قـدـ كـانـتـ تـعـرـفـ الـمـعـارـضـةـ مـاـهـيـ وـمـاـ شـرـطـهـ ، فـلـوـ كـانـ الـنـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـدـ عـدـلـ بـهـمـ فـيـ تـحـدـيـهـ لـهـمـ إـلـىـ مـاـلـاـ يـطـالـبـ بـمـثـلـهـ ،

لكان ينبغي أن يقولوا : إنك قد ظلمتنا وشرطت في معارضته الذي جئت به مالاً يشترط ، أو ليس بواجب أن يشترط ، وهو أن يكون النظم الذي نعارض به في أنفس معانى هذا الذى تحذىت إلى معارضته ، فدع عننا هذا الشرط . ثم اطلب ، فإنما نريد حينئذ مما قاله الأولون وقلناه وما نقوله في المستأنف ما يوازى نظم ما جئت به في الشرف والفضل ويضاهيه ، ولا يقصر عنه ، وفي هذا كفاية لمن كانت له أذن تعي وقلب يعقل .

قد تم الذى أردته في جواب سؤالهم ، وبaban بطلانه بياناً لا يبقى معه إن شاء الله شك لمناظر ، وإذا هو نصح نفسه وأذكى حسه ، ونظر نظرة من يريد الدين ، ويرجو مما عند الله فيما يقول ويعمل وجهه ، تقدس اسمه وإليه تعالى نرحب لمن يجعلنا من هذه صفتة في كل ما ننتهي وننظر فيه ، بفضله ومنه ورحمته ، إنه على ما يشاء قادر .

الحمد لله حق حمده ، والصلوة على رسوله محمد وآلـه من بعده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل

فِي الَّذِي يَلْزَمُ الْقَائِلِينَ بِالصِّرْفَةِ

اعلم أنَّ الذِّي يقع فِي الظُّنُونِ مِنْ حَدِيثِ القُولِ بِالصِّرْفَةِ أَنَّ يَكُونُ الذِّي
ابْتَدَأَ القُولَ بِهَا ابْتَدَأَهُ عَلَى تَوْهِمِ أَنَّ التَّسْحِدَى كَانَ إِلَى أَنْ يَعْبُرَ عَنْ أَنْفُسِ
مَعْنَى الْقُرْآنِ بِمِثْلِ لُفْظِهِ وَنُظْمَهُ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَقَ لَهُمْ وَخَيْرَهُ فِي الْمَعْنَى
كُلُّهَا . ذَاكَ لَأَنَّ فِي القُولِ بِهَا عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ أَمْوَالًا شَنِيعَةً ، يَبْعُدُ أَنْ
يَرْتَكِبُهَا الْعَاقِلُ وَيَدْخُلُ فِيهَا ، وَذَاكَ أَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنَّ يَكُونَ الْعَوْبَ قَدْ تَرَاجَعَتْ
حَالُهَا فِي الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ ، وَفِي جُودَةِ النَّظَمِ وَشَرْفِ الْلُّفْظِ ، وَأَنَّ يَكُونُوا قَدْ
نَقَصُوا فِي قِرَائِحِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ ، وَعَدَمُوا الْكَثِيرَ مِمَّا كَانُوا يَسْتَطِيُونَ ، وَأَنَّ
تَكُونَ أَشْعَارُهُمُ الَّتِي قَالُوهَا ، وَالْخُطُوبُ الَّتِي قَامُوا بِهَا – وَكُلُّ كَلَامٍ اخْتَلَفُوا
فِيهِ مِنْ بَعْدِ أَنْ أُوحِيَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَحْدَدُوا إِلَى مَعَارِضَةِ
الْقُرْآنِ – قَاصِرَةٌ عَمَّا سَمِعُوا مِنْهُمْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ الْقَصْوَرِ الشَّدِيدِ ، وَأَنَّ
يَكُونَ قَدْ ضَاقَ عَلَيْهِمْ فِي الْجَمْلَةِ مَجَالٌ قَدْ كَانَ يَتَسَعُ لَهُمْ ، وَنَضَبَتْ عَنْهُمْ
مَوَادٌ قَدْ كَانَتْ تَغْزِرُ ، وَخَذَلَتْهُمْ قُوَّةُ كَانُوا يَصْلُوُنَّ بِهَا ، وَأَنَّ تَكُونَ
أَشْعَارُ شَعَرَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّتِي قَالُوهَا فِي مَدْحَهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ
وَفِي الرَّدِّ عَلَى الْمُشَرِّكِينَ – نَاقِصَةٌ مُتَقَاصِرَةٌ عَنْ شَعْرِهِمُ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَنَّ
يَشْكُ فِي الذِّي رُوِيَ عَنْ شَأْنِ حَسَانٍ مِنْ نَحْوِ قُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قُلْ وَرُوحُ
الْقَدْسِ مَعْكَ . لَأَنَّهُ لَا يَكُونُ مَعَانِيًّا مُؤَيَّدًا مِنْ عَنْدِ اللَّهِ . وَهُوَ يَعْدِمُ مَمَّا كَانَ
يَجْدُهُ قَبْلَ كَثِيرًا ، وَيَتَقَاصِرُ أَنْفُسُهُ عَنِ السَّالِفِ مِنْهَا تَقَاصِرًا شَدِيدًا .

فِإِنْ قَالُوا : إِنَّهُ نَقْصَانٌ حَدَثَ فِي فَصَاحَتْهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرُوا بِهِ . قِيلَ لَهُمْ : فِإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَمْ تَقْمِ عَلَيْهِمْ حِجَّةٌ ؛ لَاَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ لَا يَكُونُوا قَدْ عَدَمُوا شَيْئًا مِنَ الْفَصَاحَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْرَفُونَهَا لَاَنَّفْسَهُمْ قَبْلَ التَّحْدِي بِالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ إِلَى مَعَارِضِتِهِ ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونُ قَدْ عَدَمُوا ذَاكَ ثُمَّ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ عَدَمُوهُ ، ذَاكَ لَاَنَّ الْآيَةَ بِزَعْمِهِمْ إِنَّمَا كَانَتْ فِي الْمَنْعِ مِنْ نَظَمٍ وَلِفَظٍ . قَدْ كَانَ لَهُمْ مُمْكِنًا قَبْلَ أَنْ تُحَدِّدُوا ، وَلَا يَكُونُ مَنْعٌ حَتَّى يُرَامَ الْمُمْتَنَوْعُ ، وَلَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَرُونَ إِلَيْهِمُ الْإِنْسَانَ الشَّيْءَ وَلَا يَعْلَمُهُ ، وَيُقْصَدُ فِي قَوْلِهِ وَفَعْلِهِ إِلَى أَنْ يَجْعِلَ بِهِ عَلَى وَصْفٍ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ الْوَصْفَ ، وَلَا يَتَصَوَّرُهُ بِسَاحَلِ الْأَحْوَالِ . وَإِذَا جَعَلُنَاهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كَلَامَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ الْيَوْمِ قَاصِرٌ عَنِ الَّذِي تَكَلَّمُوا بِهِ أَمْسِ ، وَأَنْ قَدْ امْتَنَعُ عَلَيْهِمْ فِي النَّظَمِ شَيْءٌ أَكَانَ يَوْاتِيهِمْ ، وَسَبَبُوا مَعْنَى قَدْ كَانَ لَهُمْ حَاصِلًا ، اسْتِحَالَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ لِنَظَمِ الْقُرْآنِ فَضْلًا عَلَى كَلَامِهِمُ الَّذِي يَسْمَعُ مِنْهُمْ ، وَعَلَى النَّظَمِ الظَّاهِرِ الْبَاقِ لَهُمْ ؛ ذَاكَ لَاَنَّ عَذْرَ الْقَائِلِ بِالصِّرْفَةِ أَنَّ كَلَامَهُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَدِّدُوا قَدْ كَانَ مِثْلَ نَظَمِ الْقُرْآنِ ، وَمَوَازِيًّا لَهُ ، وَفِي مُبْلَغِهِ مِنَ الْفَصَاحَةِ .

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ لِلْقُرْآنِ مَزِيَّةً عَلَى كَلَامِهِمْ ، وَعِنْدِهِمْ أَنَّ كَلَامَهُمْ بَاقٌ عَلَى مَا كَانُ عَلَيْهِ فِي الْقَدِيمِ ، لَمْ يَنْتَصِصُ ، وَلَمْ يَدْخُلْ خَلْلَ وَإِذَا لَمْ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ لِلْقُرْآنِ مَزِيَّةً عَلَى مَا يَقُولُونَهُ وَيَقْدِرُونَ عَلَيْهِ فِي الرَّتْبِ ، لَمْ يَتَصَوَّرُ أَنْ يُحاوِلُوا تِلْكَ الْمَزِيَّةَ ، وَإِذَا لَمْ يُحاوِلُوهَا لَمْ يَحْسُوا بِالْمَنْعِ مِنْهَا وَالْعَجَزِ عَنِ نِيلِهَا ، وَإِذَا لَمْ يَحْسُوا بِالْعَجَزِ وَالْمَنْعِ لَمْ تَقْمِ عَلَيْهِمْ حِجَّةٌ بِهِ . فَالَّذِي يَعْقُلُ إِذْنَ مَعِ هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ قَدْ عَارَضُوا الْقُرْآنَ وَتَكَلَّمُوا بِمَا يَوْازِيَهُ وَيَجْرِيَ مَجْرِيَ الْمُثْلِ لَهُ ، مِنْ حِيثُ إِنَّهُ إِذَا كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّ كَلَامَهُمْ بَاقٌ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الْأَصْلِ ، وَقَبْلَ نَزْوَلِ الْقُرْآنِ ، وَكَانَ كَلَامَهُمْ إِذْ ذَاكَ فِي حَدِ الْمُثْلِ وَالْمُسَاوِي لِلْقُرْآنِ ، فَوَاجِبٌ مَعَ هَذِهِ الْاعْتِقَادِ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنْ فِي جَمْلَةِ

ما يقولونه في الوقت ويقدرون عليه ما يشبه القرآن ويوازيه .

واعلم أنه يلزمهم أن يقضوا في النبي صلى الله عليه وسلم بما قضاوا في العرب من دخول النقص على فصاحتهم ، وتراجع الحال بهم في البيان ، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يمنع شطراً من بيته ، وكثيراً مما عرف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم . ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك حصل منه أن يكون عليه السلام قد تلا عليهم: ﴿ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُنُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمُثِيلٍ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمُثِيلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبْعَدُ ظَهِيرًا ﴾^(١) في حال هو يستطيع فيها أن يجعى بمثل القرآن ويقدر عليه ، ويتكلم ببعض ما يوازيه في شرف اللفظ ، وعلو النظم . اللهم إلا أن يقتسموا جهالة أخرى فيزعموا أنه عليه السلام قد كان في الأصل دونهم في الفصاحة ، وأن الفضل والمزية التي بها كان كلامهم قبل نزول القرآن في مثل لفظه ونظمه قد كان لبلغاء العرب دون النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا قالوا ذلك كانوا قد خرجو من قبيح القول إلى مثله ، فلم يشك أحد أنه صلى الله عليه وسلم ، لم يكن منقوصاً في الفصاحة ، بل الذي أتت به الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب .

ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغي ، إن كانت العرب منعت منزلة^(٢) من الفصاحة قد كانوا عليها ، أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت . ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك ، ولكنوا قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا كنا نستطع قبل هذا الذي جعلتنا به ، ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه ؟ فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفى ، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكره فيما بينهم ، ويشكوه

(٢) عبارة الأصل قلقة وقد عدلناها بما يتفق والسياق

(١) [الإسراء / ١٧ / ٨٨] .

البعض إلى البعض ، ويقولوا مالنا قد نقصنا في قرائحتنا ، وقد حدث كلول في أذهاننا . فبقى أن لم يُروَ ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى ، لا ما قل ولا ما كثر ، دليل أنه قول فاسد ، ورأي ليس من آراء ذوى التحصيل .

هذا وفي سياق آية التحدى ما يدل على فساد هذا القول ؟ وذلك أنه لا يقال عن الشيء يُمنعه الإنسان بعد القدرة عليه ، وبعد أن كان يكثر منه ، إن قد جئتمكم بما لا تقدرون على مثله ، ولو احتشدتم له ودعوتم الإنس والجن إلى نصرتكم فيه ، وإنما يقال إن أعطيتُ أن أحول بينكم وبين كلام الله لفظ الشريف ، وما شاكل هذا . ونظيره أن يقال للأشداء وذوى الأيدٍ إن الآية أن تعجزوا عن رفع ما كان يسهل عليكم رفعه : وما كان لا يتکاءَّدكم ، ولا يشقّ عليكم^(١) ؛ ثم إنّه ليس في العرف ، ولا في المعقول أن يقال : لو تعاصيتم واجتمعتم وجمعتم لم تقدروا عليه ، في شيء قد كان الواحد منهم يقدر على مثله ، ويسهل عليه ، ويستقل به ثم يمنعون منه ، وإنما يقال ذلك حيث يراد أن يقال إنكم لم تستطعوا مثله قط ، ولا تستطعوه أبداً ، وعلى وجه من الوجه ؟ حتى إنكم لو استضفتم إلى قواكم وقدركم التي لكم قوى وقدراً ، وقد استحملدتكم من غيركم ، لم تستطعوه أيضاً ؛ من حيث إنه لا معنى للمعاوضة والمظاهرة^(٢) والمعونة إلا أن تضم قدرتك إلى قدرة صاحبك ، حتى يحصل باجتماع قدرتكم ما لم يكن يحصل . فقد بان إذن أن لامساغ لحمل الآية على ما ذهبوا إليه ، وأن لا محتمل فيها لذلك على وجه من الوجه . وظهر به وسائل ما تقدم أن القول بالصرف - ولا سيما على هذا الوجه - قول في غاية البعد والتهافت ، وأنه

(١) هذا في الأصل كلمة غامضة وقد أثبتناها هكذا تمشياً مع السياق .

(٢) في الأصل : المظاهرة .

من جنس مالا يعذر العاقل في اعتقاده . ولم أقبل - ولا سيما على هذا الوجه - وأنا أعني أن القول بها على الوجه الأول مساعٌ في الصحة ، ولكنني أردت أن فساده كان ظهر والشناعة عليه أكثر ، وإلا فما هما إن أردت البطلان إلا سواء .

فإن قلت : فكيف الكلام عليهم إذا ذهبوا في الصرف إلى الوجه الآخر فزعموا أن التحدي كان أن يأتوا في أنفس معانى القرآن بمثل نظمه ولفظه وما الذى دل على فساده ؟ فإن على فساد ذلك أدلة منها قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ فَأَتُوا بِعِشْرِ سُورٍ مُّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾^(١) . وذاك أنا لا نعلم أن المعنى : فأتوا بعشر سور تفترنها أنتم ، وإذا كان المعنى على ذلك فبنا أن ننظر في الافتراض إذا وصف به الكلام ، إلى المعنى يرجع أم إلى اللفظ والنظام ؟ . وقد عرفنا أنه لا يرجع إلا إلى المعنى ، وإذا لم يرجع إلا إلى المعنى كان المراد إن كنتم تزعمون أنى قد وضعْتُ القرآن وافتريته ، وجئت به من عند نفسي ، ثم زعمت أنه وحى من الله ، فضيعوا أنتم أيضاً عشر سور وافتروا معانيها كما زعمتم أنى افتريت معانى القرآن . فإذا كان المراد كذلك ، كان تقديرهم أن التحدي كان أن يعمدوا إلى أنفس معانى القرآن ، فيغيروا منها بلفظ . ونظم يشبه نظمه ولفظه ، خروجاً عن نص التنزيل وتحريفاً له .

وذاك أن حق اللفظ إذا كان المعنى ما قالوه أن يقال : إن زعمتم أنى افتريته فأتوا أنتم في معانى هذا المفترى بمثل ماترون من اللفظ والنظام . يبيّن ذلك أنه لو قال رجل شعراً فلحسن في لفظه ونظمه وأبلغ ، وكان له خصم يعانده ، فعلم ذلك الخصم أنه لا يجد عليه مغماً في النظم واللفظ ، فترك ذلك جانباً وتشاغل عنه وجعل يقول : إن رأيتك سرقت معانى شعرك وانتحلتها وأخذتها من هذا وذاك . فقال له الرجل في جواب هذا الكلام : إن كنت قد

سرقت معانى شعري فقل أنت شعرًا مثله مسروق المعانى . لم يعقل منه ، إلا أنه يقول : فقل أنت شعرًا في معانٍ آخر تسرقها كما سرقت معانٍ بزعمك . ولم يحتمل أن يريد : اعمد إلى معانٍ فقل فيها شعرًا مثل شعري ، وإنما يعقل ذلك إذا هو قال : إن كنت قد سرقت معانى شعري فقل أنت في هذه المعانى المسروقة مثل الذى قلت ، وانظم فيها الكلام مثل نظمي لكلامى وحبره تحبيرى .

هذه جملة لا تخفى على من عرف مخارج الكلام ، وعلم حق المعنى من اللفظ ، وما يُحتمل مما لا يحتمل ، ومنها ما تقدم من أنه لا يقال في الشيء قد كان يكثر مثله من الإنسان ثم منع منه : ايت بمثله ، واجهد جهلك واستعن عليك ، فإنك لا تستطيعه ولو أعنوك الجن والإنس . وإنما يقال ذلك في البديع المبتدأ أو الذي لم يسبق إليه ، ولم يوجد مثله قط .

وهذا المعنى وإن كان يلزمهم في الوجهين ، فإنه لهم في هذا الوجه الذى نحن فيه ألزم ، وذاك أن^(١) قولك للرجل يقدر على مثل الشيء اليوم في كثير من الأحوال والأمور ويعوقه عنه عائق في حال واحدة وأمر واحد : لو اجتمع الإنس والجن فأعنوك لم تقدر على مثله ، أبعد وأقبح من قولك ذلك ، وقد كان يقدر عليه في سالف الأزمان ثم منعه جملة وجعل لا يستطيعه أبطة .

ومنها الأخبار التي جاءت عن العرب في تعظيم شأن القرآن ، وفي وصفه بما وصفوه به من نحو : إن عليه لطلاوة وإن عليه لحلابة ، وإن أسفله لمعدق وإن أعلىه لثمر ، وذاك أن محلاً أن يعظموه ، وأن يبهتوا عند سماعه ويستكينوا له ، وهم يرون فيها قالوه وقاله الأولون ما يوازيه ، ويعلمون أنه لم

(١) فالأصل : أنك .

يتعدّر عليهم لأنّهم لا يستطيعون مثله ، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة والعارض يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلاً عليه . بل الواجب في مثل هذه الحال أن يقولوا : إن كنا لا يتھيأ لنا أن نقول في معانٍ ما جئت به ما يشبهه ، إنما نأتيك في غيره من المعانٍ بما شئت وكيف شئت ، بما لا يقتصر عنه ولا يكون دونه .

وجملة الأمر أن علَم النبوة عندهم والبرهان إنما كان في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن لا في نفس النظم . وإذا كان كذلك فينبغي إذا تعجب المتعجب وأكبر المكابر أن يقصد بتعجبه وإكباره إلى المنع الذي فيه الآية والبرهان لا إلى الممنوع منه . وهذا واضح لا يُشكِّل .

فإنْ قالوا : إنه ليكون أن يستحسن الشاعر الشعر يقوله غيره ويُكَبِّر شأنه ، ويرى فيه فضلاً ومزية على ما قاله هو من قبل ، ثم هو لا ييأس من أن يقدر على مثله إذا هو جهد نفسه وتعمل له . فنحن نجعل لفظ القرآن ونظمه على هذا السبيل . ونقول : إنهم سمعوا منه ما يهزهم وعظم في نفوسهم ، ولكنهم على حال أنسوا من أنفسهم بأنهم يأتون بثله إذا هم اجتهدوا ، فحيل بينهم وبين ذلك الاجتهد ، وأخذوا عن طريقه ومنعوا فضل الله التي طمعوا بها في أن يجرروا إلى تلك الغاية . ويبلغوا ذلك المدى [الذى]^(١) أرادوا ، وإذا كنا نعلم أن الشاعر المفلق ربما اعتناص القول عليه حتى يعيها بقافية ، وحتى تنسد عليه المذاهب ، وأن الخطيب المصفع يرتج عليه حتى لا يوجد مقالا ، وحتى لا يفيض بكلمة ، لم يكن الذي قلناه وقدرناه بعيداً أن يكون وأن يسعه الجواز ويحتمله الإمكان ! . قيل لهم : إنكم الآن كأنكم

(١) هذه الكلمة ناقصة في الأصل .

أَرْدَتُمْ أَنْ تَحْسِنُوا أَمْرَكُمْ ، وَأَنْ تَغْطُوا عَلَى بَعْضِ الْعَوَارِ ، وَأَنْ تَتَمَلِّسُوا مِنْ الدِّيْرِ تُلْزِمُونَ ، وَلَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ كَبِيرٌ جَدِيدٌ إِذَا حَقَّ الْأَمْرُ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَدَاعٌ وَضَرَبٌ مِنَ التَّزْوِيقِ ؟ وَأَوْلَى مَا يَدْلِلُ عَلَى بَطْلَانِ مَا قَلَّمْتُ أَنَّ الدِّيْرَ عَرَفْنَا مِنْ حَالِ النَّاسِ فِيهَا سَبَبَيْلَهُ مَا ذَكَرْتُمُ التَّضْجُرَ وَالشَّكُورِ ، وَأَنْ يَقُولُوا : مَا لَنَا ، وَمَنْ أَيْنَ دَهِينَا ؟ وَكَيْفَ الصُّورَةُ ؟ إِنَّا وَإِنْ كُنَا نَسْمَعُ قَوْلًا لَهُ فَضْلٌ وَمَزِيْدٌ عَلَى مَا قَلَّنَا إِنَّهُ بِالدِّيْرِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْجِزَ عَنْهُ هَكُذا حَتَّى لَا نَسْتَطِيعَ فِي مَعَارِضِهِ مَا نَرْضِي ، فَلَا نَدْرِي أَسْحَرْنَا أَمْ مَاذَا كَانَ ؟ فِي أَنْ لَمْ يُرُو عَنْهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْجِنْسِ عَلَى وَجْهِهِ دَلِيلٌ أَنَّ لَا أَصْلَلُ لَمَا تَوَهَّمُوهُ ، وَأَنَّهُ تَلْفِيقٌ باطِلٌ . ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَذْعُنَ الرَّجُلُ لِخَصْمِهِ ، وَيَسْتَكِينَ لَهُ وَيَلْقَى بِيَدِهِ ، وَيَسْكُتُ عَلَى تَقْرِيْعِهِ لَهُ بِالْعَجْزِ وَتَرْدِيْدِهِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ . وَقَدْرُ مَا أَظْهَرَ مِنَ الْمَزِيْدِ قَدْرُ يَطْمَعُ الْإِنْسَانُ فِي مُثْلِهِ ، وَيَرَى أَنَّهُ يَنْالُهُ إِذَا هُوَ اجْتَهَدَ وَتَعْمَدَ ، بَلِ الْعَادَةُ فِي مُثْلِهِ أَنَّ يَدْفَعَ الْعَجْزَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَنَّ يَجْحَدَ الدِّيْرَ عَرْفَ لِصَاحِبِهِ مِنَ الْمَزِيْدِ وَيَتَشَدَّدَ ، كَمَا فَعَلَ حَسَانٌ ، فَيَدْعُ عَلَى مَسَاوَاتِهِ وَأَنَّهُ إِنْ كَانَ جَرِيَ إِلَى غَايَةِ رَأْيِ لَنْفَسِهِ بِهَا تَقدُّمًا إِنَّهُ لَيَجْرِي إِلَى مُثْلِهِ ، وَأَنْ يَقُولُ : لَا تَغْلُبْ ، وَلَا تَفْرَطْ وَلَا تَشْتَطِ فِي دُعَوَاتِكَ ، فَلَئِنْ كُنْتَ قدْ نَلَتْ بَعْضُ السَّبِقِ إِنَّكَ لَمْ تَبْعَدْ الْمَدِيْرَ بُعْدَ مَنْ لَا يَدْعُنِي وَلَا يَشْقِي غَبَارَهُ ، فَرَوِيْدًا وَاكْفَفُ مِنْ غَلَوَائِكَ .

وَاعْلَمُ أَنَّهُمْ بِتَمْحِلِهِمْ هَذَا قَدْ وَقَعُوا فِي أَمْرِ يُوهِي قَاعِدَتِهِمْ ، وَيَقْدِحُ فِي أَصْلِ مَقَالَتِهِمْ ، فَقَدْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ وَجْهٍ وَتَرَكُوا النَّظَرَ لَهَا مِنْ آخِرٍ . وَذَكَرَ أَنَّ مِنْ حَقِّ الْمَنْعِ إِذَا جَعَلَ آيَةً وَبِرْهَانًا وَلَا سِيَّما لِلنَّبُوَةِ أَنْ يَكُونَ فِي أَظْهَرِ الْأَمْرِ ، وَأَكْثَرُهَا وَجُودًا ، وَأَسْهَلُهَا عَلَى النَّاسِ ، وَأَخْلَقُهَا بِأَنْ تَبَيَّنَ لِكُلِّ رَاءٍ وَسَامِعٍ أَنَّ قَدْ كَانَ مَنْعًا ، لَا أَنْ يَكُونَ الْمَنْعُ مِنْ خَنْقَةٍ لَا يَعْرُفُ إِلَّا بِالنَّظَرِ وَإِلَّا يَبْعُدُ

الفكر ، ومن شيء لم يوجد قط . ولم يعهد ، وإنما يُظن ظنًا أنه يجوز أن يكون ، وأن له مدخلًا في الإمكان إذا اجتهد المجتهد . هل سمع قط . أن نبِيًّا أتى قومه فقال : حجتكم ، والآية في أنَّ نبِيًّا إِلَيْكُمْ أَنْ تُمْنِعُوا مِنْ أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ قَطْ ! وليس يظهر في بادئ الرأي وظاهر الأمر أنَّكُمْ تستطِيعونه ، ولكنه موهم جوازه منكم إذا أَنْتُمْ كددتم أنفسكم ، وجمعتم مالكم واستفرغتم مجاهدكم ، وعاودتم الاجتهاد فيه مرة بعد أخرى ؟ ! أم ذلك مالا يقوله عاقل ولا يقدم عليه إِلَّا مجادف لا يدرى ما يقول . !

وإذا كان كذلك ، وكان الذي قالوه من أنَّ المنع كان من نظم لم يوجد منهم قط ، إِلَّا أنَّهم أحسوا في أنفسهم أنَّهم يستطِيعونه إذا هم اجتهدوا واستفرغوا الوسع ، بهذه المنزلة ، ودخلوا في هذه القضية ، فقد بان أنَّهم بذلك قد أَوْهوا قاعديهم ، وقد حدوا في أصل المقالة من حيث جعلوا الآية والبرهان وعلم الرسالة والأمر العجز للخلق في المنع من شيء لم يوجد قط ، ولم يعلم أنه كان في حال من الأحوال ، وليس بأَكثَرِ من أنَّ ظنَّ ظنًا أنه مما يحتمله الجواز ، ويدخل في الإمكان إذا أَدْمَنَ الطلب ، وكثُرَ فيه التعب ، واستنزفت قوى الاجتهاد ، وأرسلت له الأفكار في كل طريق ، وحشدت إِلَيْه الخواطر من كل جهة . وكفى بهذا ضعف رأى ، وقلة تحصيل .

فصل

وهذا فصل أَخْتَمْ به .

ينبغي أن يقال لهم : ما هذا الذي أَخْذَتُمْ به أنفسكم ، وما هذا التأويل منكم في عجز العرب عن معارضة القرآن ؟ وما دعاكم إِلَيْه ؟ ،

وَمَا أَرْدَتُمْ مِنْهُ ؟ ، أَأَنْ يَكُونُ لَكُمْ قُولٌ يَحْكِي وَتَكُونُوا أُمّةٌ عَلَىٰ حَدَّةٍ أَمْ قَدْ
 أَتَاكُمْ فِي هَذَا الْبَابِ عِلْمٌ لَمْ يَأْتِ النَّاسَ ؟ ، فَإِنْ قَالُوا أَتَانَا فِيهِ عِلْمٌ ، قَيْلَ :
 أَفَمَنْ نَظَرَ إِلَيْكُمْ ذَلِكُ الْعِلْمُ أَمْ خَبْرٌ ؟ فَإِنْ قَالُوا : مِنْ نَظَرٍ ، قَيْلَ لَهُمْ : فَكَأَنَّكُمْ
 تَعْنُونَ أَنْكُمْ نَظَرْتُمْ فِي نُظُمِ الْقُرْآنِ ، وَنُظُمِ الْكَلَامِ الْعَرَبِ ، وَوَازْتُمْ فَوْجَدْتُمُوهُ لَا يَزِيدُ
 إِلَّا بِالْقَدْرِ الَّذِي لَوْ خَلُوْلُوا وَالْاجْتِهادُ وَإِعْمَالُ الْفَسْكُرِ ، وَلَمْ تَفْرُقْ عَنْهُمْ خَوَاطِرُهُمْ
 عِنْدَ الْقَصْدِ إِلَيْهِ ، وَالصَّمْدِ لَهُ ، لَأَتَوْ بِمُثْلِهِ ؟ فَإِنْ قَالُوا : كَذَلِكَ نَقُولُ ،
 قَيْلَ لَهُمْ : فَإِنَّمَا تَدْعُونَ الْآنَ أَنْ نَظَرْكُمْ فِي الْفَصَاحَةِ نَظَرًا لَا يَغْيِبُ عَنْهُ شَيْءٌ
 مِنْ أَمْرِهَا ، وَأَنْكُمْ قَدْ أَحْطَمْتُمْ عِلْمًا بِأَسْرَارِهَا وَأَصْبَحْتُمْ لَكُمْ فِيهَا فَهْمٌ وَعِلْمٌ
 لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ قَبْلَكُمْ . وَإِنْ قَالُوا : عَرَفْنَا ذَلِكَ بِخَبْرٍ ، قَيْلَ : فَهَاتُوا عَرْفُونَا
 ذَلِكَ ، وَأَنَّى لَهُمْ تَعرِيفٌ مَا لَمْ يَكُنْ وَتَشْبِيهٌ مَا لَمْ يَوْجُدْ ! . وَلَوْ كَانَ النَّاسُ
 إِذَا عَنَّ لَهُمُ الْقُولَ نَظَرُوا فِي مَؤْدَاهُ ، وَتَبَيَّنُوا عَاقِبَتِهِ ، وَتَذَكَّرُوا وَصِيَّةُ الْحُكْمَاءِ
 حِينَ نَهَوْا عَنِ الْوَرَودِ حَتَّى يُعْرَفَ الصَّدَرُ ، وَحَذَرُوا أَنْ تَجْعَلَهُ أَعْجَازَ الْأَمْوَارِ بِغَيْرِ
 مَا أَوْهَمَتِ الصَّدَورُ ، إِذَا لَكُفُوا الْبَلَاءَ ، وَلِعَدْمِهِ هَذَا وَأَشْبَاهُهُ مِنْ فَاسِدِ
 الْآرَاءِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي فِي طَبَاعِ الْإِنْسَانِ مِنَ التَّسْرُعِ ، ثُمَّ مِنْ حَسْنِ الظَّنِّ
 بِنَفْسِهِ ، وَالشَّغْفُ بِأَنْ يَكُونَ مُتَبَوِّعًا فِي رَأْيِهِ ، إِلَّا أَنْ يَخْدُعَهُ وَيَنْسِيهِ أَنَّهُ مُوصَى
 بِذَلِكَ ، وَمَدْعُوٌ إِلَيْهِ ، وَمَحْذَرٌ مِنْ سُوءِ الْمُغْبَةِ إِذَا هُوَ تَرَكَهُ وَقَصَرَ فِيهِ ، وَهِيَ الْآفَةُ
 لَا يَسْلِمُ مِنْهَا ، وَمِنْ جَنَاحِهِ إِلَّا مِنْ عَصْمِ اللَّهِ . وَإِلَيْهِ عَزَّ اسْمُهُ الرَّغْبَةُ فِي أَنْ
 يُوفِقَ لِلَّتِي هِيَ أَهْدِيَ ، وَيَعْصِمَ مِنْ كُلِّ مَا يَوْتَغُ^(١) الدِّينَ وَيُثْلِمَ الْيَقِينَ . إِنَّهُ وَلِ
 ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ .

(١) أَيْ يَفْسُدُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول من قال : [إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَقْدِرَ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ مِنْ بَعْدِ انْقِضَاءِ

زَمْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُضِيِّ وَقْتٍ تَحْدِي عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يَشْبِهُ

الْقُرْآنَ وَيَكُونُ مِثْلَهُ ، إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَا يَخْرُجُ عَنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانَ مَعْجِزاً

فِي زَمْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَحِينَ تَحْدِي الْعَرَبَ إِلَيْهِ] قَوْلٌ لَا يَصْحُ

إِلَّا لَمْ يَجْعَلْ الْقُرْآنَ مَعْجِزاً فِي نَفْسِهِ ، وَيَذْهَبُ فِيهِ إِلَى الصِّرَافَةِ .

فَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَنَّهُ مَعْجِزٌ فِي نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ فِي نَظْمَهُ وَتَأْلِيفِهِ
عَلَى وَصْفٍ لَا يَهْتَدِي الْخَلْقَ إِلَى الإِتْبَانِ بِكَلَامٍ هُوَ فِي نَظْمَهُ وَتَأْلِيفِهِ عَلَى ذَلِكَ
الْوَصْفِ ، فَلَا يَصْحُّ أَبْيَاتُهُ ، ذَاكَ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْفَعْلُ مَعْجِزاً فِي جَنْسِهِ
كَإِحْيَاِ الْمَوْتَى ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَعْجِزاً لِوَقْوَعِهِ عَلَى وَصْفٍ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ
فَكَمَا أَنَّهُ مِحَالٌ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا إِحْيَا مَيْتَ لَا مِنْ فَعْلِ اللَّهِ ، كَذَلِكَ مِحَالٌ
أَنْ يَكُونَ هَا هَنَا نَظْمٌ مُثْلِ نَظْمِ الْقُرْآنِ لَا مِنْ فَعْلِهِ تَعَالَى ، فَهَذَا هُوَ .

شِمْ إِنَّهُ قَوْلٌ إِذَا نُقْرِئُ عَنْهُ انْكِشَافَ عَنْ أَمْرٍ مُنْكَرٍ ، وَهُوَ إِخْرَاجٌ أَنْ
يَكُونَ وَحِيًّا مِنَ اللَّهِ وَأَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَلَقَاهُ عَنْ جَبَرِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْذَّهَابُ إِلَى أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِلَهَامِ ، وَكَالشَّيْءِ
يَلْقَى فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، وَيُهُدَى لَهُ مِنْ طَرِيقِ الْخَاطِرِ وَالْهَاجِسِ الَّذِي
يَهْجُسُ فِي الْقَلْبِ . وَذَلِكَ مَا يَسْتَعْذِذُ بِاللَّهِ مِنْهُ ، إِنَّهُ تَطْرُقُ لِلْإِلْحَادِ وَاللَّهُ
وَلِالْعَصْمَةِ وَالتَّوْفِيقِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل

اعلم أن البلاء والداء العياء أن ليس علم الفصاحة ، وتمييز بعض الكلام من بعض بالذى تستطيع أن تفهمه من شئت ، ومتى شئت بيان لست تملك من أمرك شيئاً حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته فيرى ، وقلب إذا أريته رأى ، فاما وصاحبك من لا يرى ما تريه ، ولا يهتدى للذى تهديه ، فأنت معه كالنافح في الفحم من غير نار ، وكالمتمس الشم من أخشم ، وكما لا يقيم الشعرف نفس من لا ذوق له ، وكذلك لا يفهم هذا الباب من لم يؤت الآلة التي بها يفهم إلا أنه إنما يكون البلاء إذا ظن العادم لها أنه قد أؤتيها ، وأنه من يكمل للحكم ويصبح منه القضاء ، فجعل يخبط . ويقول القول لو علم عيه لاستحيا منه .

وَأَمَّا الَّذِي يَحْسُن تَأْلِيفَهُ فِي نَفْسِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ عَدَمَ عِلْمًا قَدْ أُوتِيَهُ مِنْ
سَوَاهُ، فَأَنْتَ مِنْهُ فِي رَاحَةِ ذِكْرِهِ، وَهُوَ رَجُلٌ عَاقِلٌ، حَمَاهُ عَقْلُهُ أَنْ يَعْلُمُ طُورَهُ،
وَأَنْ يَتَكَلَّفَ مَا لَيْسَ بِأَهْلِ لَهُ .

وإذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس في العلم بها ، واتفقوا على أن البناء عليها ، والرد إليها إذا أخطأ فيها المخطئ ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه ، وصرفه عن الرأي الذي رأى إلا بعد الجهد ، وإلا بعد أن يكون حصيفاً عاقلاً ثبتاً إذا نبه انتبه ، وإذا قيل إن عليك بقية من النظر وقف وأصغي ، وخشي أن يكون قد غر فاحتاط.

باستناع ما يقال له ، وَأَنْفَ من أَنْ يلْجَ من غَيْرِ بَيْنَةٍ ، ويُسْتَطِيلُ بِغَيْرِ حَجَّةٍ . وَكَانَ مِنْ هَذَا وَصْفَهُ يَعْزُ ، وَيَقُولُ فَكِيفَ بَأَنْ يَرِدُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِمْ فِي أَمْرِ الْفَصْحَاحَةِ ، وَأَصْلَكَ الَّذِي تَرَدُّهُمْ إِلَيْهِ ، وَتَعْوَلُ فِي مَحاجِتِهِمْ عَلَيْهِ ، اسْتَشْهَادُ الْقُرْآنَ ، وَسَبْرُ النُّفُوسِ وَفَلَيْهَا ، وَمَا يُعْرَضُ فِيهَا مِنَ الْأَدْعَيْةِ عَنْدَمَا تَسْمَعُ وَهُمْ لَا يُضْعُونُ أَنفُسَهُمْ مَوْضِعًا مِنْ يَرِي الرَّأْيَ وَيَفْتَنُ ، وَيَقْضِي إِلَّا وَعَنْهُمْ أَنْهُمْ مِنْ صَفَتِ قَرِيبَتِهِ وَصَحْ ذُوقَهِ وَقَتَ أَدَاتِهِ . فَإِذَا لَمْتُ لَهُمْ : إِنْكُمْ أَتَيْتُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ وَمِنْ أَنْكُمْ لَا تَفْطَنُونَ ، رَدُوا مَثْلَهُ عَلَيْكَ ، وَعَابُوكَ وَوَقَعُوكَ فِيَكَ وَقَالُوكَ : لَا ، بَلْ قَرَائِحُنَا أَصْحَّ ، وَنَظَرُنَا أَصْدَقُ ، وَجِئْنَا أَذْكَرِي وَإِنَّمَا الْآفَةَ فِيَكُمْ ، فَإِنْكُمْ جَعَلْتُمْ فِيَخِلْتُمْ إِلَى أَنفُسِكُمْ أُمُورًا لَا حَاصِلَ لَهَا ، وَأَوْهَمْتُمُ الْهَوَى وَالْمَيْلَ أَنْ تَوْجِبُوا لِأَحَدِ النَّظَمِينِ التَّسَاوِيَيْنِ فَضْلًا عَنِ الْآخَرِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ ذَلِكُ الْفَضْلُ ، فَبَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ حَيْثُ^(١) لَا يَمْلِكُ غَيْرُ التَّعْجِبِ .

فَلَيْسَ الْكَلَامُ إِذَا بَعْنَ عنكَ ، وَلَا القَوْلُ بِنَافِعٍ ، وَلَا الْحَجَّةُ مَسْمُوعَةٌ حَتَّى تَجِدَ مَنْ فِيهِ عَوْنَ لَكَ ، وَمَنْ إِذَا أَبَى عَلَيْكَ أَبَى ذَاكَ طَبَعَهُ فَرَدُّهُ إِلَيْكَ ، وَفَتَحَ سَمْعَهُ لَكَ ، وَرَفَعَ الْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ ، وَأَخْذَ بَهِ إِلَى حَيْثُ أَنْتَ ، وَصَرَفَ نَاظِرَهُ إِلَى الْجَهَةِ الَّتِي إِلَيْهَا أَوْمَأْتَ ، فَاسْتَبَدَّ بِالنَّفَارِ أَنْسًا ، وَأَرَاكَ مِنْ بَعْدِ الْإِبَاءِ قَبُولاً ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

(١) هذه اللفظة غير ظاهرة في الأصل .

تعليقات وإضافات

- (أ) تطور اصطلاحات البلاغة إلى القرن الرابع الهجري.
- (ب) تعليقات من جاءوا بعد الرمانى على آرائه في النكت.
- (ج) تلخيص فكرة عبد القاهر في الإعجاز من كتاب (دلائل الإعجاز).

١- تطور اصطلاحات البلاغة

إلى القرن الرابع الهجري

منذ بدأ العلماء يتناولون بالدرس أسلوب القرآن ، ويتعرضون لنواحي الإعجاز البلاغي فيه ، أخذت تلك الدراسات تتطور وتنتج للنقد الأدبي والبلاغة الشيء الكثير. والمتبوع للدراسات القرآنية والبلاغة منذ أوائل القرن الثالث الهجري إلى القرن الخامس يرى أنها قد تطورت ، فأخذت الفنون والاصطلاحات البلاغية تظهر وتسجل جوانب الجمال في الأسلوب ، وتداخلت الدراسات وامتزجت ، فكانت دراسة أسلوب القرآن تعتمد على البلاغة وكانت البلاغة تعمد إلى الشاهد القرآني ، لاستعين به في توضيح الاصطلاحات ، وتشبيتها في الذهن ، إلى جانب الشواهد الشعرية والأدبية الأخرى .

وجدير بالإشارة أن الاصطلاحات البلاغية منذ نشأتها الأولى كانت مختلطة غير مستقرة أو محدودة ، فكان « المجاز » مثلا في أوائل القرن الثالث يعني التوسيع في الاستعمال ، أو الترخيص في التعبير بصفة عامة ، فيجمع بذلك كل ما يمكن أن ينطوي تحت هذا المعنى في اللغة والنحو والبلاغة.

وأخذت الاصطلاحات البلاغية الأخرى تظهر وتسجل في بحوث علماء القرآن والبيان ، وكان أولها شيئاً عندهم الاستعارة والتشبيه ، والإيجاز والتكرار ، والسجع ، والتجنيس ، والكنایة والتعریض والبالغة . وقد تعرض أبو عبيدة والفراء لبعض هذه الفنون في أسلوب القرآن في كتابيهما « مجاز القرآن » و « معانى القرآن »^(١) ؛ كما تعرض الجاحظ . لكثير منها في « البيان

(١) الكتاب الأول منه مخطوط بدار الكتب ومصور بمكتبة جامعة القاهرة، وفيلم بمعهد المخطوطات، والثاني منه قطعة بدار الكتب مخطوطة وقطعة أخرى باستانبول ومصورة بمعهد المخطوطات العربية . وقد طبع الكتابان بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب . ثلات رسائل في إعجاز القرآن

والتبين» ، و «الحيوان» ، عندما تعرض لنصوص من القرآن والشعر وكلام العرب وخطبهم .

وبمراجعة ما كتب الجاحظ نلاحظ أنه سجل من الاصطلاحات السابقة : المجاز عامة ، والاستعارة ، والتشبيه ، والإيجاز ، والسجع ، والتلاؤم ويسميه القرآن ، ثم ضده وهو التنافر .

والمجاز عنده «استعمال اللفظ في غير حقيقته توسيعاً من أهل اللغة» ، والاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه ، والإيجاز عنده الاختصار بنوعيه : الحذف والقصر ، فيسميه الإيجاز والقصر ، والسجع عنده لون من ألوان التعبير الجميل ، وعمل كراهة الناس له بأنه كان أسلوب الكهان عند العرب القدماء ولغة وذريتهم ، يحاولون به تضليل الناس والتأثير عليهم .

يقول :

« وكان الذي كره الأَسْجَاعَ بعينها - وإن كانت دون الشعر في التكليف والصنعة - أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، كانوا يتتكلفون ويحِّكمون الأَسْجَاعَ . قالوا : فوق النهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيها وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحرير^(١) » .

وناقش الجاحظ ظاهرة التلاؤم والتنافر في الألفاظ في صورة قريبة مما أورده الرمانى في النكت .

وقد شارك أصحاب البديع والأدباء من بعد في وضع هذه المصطلحات البلاغية ودراستها ، ومن هؤلاء المبرد ، وثعلب ، وابن المعز . وقد بلغت هذه

(١) (البيان / ١١٣) .

المصطلحات عند ابن المعتز في كتاب «البديع» خمسة ، هي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعيجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي . وأضاف إليها أقساماً أخرى يحسن بها الكلام هي :

الاعتراض والإعنات ، والإفراط. في الصفة ، والالتفات ، وتأكيد ، المدح بما يشبه النم ، والتعریض ، وحسن الابتداء ، والتضمين ، وحسن الخروج ، وتجاهل العارف ، والمرسل ، والهزل الذي يراد به الجد ، والكناية والتعقید .

وهكذا يمكن أن يقال إن أبواب البديع أو البلاغة العشرة التي ذكرها الرمانى في كتابه كانت خلاصة ما نجم من ضروب البديع والبلاغة عند سابقيه ومعاصريه ، وقد أغفل بعض ما عرفناه عند ابن المعتز وقادمة – مثلاً – كالالتفات ومجاورة الأصداد . . على حين خالف في التسمية كما فعل فيما سماه قدامة معاظلة ، وسماه هو المتنافر . . إلخ .

وتفرعت أبواب البلاغة بعد الرمانى ومعاصريه ، فقد بلغت عند أبي هلال العسكري ٣٧ نوعاً . ومما يلاحظ في تبويبه التفريع من الفن الواحد : كأن يفرع من المبالغة الإيغال والغلو ، ويجعل من الكناية والتعریض بابين منفصلين . . إلخ .

وأغرق المتأخرون من البلاغيين في هذه الأسماء والفروع ، ففي القرن السادس نجد أساميَّة بن منقد يجعل من أبواب البديع ٩٠ باباً ، ويجعل منها ابن أبي الأصبع المصري – في القرن السابع ١٣٠ باباً .

وهكذا انتهت دراسات الفنون الجمالية في الأسلوب إلى محاولات لتصنيف أبواب ومصطلحات ، واحتراز أسماء لمسميات قد لا يوجد من الشواهد ما ينهض بها ، بل قد نرى أحدهم يكتفى بشاهد أو شاهدين على ما يقول . ولو فتشنا عن غيرهما لبلغ بنا العجب . دون أن نصل إلى ضالتنا .

(ب) تعلیقات من جاءوا بعد الرمانی

على آرائه البلاغية واقتباسهم من تلك الآراء

تبعد أهمية كتابات الرمانی في المكان الذي تشغله آراؤه في تأليف من جاءوا بعده ، فالكثيرون منهم ينقلون عنه بتطويل أو اختصار - دون ذكر اسمه أحياناً وربما ناقشوا منزعه في الإعجاز بوجه عام ، أو تعقبوه في أبواب البلاغة ، موافقين أو مخالفين ؛ ولعل أبرزهم في ذلك القاضي أبو بكر البلاقلاني (المتوفى عام ٤٠٣) ، وابن سنان الخفاجي (المتوفى عام ٤٦٦) .

فاما البلاقلاني فمن أعلام المؤلفين في إعجاز القرآن ، وكتابه في هذا يعتبر عمدة الباحثين في الموضوع .

وهو^(١) يورد في كتابه أبواب البديع التي عرفها النقد الأدبي إلى عصره ، ويعدد في آخر الكتاب فصلاً في وصف وجوه البلاغة يقول فيه :

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام :

الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفوائل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالجة ، وحسن البيان . . . » .

وبعد أن يورد هذه الأبواب بما يكاد أن يكون اختصاراً لكلام الرمانی فيها يعقب على كل ذلك بقوله :

« كنا حكينا^(٢) أن من الناس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب ، مما مضت

(١) ص ٢٠٢ من طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ .

(٢) ص ٢٠٧ وما بعدها .

أمثاله في الشعر . ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التي عدناها في هذا الفصل . واعلم أن الذي بينما قبل هذا وذهبنا إليه هو سديد ، وهو أن هذه الأمور تنقسم : فمنها ما يمكن الوقع عليه والتعامل له ويدرك بالتعلم ، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به . وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعامل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على إعجازه . . . ثم يضرب لذلك أمثلة موضحة يختتمها بقوله : « فإن كان إنما يعني هذا القائل أنه إذا أتي في كل معنى يتافق في كلامه بالطبيقة العالية ، ثم كان ما يصل به كلامه ببعضه ببعض ، وينتهي منه إلى متصرفاته على أتم البلاغة ، وأبعد البراعة ، فهذا مما لا نبأ به بل نقول به . وإنما ننكر أن يقول قائل إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز ، من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام ويفضي إليه ، مثل ما يقول ، إن ما أقسام به وحده معجز ، وإن التشبيه معجز ، وإن التجنيس معجز ، والمطابقة بنفسها معجزة .

فاما الآية التي فيها ذكر التشبيه فإن ادعى إعجازها للفاظها ونظمها ، وتأليفها ، فإني لا أدفع ذلك وأصححه ، ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه . وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك إلى موضع التشبيه وما قرن به من الوجه .

ومن تلك الوجوه ما قد بينما أن الإعجاز يتعلق به كالبيان ، وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس ، ولذلك قال : ﴿هذا بيان للناس﴾^(١) ، وقال : ﴿بلسانٍ عربيٍ مُبِين﴾^(٢) فكرر في مواضع ذكره أنه مبين ، فالقرآن

(١) [آل عمران / ٣٨] .

(٢) [الشعراء / ٢٦] .

أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ماجمع وجوه المحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه . من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع ، وسهولته على اللسان ، ووقعه في النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهد ، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف ، مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناه ورفة . وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الواقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، ويطمع ويؤيس ، ويضحك ويبكي ، ويحزن ويفرح ، ويسكن ويزعج ، ويشجي ويطرب ، ويهز الأعطااف ، ويستحيل نحوه الأسماع ، ويورث الأريحية والعزة ، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً ، ويرمى السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً ، وله مسائل في النفوس ^{اللطيفة} ، ومداخل إلى القلوب دقيقة ، وبحسب ما يترتب في نظمه ، ويتنزل في موقعه ، ويجرى على سمت مطلعه ومقطعه ، يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته ^(١) .

وأما المؤلفون الآخرون في موقفهم من الرماني فسنورد فيما يلى أهم تعقيباتهم ومناقشاتهم ، مرتبة حسب الأبواب البلاغية التي ذكرها الرماني .

١ - في البلاغة :

قال ابن رشيق (العملة ١٦٢ / ١) ، قال أبو الحسن علي بن عيسى الرماني : أصل البلاغة الطبع ^(٢) ، ولها مع ذلك آلات تعين عليها ، وتوصل للقوة فيها ، وتكون لها ميزاناً وفاصلة بينها وبين غيرها . وهي ثمانية

(١) إعجاز القرآن ط السلفية ١٣٤٩ ص ٢٠٩ .

(٢) ينقل ابن رشيق عن الرماني في غير موضع من كتابه ، ويبدو أن بعض هذا النقل من كتب أخرى للرماني غير النكث .

أضرب^(١) : الإِيْجَاز ، والاسْتِعْرَاف ، والتَّشْبِيه ، والبَيَان ، والنَّظَم ، والتصْرِف
والمُشَكَّلة ، والمَثَل .

٢ – الإِيْجَاز :

(١) قال ابن رشيق (العدة ١٦٧/١) : الإِيْجَاز عند الرمانى على ضربين :
مطابق لفظه معناه لا يزيد عليه ولا ينقص عنه كقولك : مل أهل القرية ، ومنه ما فيه حذف للاستغناء عنه في ذلك الموضع ، كقول الله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾^(٢) . وعبر عن الإِيْجَاز بـأن قال : هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف . ونعم ما قال ، إلا أن هذا الباب متسع جداً ، ولكل نوع منه تسمية سماها أهل هذه الصناعة . فاما الضرب الأول مما ذكره أبو الحسن فهم يسمونه المساواة . ومن بعض ما أنشدوا في ذلك قول الشاعر :

يَا أَيُّهَا الْمُتَّحَلِّي غَيْرِ شَيْمِتَهِ إِنَّ التَّخْلُقَ يَأْتِي دُونَهِ الْخُلُقُ
وَلَا يُؤْتِيكَ فِيمَا نَابَ مِنْ حَدِيثٍ إِلَّا أَخْوُ ثِقَةٍ فَانْظُرْ بِمَنْ تَشَقُّ

والضرب الثاني مما ذكره الرمانى – وهو قول الله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ يَسْمُونَهُ الْأَكْتِفَاءَ ، وَهُوَ دَارِخٌ فِي بَابِ الْمَجَاز ، وَفِي الشِّعْرِ الْقَدِيمِ
وَالْمَحْدُثِ مِنْهُ كَثِيرٌ ، يَحْذِفُونَ بَعْضَ الْكَلَامِ لِدَلَالَةِ الْبَاقِي عَلَى الْمُذَاهِبِ .
مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرْتَ بِهِ الْجَيَالُ أَوْ قُطِّعَتْ
بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾^(٢) كأنه قال : لكان هذا القرآن . . .

(١) [يوسف ٨٢/١٢] .

(٢) هي عند الرمانى عشرة أضرب كما سبق .

(٣) [الرعد ٢١/١٣] .

ومثله قولهم : لو رأيت علياً بين الصفين ! أى لرأيت أمراً عظيماً . وإنما كان هذا من أنواع البلاغة ، لأن نفس السامع تتسع في الظن والحسبان وكل معلوم فهو هين لكونه محصوراً .

(ب) وقال ابن سنان (سر الفصاحة ١٩٩) : وما قصد به الإيجاز حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، بحيث يقع العلم ويزول اللبس كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاسْأَلُ الْقَرِيرَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ والمعنى أهل القرية وأصحاب العير . وكان أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى يسمى هذا الجنس - وهو إسقاط الكلمة لدلالة فحوى الكلام عليها - الحذف . ويسمى بنية الكلام على تقليل اللفظ وتکثیر المعنى من غير حذف القصر ، و يجعل الإيجاز على ضربين : القصر والحدف .

وكان يسمى العبارة عن المعنى بالكلام الكثير - مع أن القليل يكفي فيه - « التطويل » ، ويسمى العبارة عن المعنى بالكلام الكثير الذي يستفاد منه إيضاح ذلك المعنى وتفصيله « الإطناب » . و يجعل التطويل عيباً وعيها ، والإطناب حسناً ومحموداً .

وهذا المذهب من أبي الحسن موافق لما اخترناه . لأنه يذهب إلى حسن الإطناب الذي هو عنده طول الكلام في فائدة وبيان ، وإخراج المعنى في معارض مختلفة ، وتفصيل له ليتحققه السامع ويستقر عنده فهمه . هذا هو الذي اخترناه وقلنا إنه على التحقيق ألفاظ كثيرة ومعان كثيرة ، وكذلك قد وافقناه في استقباح التطويل وحمد الإيجاز - على مافسره من معنييهما عنده .

ويجب أن يحد الإيجاز المحمود بأن نقول : هو إيضاح المعنى بأقل

ما يمكن من اللفظ ، وهذا الحد أصح من حد أبي الحسن الرمانى بأنه العبارة عن المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ ، وإنما كان حدنا أولى لأننا قد احترزنا بقولنا : إيضاح ، من أن تكون العبارة عن المعنى – وإن كانت موجزة – غير موضحة له ، حتى يختلف الناس في فهمه فيسبق إلى قوم دون قوم ، بحسب أقسامهم من الذهن وصحة التصور ، فإن ذلك وإن كان يستحق لفظ الإيجاز والاختصار فليس بمحمود حتى تكون دلالة ذلك اللفظ على المعنى دلالة واضحة .

وقد قدمنا ما ورد في القرآن من أمثلة ذلك ، وإن كانت كثيرة يطول استقصاؤها .

٣ – شواهد الإيجاز :

(١) قال أبو هلال : فالقصر تقليل الألفاظ. وتكبير المعانى ، وهو قول الله عز وجل ﴿ولكم في القصاص حياة﴾^(١) ، ويبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه وهو قولهم : القتل أدنى للقتل ، فصار لفظ القرآن فوق هذا القول ، لزيادته عليه في الفائدة وهو إبانة العدل ، لذكر القصاص ، وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه ، لذكر الحياة واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به ، ولا يجازه في العبارة ، فإن الذي هو نظير قولهم : القتل أدنى للقتل ، إنما هو « الحياة قصاص » وهذا أقل حروفاً من ذاك ، ولبعده عن الكلفة بالتكرير وهو قولهم : القتل أدنى للقتل ، ولفظ القرآن بريء من ذلك ،

(١) [البقرة ١٧٩/٢]

وبحسن التأليف وشدة التلاوؤم المدرك بالحس، لأن الخروج من الفاء
إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة.

(ب) وقال ابن سنان [سر الفصاحة ١٩٧ - ١٩٨] : ومن أمثلة الإيجاز
والاختصار قول الله تبارك وتعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ لأن
هذه الألفاظ على إيجازها قد عبر بها عن معنى كثير ، وذلك أن المراد
بها أن الإنسان إذا علم أنه متى قُتل قُتل كان ذلك داعياً له قويًا إلى أن
لا يقدم على القتل ، فارتفاع - بالقتل الذي هو قصاص - كثير من
قتل الناس بعضهم البعض ، فكان ارتفاع القتل حياة لهم ، وهذا
معنى إذا عبر عنه بهذه الألفاظ اليسيرة في قوله تعالى : ﴿ولكم
في القصاص حياة﴾ كان ذلك من أعلى طبقات الإيجاز .

وقد استحسن أيضًا في هذا المعنى قولهم : القتل أَنْفُل للقتل . وبينه
وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة ، وذلك من وجوه :

أحدها : أنه ليس كل قتل ينفي القتل ، وإنما القتل الذي ينفيه
ما كان على وجه القصاص والعدل ، ففي ذكر القصاص بيان للمعنى
وكشف للغرض .

وثانيها : أن قوله تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ مع إبارة الغرض
المرغوب فيه بذكر الحياة ما ليس في قوله : القتل أَنْفُل للقتل .
وهذه زيادة في الإيضاح .

وثالثها : أن نظير قوله القتل أَنْفُل للقتل : « القصاص حياة » ، والقصاص
حياة ، أو جز لأنه عشرة أحرف ، والقتل أَنْفُل للقتل أربعة عشر حرفاً .
ورابعها : أن في - القتل أَنْفُل للقتل - تكريراً ، وليس في - القصاص

حياة - تكرير ، وقدمنا أن تكرير الحروف عيب في الكلام ، على ما ذكرناه فيما مضى من هذا الكلام .

٤ - التشبيه :

(١) قال أبو هلال : والتشبيه على ثلاثة أوجه ، فواحد منها تشبيه شيئاً متفقين من جهة اللون مثل تشبيه الليلة بالليلة ، والماء بالماء ، والغراب بالغراب ، والحرقة بالحرقة .

والآخر تشبيه شيئاً متفقين تعرف اتفاقهما بدليل ، كتشبيه الجوهر بالجوهر ، والسوداد بالسوداد .

والثالث تشبيه شيئاً مختلفين لمعنى يجمعهما ، كتشبيه البيان بالسحر ، والمعنى الذي يجمعهما لطافة التدبير ودقة المسلك ؛ وتشبيه الشدة بالموت ، والمعنى الذي يجمعهما كراهية الحال وصعوبة الأمر .

وأجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه ،

أحدها ، إخراج مالاً تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وهو قول الله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسْرَابٌ يَقْبِعُهُ يَحْسِبُهُ الظَّمَآنُ مَاء﴾^(١) فآخر مالاً يحس إلى ما يحس ، والمعنى الذي يجمعهما بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قال : يحسبه الرائي ماء لم يقع موقع قوله الظمان ، لأن الظمان أشد فاقة إليه وأعظم حرصاً عليه . وهكذا قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدَّ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾^(٢) والمعنى الجامع

(١) [النور/٢٤] . (٢) [إبراهيم/١٨/٢٩] .

بينهما بعد التلاقي وعدم الانتفاع . وكذلك قوله عز وجل ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرْكِهِ يَلْهَثْ ﴾^(١) أخرج مala تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه من لهث الكلب ، والمعنى أن الكلب لا يطيعك في ترك اللهث على حال ، وكذلك الكافر لا يجيبك إلى الإيمان في رفق ولا عنف ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسِطٌ كَفِيهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغٍ ﴾ والمعنى الذي يجمع بينهما الحاجة إلى المنفعة ، والحسنة لما يفوت من درك الحاجة .

والوجه الآخر إخراج مالم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقَنَا الْجَبَلَ فَوَقَهُمْ كَانَهُ ظُلْلَةً ﴾^(٢) . والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الارتفاع بالصورة . ومن هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ . . إلى قوله ﴿ كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴾^(٣) وهو بيان آخر لخرج ما جرت به العادة إلى مالم تجر به . والمعنى الذي يجمع الأمرين الزينة والبهجة ، ثم الهلاك ، وفيه العبرة لمن اعتبر ، والمعوظة لمن تذكر ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرِصِرًا فِي يَوْمٍ تَحْسُنُ مُسْتَمِرٌ تَنْزَعُ النَّاسُ كَانُوكُمْ أَعْجَازٌ نَخْلُ مُنْقَعِرٍ ﴾^(٤) فاجتمع الأمران في قلع الريح لهما واهلا كهما ، والتلخوف من تعجيل العقوبة ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالْدَهَانِ ﴾^(٥) والجامع للمعنىين الحمرة ولين الجوهر ، وفيه الدلالة على عظم الشأن

(١) [الأعراف/٧/١٧٦].

(٢) [الأعراف/٧/١٧١].

(٣) [يونس/١٠/٢٤].

(٤) [القمر/٥٤/٢٠].

(٥) [الرحمن/٥٥/٣٧].

ونفوذ السلطان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ كُلُّهُ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾^(١) ، والجامع بين الأمرين الإعجاز ثم سرعة الانقلاب ، وفيه الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها .

والوجه الثالث : إخراج مالا يعرف بالبداهة إلى ما يعرف بها ، فمن هذا قوله عز وجل : ﴿ وَجَنَّةٌ عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾^(٢) قد خرج مالا يعلم بالبداهة إلى ما يعلم بها ، والجامع بين الأمرين العظيم .

والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصفة ؛ ومثله قوله سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾^(٣) والجامع بين الأمرين الجهل بالمحمول ، ولفائدة فيه الترغيب في تحفظ العلوم وترك الاتكال على الرواية دون الدراءة . ومنه قوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةً ﴾^(٤) ، والجامع بين الأمرين خلو الأجساد من الأرواح .

والفائدة الحث على احتقار ما يقول به الحال إليه ، وهذا قوله سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾^(٥) فالجامع بين الأمرين ضعف المعتمد ، ولفائدة التحذير من حمل النفس على التقرير بالعمل على غير أنس .

والوجه الرابع إخراج مالا قوة له في الصفة على ماله قوة فيها ، كقوله عز وجل : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾^(٦) والجامع بين الأمرين العظيم ، ولفائدة البيان عن القدرة في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء . وعلى هذا الوجه يجري أكثر تشبيهات القرآن ، وهي الغاية في الجودة والنهاية في الحسن .

(١) [ال الحديد / ٥٧ / ٢٠] . (٢) [آل عمران / ٣ / ١٣٣] .

(٣) [الجمعة / ٥ / ٦٢] . (٤) [الحاقة / ٧ / ٦٩] .

(٥) [الرحمن / ٤١ / ٢٩] . (٦) [العنكبوت / ٥٥ / ٢٤] .

(ب) قال ابن أبي الإصبع (بدائع القرآن ١٩ ب)

« باب التشبيه : حد التشبيه البليغ الصناعي لإخراج الأَغمض إلى الأَظهر بالتشبيه مع حسن التأليف ، وقوع حسن البيان فيه على وجوه منها : إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَقِيْعَةٌ يَحْسِبُهُ الظَّمَآنُ ماءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾^(١) فهذا بيان لإخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، وقد اجتمعا في بطلان التوهم مع شدة الحاجة ، ولو قيل يحسبه الرائي ماء لكان بليغا ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمان أشد حرصاً عليه وأكثر تعلق قلب به ، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من أحسن التشبيه وأبلغه ، فكيف وقد تضمن مع ذلك حسن النظم وعدوبية الألفاظ وصحة الدلالة وصدق التمثيل . ومنها إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا نَتَّقَنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلْلَةٌ﴾^(٢) وهذا بيان لإخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة . ومنها إخراج ما لا يعلم بالبليهة كقوله - سبحانه - ﴿وَجَنَّةٌ عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وهذا بيان لإخراج ما لا يعلم بالبليهة إلى ما يعلم بالبليهة ، وقد اجتمعا في العظم ، وحصل من ذلك الوصف التشويق إلى الجنة بحسن الصفة وإفراط السعة . ومنها إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ماله قوة في الصفة كقوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾^(٣) وهذا بيان

(١) [النور ٢٤ / ٣٩].

(٢) [الأعراف ٦ / ١٧١].

(٣) [الرحمن ٥٥ / ٢٤].

إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة ، وقد اجتمعا في العظم ، إلا أن الجبال أعظم ، ولهذا جاءت مشبهاً بها ، وفي ذلك العبرة من جهة قدرة من سخر الفلك الجارية على الماء مع عظمها . والعظة بما^(١) في ذلك من انتفاع الخلق بحمل الأثقال وقطعها الأقطار البعيدة في المسافة القريبة ، وما يلزمه ذلك من تسخير الرياح للإنسان ، فتضمن الكلام فناً عظيماً من الفخر وتعدد النعم على العباد . ومنها إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار كقوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَاءَ الْحَاجَّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٢) وهذا إنكار على من جعل حرمة الجماد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر ، وفي ذلك أوفي دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لا يساوى به مخلوق ليس على صفتة بالقياس .

٥ — الاستعارة :

(أ) قال صاحب العمدة (١٨٢/١) : قال أبو الحسن الرمانى : الاستعارة استعمال العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة ، وذكر قول الحجاج : « إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها . . . » .

(ب) وقال ابن سنان (سر الفصاحة ١١٠) « ومن وضع الألفاظ . غير موضعها حسن الاستعارة ، وقد حدثها أبو الحسن على بن عيسى الرمانى فقال : هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة . وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة لأن الاشتعال للنار ، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب ، فلما

(١) عبارة الأصل غامضة ورسمها « ولفظة وما » والسياق يقتضي ما أثبتناه .

(٢) [التوبية ١٩/٩] .

نقل إلية بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه ، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول ، كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسري حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة ؛ فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الموضع للبيان ، ولابد من أن تكون أوضاع من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها ، لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنها الأصل والاستعارة الفرع ، وليس يخفي على التأمل أن قوله عز اسمه : ﴿ وَشَتَّلَ الرَّأْسَ شَبِيَّاً ﴾ أبلغ من كثرب شيب الرأس ، وهو حقيقة هذا المعنى .

وقول أمير القيس « قيد الأوابد » أبلغ من مانع الأوابد عن جريها ، والأصل في ذلك ما أفاده التشبيه في الاستعارة من البيان . فإن قال قائل : فما الفرق بين الاستعارة والتشبيه إذا كان الأمر على ما ذكرتم ؟ قيل : الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن ، وهو أن التشبيه [على] أصله لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له في أصل اللغة ، على أن الرمانى قال في كلامه إن التشبيه في الكلام باداة التشبيه فقط ، وإن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ . الموضوعة له ويكون حسناً مختاراً ، ولا يعده أحد في جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه .

ومن هذا قول الشاعر :

سَفَرْنَ بُدُورًا وَانْتَقَبْنَ أَهِلَّةً
وَمَسَنْ غَصُونَا وَالْتَفْتَنْ جَآذِراً
وقول الآخر^(١) :

وَأَمْبَلْتُ لُؤْلُؤَامِنْ نَرْجِسْ وَسَقْتُ
وَرَدًا وَعَضَّتُ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرَدِ

(١) هو أبو الفرج الأولاء .

وكلاهما تشبيه محض ، وليس باستعارة ، وإن لم يكن فيها لفظ من ألفاظ التشبيه ، وإنما الفرق بين الاستعارة والتشبّيـه ما حكيناه أولاً .

(ص ١١٠ - ١١١)

ولا بد للاستعارة من حقيقة هي أصلها وهي : مستعار ، ومستعار منه ، ومستعار له .

(ح) وقال أبو هلال : (الصناعتين ص ٢٠٧ طبعة أولى) « ولابد لكل استعارة ومجاز من حقيقة – وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة – كقول أمرئ القيس :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَّاتِهَا بِمَنْجَدِ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكِلٌ
والحقيقة مانع الأوابد من الذهاب والإفلات ، والاستعارة أبلغ لأن القيد
من أعلى مراتب المنع عن التصرف ، لأنك تشاهد ما في القيد من المنع
فلست تشك فيه . وكذلك قولهم : هذا ميزان القياس – حقيقته
تعديل القياس . والاستعارة أبلغ ، لأن الميزان يصور لك التعديل
حتى تعانيه وللعيان فضل على ما سواه . وكذلك العروض ميزان الشعر ،
حقيقته تقويمه . ولابد أيضاً من معنى مشترك بين المستعار والمسعار
منه . والمعنى المشترك بين قيد الأوابد ومانع الأوابد هو الحبس وعدم
الإفلات وبين ميزان القياس وتعديلاته حصول الاستقامة وارتفاع الحيف
والميل إلى أحد الجانبين . وقال : ﴿ سِمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ
تَمِيزُ مِنَ الْغَيْظِ . ﴾^(١) حقيقة شهيقها هنا الصوت الفظيع ، وهما
لفظتان ، والشهيق لفظة واحدة فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان .
وتميز ، حقيقته تنشق من غير تبادر ، والاستعارة أبلغ لأن التميـز في

(١) [الملك ٨٦/٧]

الشيء من غير تبادر ، والغيبظ. حقيقته شدة الغليان ، وإنما ذكر الغيبظ لأن مقدار شدته على النفس مدرك محسوس ، ولأن الانتقام مما يقع على قدره ، ففيه بيان عجيب وجزر شديد لا تقوم مقامه الحقيقة أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ ﴾^(١) معناه ذهب ، وسكت أبلغ لأن فيه دليلاً على توقع العودة للغضب إذا تؤمل الحال ونظر فيها يعود به عبادة العجل من الضرر في الدين ، كما أن الساكت يتوقع كلامه .

وقوله تعالى : ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾^(٢) وحقيقته ذر بأسى وعدابي إلا أن الأول أبلغ في التهديد كما تقول - إذا أردت المبالغة والإبعاد - ذرنى وإيهاه . ولو قال : ذر ضربى له وإنكارى عليه لم يسد ذلك المسد ، ولعله لم يكن حسناً مقبولاً ؛ وقوله عز وجل : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيلِ ﴾^(٣) معناه كشفنا الظلمة ، والأول أبلغ لأنك إذا قلت : محوت الشيء ، فقد بينت أنك لم تبق له أثراً . وإذا قلت كشفت الشيء مثل الستر وغيره لم تبين أنك أذهبته حتى لم تبق له أثراً .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبَصِّرَةً ﴾^(٤) حقيقته مضيعة ، والاستعارة أبلغ لأنها تكشف عن وجه المنفعة ، وتظهر موقع النعمة في الإبصار .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ حقيقته كثر الشيب في الرأس

(١) [الأعراف/١٥٤] .
(٢) [المدثر/٧٤] .
(٣) [الإسراء/١٢] .
(٤) [الإسراء/١٢٧] .

وظهر ، والاستعارة أبلغ لفضل ضياء النار على ضياء الشيب ، فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه ، ولأنه لا يتلافي انتشاره في الرأس ، كما لا يتلافي اشتعال النار . . . إنـ .

(د) وقال ابن سنان (سر الفصاحة ١١٢) :

وقد خرج على بن عيسى ما ورد في القرآن من الاستعارة ، فكان من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَّةً مُنْثُرًا ﴾^(١) لأن حقيقته عمدنا ، لكن قدمنا أبلغ ، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه من أجل إمهاله لهم عاملهم كما يفعل الغائب عنهم إذ قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم به ، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإهمال . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لِمَا طَغَىٰ الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾^(٢) لأن حقيقة طغي علا ، والاستعارة أبلغ ، لأن طغي علا قاهراً وكذلك : ﴿ بُرِيحٌ صَرَصَرٌ عَاتِيَةٌ ﴾^(٣) لأن حقيقة عاتية شديدة ، والعتو أبلغ لأنه شدة فيها تمرد . وقوله عز اسمه : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾^(٤) لأن انسلاخ الشيء عن الشيء هو أن يتبرأ منه ويزول عنه حالاً ، وكذلك انفصال النهار عن الليل ، والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان . وقوله عز وجل : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾^(٥) لأن التنفس هنا مستعار ، وحقيقة بدأ انتشاره ، وتنفس أبلغ لما فيه من التروح عن النفس . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنْقِكَ وَلَا تُبْسِطْهَا كُلَّ الْبُسْطِ ﴾^(٦) وحقيقة لامتناع

(١) [الفرقان ٢٥/٦٩].

(٢) [الحاقة ٢٦/٦٩].

(٣) [يس ٣٧/٣٦].

(٤) [الإسراء ١٧/٢٩].

(٥) [الفرقان ٢٣/٦٩].

(٦) [التكوير ٨١/١٨].

نائلك كل المنع ، والاستعارة أبلغ لأنّه جعل منع النائل بمنزلة غل اليد إلى العنق ، وحال المغلول أظهر . وأمثال هذا في كتاب الله كثيرة .

(ه) وقال الفخر الرازى في (نهاية الإيجاز ص ٨١) :
قال على بن عيسى : الاستعارة استعمال العبارة لغير ما وضعت له في
أصل اللغة .

وهذا باطل من وجوه أربعة : الأول أن يلزم أن يكون كل مجاز لغوى استعارة وقد أبطلناه . والثانى يلزم أن يكون الأعلام المنقوله من باب المجاز . والثالث استعمال اللفظ . فغير معناه للجهل بذلك يجب أن يكون مجازاً . والرابع أنه لا يتناول الاستعارة التخييلية على ما سيأتي . والأقرب أن يقال : الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه .

(و) وقال ابن أبي الأصبع (بدائع القرآن ص ١٥ - نسخة دار الكتب المصرية) :

قد اختلف في تعريف الاستعارة فقال الرمانى : هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل . وأبطل ابن الخطيب ذلك من أربعة أوجه (وينقل قول ابن الخطيب السابق) إلا أنه يعترض على اعتراضه الثالث قائلاً : « وهذا الوجه عندي فيه نظر » ، وبعد أن يورد نص أقوال ابن الخطيب في الاستعارة يحددها تحديداً آخر فيقول :

وقلت أنا : الاستعارة تسمية المرجوح الخى باسم الراجح الجلى ، فقد

جعلت ما للراجح الجلى للمرجوح الخى من الرجحان والظهور ، فتكون قد
بالغت فى تشبيه المستعار له بالمستعار منه ، فالعبارة الثانية أَرْشَق . .

(ز) وقال يحيى بن حمزة العلوى في الطراز (١٩٩/١) :

التعريف الأول - للاستعارة - ذكره الرمانى ، وحاصل ما قاله فى
الاستعارة أنها استعمال العبارة لغير ما وضعت له فى أصل اللغة - هذا
ملخص كلامه ، وهو فاسد من أوجه ثلاثة ، أمّا أولاً فلأن هذا يلزم منه
أن يكون كل مجاز من باب الاستعارة وهو خطأ ، فإن كل واحد من
الأُوْدِيَّة المجازية له حد يخالف حد الآخر وحقيقةه ، فلا وجه لخلطها
وأمّا ثانياً فلأن هذا يلزم عليه أن يكون الأعلام المنقوله يدخلها المجاز
وتكون من نوع الاستعارة وهو باطل ، فإن المجازات لا تدخلها فضلا
عن الاستعارة . أمّا ثالثاً فلأن ما قاله يلزم منه أنا لو وضعنا اسم السماء
على الأرض أن يكون مجازاً وهذا باطل لا يقول به أحد .

٦ - التلاؤم :

(١) - قال (ابن سنان ، سر الفصاحة ٩١) : وقد ذهب أبو الحسن على بن
عيسى الرمانى إلى أن التأليف على ثلاثة أضرب ، متنافر ، ومتنائي في
الطبقة الوسطى ، ومتنائي في الطبقة العليا . قال : والمتنائي في الطبقة
الوسطى كقول الشاعر :

رمتني وستر الله بيئي وبينها عشية آرام الكناس رميم
آلا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

قال والمتنائي في الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين من تأمله ،

والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاويم الحروف على نحو الفرق
 بين المتنافر والمترافق في الطبقة الوسطى ؟ وهذا الذي ذكره غير صحيح ،
 والقسمة فاسدة ، وذلك أن التأليف على ضربين ، متنافر ومتلائم ،
 وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاويمًا من بعض على حسب
 ما يقع التأليف عليه ، ولا يحتاج أن يجعل ذلك قسمًا ثالثاً ، كما يكون
 من المتنافر ما بعضه أشد في التنازع أكثر من بعض ؛ ولم يجعل الرمانى
 ذلك قسمًا رابعاً . فاما البيتان فليسا في هذا الموضع بأحق من غيرهما .
 وأما قوله : إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا ، وغيره في الطبقة
 الوسطى ، وهو يعني بذلك جميع كلام العرب ، فليس الأمر على
 ذلك ، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه
 القضية . ومنى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف
 المختار ، وجد أن في كلام العرب ما يضاهى القرآن في تأليفه . ولعل
 أبا الحسن يتخيّل أن الإعجاز في القرآن لا يتم إلا بمثل هذه الدعوى
 الفاسدة ، والأمر بحمد الله أظهر من أن يعتصمه بمثل هذا القول الذي
 ينفر عنه كل من علق من الأدب بشيء ، أو عرف من نقد الكلام طرفاً .
 وإذا عدنا إلى التحقيق ، وجدنا وجهاً لإعجاز القرآن . صرف العرب عن
 معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكّنون من المعارضة في وقت
 مرامهم ذلك . وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ذهب
 إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما
 بين المتنافر والمترافق ، ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة ،
 وادعينا أنه أحسن من جمّع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن

لم يفتقر في ذلك^(١) أدعاء ما قاله من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعية في الفصيح من كلام العرب . وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط . فصحيحًا ، وإنما الفصاحة لأمور عدة تقع في الكلام ، من جملتها التلاؤم في الحروف وغيره . وقد بينما بعضها ، وسنذكر الباقى .

فيم ينكر على هذا أن يكون تأليف الحروف في القرآن وفصيح كلام العرب واحداً ، ويكون القرآن في الطبقة العليا لما ضام تأليف حروفه من شروط . الفصاحة التي التأليف جزء يسير منها ، فقد بان بأن على كلا القولين لا حاجة بنا إلى أدعى ما أدعاه مع وضوح بطلانه وعدم الشبهة فيه . ثم يقال له : أليس التلاؤم معتبراً في تأليف حروف الكلمة المفردة على ما ذكرناه فيما تقدم ، فلابد من نعم . فيقال : فما عندك في تأليف كل لفظة من الألفاظ . القرآن بانفرادها فهو متلائم في الطبقة العليا أم في الطبقة الوسطى ؟ . فإن قال : في نفس الطبقة قيل له : أليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ، ولو لا ذلك لم يكن القرآن عربياً ولا كانت العرب فهمته ، فقد أقررت الآن أن في كلام العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا وهو الألفاظ المفردة ، ولم يتوجه عليك في ذلك ما يفسد وجه إعجاز القرآن . فهلا قلت : إن في كلامهم المؤلف من الألفاظ . ما هو أيضاً كذلك . فإن علم الناظر بأحدهما لعلم بالآخر . وإن قال إن كل لفظة من الألفاظ القرآن متلائمة في الطبقة الوسطى قيل له : أولاً إن مشاركة القرآن لطبقة ألفاظهم على هذا الوجه أيضاً باقية ، فثم ما الفرق بينك وبين من ادعى أن التلاؤم من الألفاظ . القرآن في الطبقة الوسطى فإن أحد الموضعين

(١) هكذا الأصل في ابن سنان .

كالآخر ، على أن اللفظة المفردة يظهر فيها التلاؤم ظهوراً بينما بقلة عدد حروفها واعتبار المخارج ، وإن كانت متبااعدة كان تأليفها متلائماً ، وإن تقاربـتـ كان مـتنافـراً ، ويـلتـمسـ ذلكـ بماـ يـذهبـ إـلـيـهـ منـ اعتـبارـ التـوـسـطـ دونـ الـبـعـدـ الشـدـيدـ والـقـرـبـ المـفـرـطـ ، فـعـلـيـ القـولـينـ مـعـاـ اـعـتـبـارـ التـلـاؤـمـ مـفـهـومـ ، وـلـيـسـ يـنـازـعـنـاـ فيـ كـلـمـةـ مـنـ كـلـمـةـ الـقـرـآنـ إـذـاـ أـوـضـحـنـاـ لـكـ تـأـلـيفـهـ ، وـنـقـولـ : لـيـسـ هـذـاـ فـيـ الطـبـقـةـ الـعـلـيـاـ إـلـاـ وـنـقـولـ مـثـلـهـ فـيـ تـأـلـيفـ الـأـلـفـاظـ . بـعـضـهـاـ مـعـ بـعـضـ ، لـأـنـ الدـلـيلـ عـلـىـ الـمـوـضـعـيـنـ وـاحـدـ . فـقـدـ بـاـنـ أـنـ الـذـىـ يـجـبـ اـعـتـهـادـ أـنـ تـأـلـيفـ عـلـىـ ضـرـبـيـنـ : مـتـلـائـمـ وـمـتـنـافـرـ . وـتـأـلـيفـ الـقـرـآنـ وـفـصـيـحـ كـلـامـ الـعـربـ مـنـ الـمـتـلـائـمـ ، وـلـاـ يـقـدـحـ هـذـاـ فـيـ وـجـهـ مـنـ وـجـوهـ إـعـجـازـ الـقـرـآنـ وـالـحـمـدـ لـلـهـ .

وـقـدـ ذـهـبـ عـلـىـ بـنـ عـيـسـىـ أـيـضاـ إـلـىـ أـنـ التـنـافـرـ أـنـ تـقـارـبـ الـحـرـوفـ فـيـ الـمـخـارـجـ أـوـ تـبـاعـدـ بـعـدـ شـدـيدـاـ ، وـحـكـيـ ذـلـكـ عـنـ الـخـلـيلـ بـنـ أـحـمـدـ . وـيـقـالـ إـنـهـ إـذـاـ بـعـدـ الـبـعـدـ الشـدـيدـ كـانـ بـمـنـزـلـةـ الـطـفـرـ ، وـإـذـاـ قـرـبـ الـقـرـبـ الشـدـيدـ كـانـ بـمـنـزـلـهـ مـشـىـ الـقـيـدـ ، لـأـنـهـ بـمـنـزـلـةـ رـفـعـ الـلـسـانـ وـرـدـهـ إـلـىـ مـكـانـهـ ، وـكـلـاهـاـ صـعـبـ عـلـىـ الـلـسـانـ ، وـالـسـهـوـلـةـ مـنـ ذـلـكـ فـيـ الـاعـتـدـالـ ، وـلـذـلـكـ وـقـعـ فـيـ الـكـلـامـ الـإـدـغـامـ وـالـإـبـدـالـ .

وـالـذـىـ أـذـهـبـ أـنـاـ إـلـيـهـ فـيـ هـذـاـ مـاـ قـدـمـتـ ذـكـرـهـ . وـلـاـ أـرـىـ التـنـافـرـ فـيـ بـعـدـ مـاـ بـيـنـ مـخـارـجـ الـحـرـوفـ وـإـنـماـ هـوـ فـيـ الـقـرـبـ . وـيـدـلـ عـلـىـ صـحـةـ ذـلـكـ الـاعـتـبـارـ ، فـإـنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ «ـأـلـمـ»ـ - غـيرـ مـتـنـافـرـةـ ، وـهـىـ مـعـ ذـلـكـ مـبـنـيـةـ مـنـ حـرـوفـ مـتـبـاعـدـةـ الـمـخـارـجـ - لـأـنـ الـهـمـزـةـ مـنـ أـقـصـىـ الـحـلـقـ ، وـالـمـيمـ مـنـ الـشـفـتـيـنـ وـالـلـامـ مـتـوـسـطـةـ بـيـنـهـمـاـ . وـعـلـىـ مـذـهـبـهـ كـانـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـ هـذـاـ

التأليف متناهراً لأنَّه على غاية ما يمكن من بعد ، وكذلك أم ، أو ، لأنَّ فيهما الياء والواو من أبعد الحروف من الهمزة . وليس هذان المثالان مثل عج ، ولا سر لما يوجد فيها من التناهُر لقرب ما بين الحرفين في كل كلمة ، ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجهاً في التناهُر على ما ذكره . فاما الإدغام والإبدال فشاهدان على أنَّ التناهُر في قرب الحروف دون بعدها ، لأنَّهما لا يكادان يردا في الكلام إلا فراراً من تقارب الحروف ؛ وهذا الذي يجب عندي اعتماده لأنَّ التتبع والتأمل قاضيان بصححته . وإذا ثبت ما ذكرناه فقد بان أنَّ تكرر الحروف والكلام يذهب بشطر من الفصاحة .

(ب) وقال ابن الأثير مناقشاً لرأي ابن سنان (المثل السائر ط محي الدين ص ١٥١ - ١٥٣) : وقد ذكر ابن سنان الخفاجي ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف فأقسامها إلى عدة أقسام : كتباعد مخارج الحروف ، وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي غير شاذة ، وأن تكون مصغرة في موضع يعبر به عن شيء لطيف أو خفي أو ماجرى مجرى ، وألا تكون مبتذلة بين العامة ، وغير ذلك من الأوصاف .

وفي الذي ذكره مala حاجة إلَيْه : أما تباعد المخارج فإنَّ معظم اللغة العربية دائرة عليه ؛ لأنَّ الواقع قسمها في وضعه ثلاثة أقسام : ثلاثياً ، ورباعياً ، وخمسياً ، والثلاثي من الألفاظ هو الأَكثَر ، ولا يوجد فيه ما يذكره استعماله إلا الشاذ النادر ؛ وأما الرباعي فإنه وسط بين الثلاثي والخمسي في الكثرة عدداً واستعمالاً ؛ وأما الخمسي فإنه الأقل ، ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر ، وعلى هذا التقدير فإنَّ أكثر

اللغة مستعمل على غير مكروه ، ولا تقتضي حكمة هذه اللغة الشريفة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك ، ولهذا أسقط الواضع حروفاً كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثناءً واستكراماً ، فلم يُؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين ، وكذلك لم يُؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاي والسين ، وكل هذا دليل على عنایته بتأليف المتباعد الخارج ، دون التقارب ، ومن العجب أنه كان يدخل بمثل هذا الأصل الكلى في تحسين اللغة ، وقد اعنى بأمور أخرى جزئية : كمماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق ، كالغليان والضربان والنقدان والنزوان ، وغير ذلك مما جرى مجرى ، فإن حروفه جميعها متتحركات ، وليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود ، ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالآطراف والحواشي فكيف كان يدخل بالأصل المuel عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ؟ على أنه لو أراد الناظم أو الناشر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، وهل هي متباعدة أو متقاربة ، لطال الخطب في ذلك وعسر ، ولما كان الشاعر لايننظم قصيداً ولا الكاتب ينشئ كتاباً إلا في مدة طويلة تضى عليها أيام وليلات ذوات عدد كثير ونحن نرى الأمير بخلاف ذلك ؛ فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ .

وقبع ما يقبع .

٧ - الفواصل :

(١) لم ير أبو هلال رأى الرمانى في التفريق بين الفواصل والسجع ، واعتبار السجع عيباً والفواصل بلاغة ، كما قال الرمانى : « الفواصل بلاغة ، والأسجع عيب » وقد رد على هذا بقوله :

« . . . وكذلك جميع ما في القرآن مما يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء ، لما يجري مجرى من كلام الخلق ، ألا ترى قوله عز اسمه : ﴿العادياتِ ضبْحًا ، فالملُورياتِ قَدْحًا ، فالمُغِيراتِ صُبْحًا ، فائِرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فوَسْطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾^(١) قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والفرض ، والغمر والبرض ، ومثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا ما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لرجل قال له : أندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل : أَسْجَعًا كَسَجْعَ الْكَهَانَ؟! ، لأن التكلف في سجعهم فاش ، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعاً لقال : أَسْجَعًا ؟ ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه ، وإذا سلم من التكلف وبرى من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه . وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام . (كتاب الصناعتين ط. ١٩٥٢ / ٢٦١) .

(ب) وقال القاضي الباقلاني (إعجاز القرآن ٨٩) : « ذهب أصحابنا^(٢)

(١) [العادات ١/١٠٠ - ٤] .

(٢) عل هامش الصفحة أنه أبو منصور الماتريدي .

كلهم إلى نفي السجع من القرآن ، وذكره أبو الحسن في غير موضع من
كتبه . . . »

و (ص ٩٠) « . . والذى يقدرونـه أنـه سجـع فـهـوـهـمـ ، لأنـهـ قدـ يكونـ
الـكـلامـ عـلـىـ مـثـالـ السـجـعـ وـإـنـ لـمـ يـكـنـ سـجـعاـ ، لأنـ ماـ يـكـونـ بـهـ الـكـلامـ
سـجـعاـ يـخـتـصـ بـبـعـضـ الـوـجـوهـ دـوـنـ بـعـضـ ، لأنـ السـجـعـ مـنـ الـكـلامـ يـتـبعـ
الـمـعـنىـ فـيـهـ الـلـفـظـ. الـذـىـ يـؤـدـىـ السـجـعـ ، وـلـيـسـ كـذـلـكـ مـاـ اـتـفـقـ مـاـ هـوـ فـيـ
تـقـدـيرـ السـجـعـ مـنـ الـقـرـآنـ ، لأنـ الـلـفـظـ يـقـعـ تـابـعاـ لـلـمـعـنىـ ، وـفـصـلـ
بـيـنـ أـنـ يـنـتـظـمـ الـكـلامـ فـيـ نـفـسـهـ بـأـلـفـاظـهـ الـتـىـ تـؤـدـىـ الـمـعـنىـ المـقـصـودـ فـيـهـ
وـبـيـنـ أـنـ يـكـنـ الـمـعـنىـ مـنـتـظـمـاـ دـوـنـ الـلـفـظـ ، وـمـتـىـ اـرـتـبـطـ. الـمـعـنىـ بـالـسـجـعـ
كـانـ إـفـادـةـ السـجـعـ كـإـفـادـةـ غـيـرـهـ ، وـمـتـىـ اـرـتـبـطـ. الـمـعـنىـ بـنـفـسـهـ دـوـنـ
الـسـجـعـ كـانـ مـسـتـجـلـبـاـ لـتـجـنـيـسـ الـكـلامـ دـوـنـ تـصـحـيـحـ الـمـعـنىـ » .

و (ص ٩٤) « . . ولا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامـةـ
صـوـتهاـ عـلـىـ نـسـقـ وـاحـدـ وـرـوـىـ غـيـرـ مـخـتـلـفـ^(١) ، لأنـ مـاجـرـىـ هـذـاـ الـمـجـرـىـ
لاـ يـبـنـىـ عـلـىـ الاـشـتـقـاقـ وـحـدـهـ ، وـتـرـدـدـ الـقـوـافـىـ عـلـىـ طـرـيـقـةـ وـاحـدـةـ . وـأـمـاـ
الـأـمـورـ الـتـىـ يـسـتـرـيـحـ إـلـيـهـ الـكـلامـ فـإـنـهـ تـخـتـلـفـ ، فـرـبـماـ كـانـ ذـلـكـ يـسـمـىـ
قـافـيـةـ ، وـذـلـكـ إـنـماـ يـكـنـ فـيـ الشـعـرـ ، وـرـبـماـ كـانـ مـاـ يـنـفـصـلـ عـنـهـ الـكـلامـانـ
يـسـمـىـ مقـاطـعـ السـجـعـ . وـرـبـماـ سـمـىـ ذـلـكـ فـوـاصـلـ ، وـفـوـاصـلـ الـقـرـآنـ مـمـاـ هـوـ
مـخـتـصـ بـهـ ، لـاـ شـرـكـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ سـائـرـ الـكـلامـ فـيـهـ لـاـ تـنـاسـبـ .

(ح) وقال ابن سنان (سر الفصاحة ١٦٥) : « . . وأـمـاـ الـفـوـاصـلـ الـتـىـ
فـيـ الـقـرـآنـ فـإـنـهـ سـمـوـهـاـ فـوـاصـلـ وـلـمـ يـسـمـوـهـاـ أـسـجـاعـاـ ، وـفـرـقـواـ فـقـالـواـ :ـ إـنـ

(١) راجـعـ مـاـ أـوـرـدـهـ الرـيـانـ فـيـمـاـ سـبـقـ فـيـ السـجـعـ .

السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل التي تتبع المعانى ولا تكون مقصودة في أنفسها . وقال علي بن عيسى الرمانى : إن الفواصل بلاغة ، والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تَتَبَعُ المعانى ، والفواصل تتبع المعانى ، وهذا غير صحيح . والذى يجب أن يحرر في ذلك أن يقال إن الأَسْجَاع حروف مماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرنا ، والفواصل على ضربين ، ضرب يكون سجعاً هو ما تمثلت حروفه في المقاطع ، وضرب لا يكون سجعاً وهو لما تقابلت حروفه في المقاطع ولم تمثل . ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين - أَغْنِي التمايل والتقارب - من أن يكون يأتى طوعاً سهلاً وتابعاً للمعنى وبالضد من ذلك حتى يكون متكلاً يتباهى المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو محمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض .

فَإِنَّا قَرَآنَ فَلَمْ يَرِدْ فِيهِ إِلَّا مَا هُوَ مِنَ الْقَسْمِ الْأَوَّلِ الْمُحْمَدُ لِعَلَوْهُ فِي الْفَصَاحَةِ ، وَقَدْ وَرَدَتْ فَوَاضِعَاتِ مِمَاثِلَةٍ وَمِتَقَارِبَةٍ ، فَمِثَالُ الْمِمَاثِلَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَالظُّرُورِ وَكِتَابٌ مَسْطُورٌ فِي رَقٍ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورِ﴾^(١) وَقَوْلُهُ عَزَّ اسْمُهُ : ﴿طَهٌ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُشْقِي إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلاً مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) وَقَوْلُهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُؤْرِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغَيْرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثْرَنْ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمِيعًا﴾^(٣) وَقَوْلُهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالِٰ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرٌ ، هَلْ فِي ذَلِكَ

(١) [الطور ١٥٢ - ٣] . [٢) [طه ١٢٠ - ٤] .

(٢) [العايات ١١٠٠ - ٥] .

قَسْمٌ لِّذِي حِجْرٍ^(١) وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكُ
بِعَادٍ إِرَامَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلِقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَادِ . وَشَمَوْدَ الَّذِينَ
جَاءُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ . وَفَرْعَوْنُ ذِي الْأَوَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَادِ ، فَأَكَثَرُوا
فِيهَا الْفَسَادِ^(٢) وَحَذَفُوا الْيَاءَ مِنْ « يَسْرِي » وَ« الْوَادِي » طَلَباً لِلمُوافَقَةِ
فِي الْفَوَاصِلِ . وَقُولُهُ تَعَالَى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا
آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ^(٣) ، وَجَمِيعُ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى هَذَا
الْأَزْدَوْجِ ، وَهَذَا جَائِزٌ أَنْ يُسَمِّي سِجْعًا لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى السِّجْعِ ، وَلَا مَانِعٌ
فِي الشَّرْعِ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ .

وَمِثَالُ الْمُتَقَارِبِ فِي الْحُرُوفِ قُولُهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ مَلِكُ
يَوْمِ الدِّينِ^(٤) ، وَقُولُهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَ . وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ . بَلْ عَجِيبُوا أَنَّ
جَاءُهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ^(٥) وَهَذَا لَا يُسَمِّي
سِجْعًا لِأَنَّا قَدْ بَيْنَا أَنَّ السِّجْعَ مَا كَانَ حُرُوفَةً مِمَاثِلَةً .

فَأَمَّا قُولُ الرَّمَانِيِّ : « أَنَّ السِّجْعَ عِيبٌ وَالْفَوَاصِلُ بِلَاغَةٌ » عَلَى الإِطْلَاقِ
فَغَلَطٌ ، لِأَنَّهُ إِنْ أَرَادَ بِالسِّجْعِ مَا يَكُونُ تابِعًا لِلْمَعْنَى وَكَانَهُ غَيْرُ مَقْصُودٍ ،
فَذَلِكَ بِلَاغَةٌ وَالْفَوَاصِلُ مِثْلُهُ ؛ وَإِنْ كَانَ يَرِيدُ بِالسِّجْعِ مَا تَقْعُدُ
تَابِعَةً لَهُ وَهُوَ مَقْصُودٌ مُتَكَلِّفٌ فَذَلِكَ عِيبٌ وَالْفَوَاصِلُ مِثْلُهُ ، وَكَمَا يَعْرُضُ
الْتَّكْلِفُ فِي السِّجْعِ عِنْدَ طَلْبِ تَمَاثِيلِ الْحُرُوفِ كَذَلِكَ يَعْرُضُ فِي الْفَوَاصِلِ
عِنْدَ طَلْبِ تَقَارِبِ الْحُرُوفِ .

وَأَظُنُّ أَنَّ الَّذِي دَعَا أَصْحَابَنَا إِلَى تَسْمِيهِ كُلَّ مَا فِي الْقُرْآنِ فَوَاصِلٌ ، وَلَمْ

(٢) [الفجر ٨٩ / ٦ - ١١] .

(٤) [ق ٥٠ / ٢ - ٢] .

(١) [الفجر ١ / ٤ - ٤] .

(٢) [القمر ٥٤ / ٢ - ٢] .

يسموا ما تمثلت حروفه سجعاً ، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب . فاما الحقيقة فما ذكرناه لأنّه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وكلاماً عربياً ومؤلفاً . وهذا مما لا يخفى فيحتاج إلى زيادة في البيان ؛ ولا فرق بين الفوائل التي تمثل حروفها في المقاطع وبين السجع . فإن قال قائل : إذا (كان) عندكم أن السجع محمود فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً ، وما الوجه في ورود بعضه غير مسجوع قيل : إن القرآن أُنزل بلغة العرب ، وعلى عرفهم ، وعادتهم وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً ، لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع ، لاسيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعاً جرياً به على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم ، ولم يدخل من السجع لأنّه يحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها ، وعليها ورد فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عالياً في الفصاحة وقد أدخل فيه بشرط من شروطها ، فهذا هو السبب ، فأورد القرآن مسجوعاً وغير مسجوع ، والله أعلم .

(د) وقال ابن الأثير في السجع : وهو أن يقال تواتر الفوائل في الكلام المنثور على حرف واحد : (المثل السائر ١٤٤) : « وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهًا سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير ، حتى إنه ليؤتي بالسورة جميعها مسجوعة كسورة

الرحمن ، وسورة القمر وغيرها . وبالجملة فلم تخل منه سورة من سور .

(ه) وقال يحيى بن حمزة العلوى (الطراز ٣ / ٢٠) : (وذكر الخلاف على القول بـأَن في القرآن سجعاً والتفريق بين السجع والفواصل) :

« باب التسجيع : وفيه مذهبان ، المذهب الأول جوازه وحسنه ، وهذا هو الذي عول عليه علماء أهل البيان ، والحججة على ذلك هي أن كتاب الله تعالى والسنة النبوية ، وكلام أمير المؤمنين مملوء منه . . . والمذهب الثاني استكراهه ، وهذا شيء حكاه ابن الأثير ولم أعرف قائله ، ولا وجدته فيما طالعت من كتب البلاغة » .

٨ - التجانس :

قال ابن رشيق : (العمدة ٢٢٧) في باب « التجنيس » :

« . . . وقد ذكروا تجنيساً مضافاً أنسده جماعة من المتعقبين منهم الجرجاني :

أَيَا قَمَرُ الْهَامِ أَعْنَتْ ظُلْمًا عَلَى تَطَاوُلِ اللَّيلِ التَّمَامِ
فهذا عندهم وما جرى مجراه إذا اتصل كان تجنيساً ، وإذا انفصل لم يكن تجنيساً ، وإنما كان يتمكن ما أرادوا لو أن الشاعر ذكر الليل وأضافه فقال : « ليل الهم » كما قال : « قمر الهم » . والرماني سمي هذا النوع مزاوجاً ، ومثله عنده قوله الآخر :

حَمْتُنِي مِيَاهُ الْوَفَرِ مِنْهَا مَوَارِدِي فَلَا تَحْمِيَانِي وَرَدَ مَاءُ الْعَنَاقِدِ

وَمِنَ الْمَزاوجَةِ عَنْهُمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾^(١)

وقوله : ﴿ مِنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُم ﴾^(١) .
 وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾^(٢) وكل هذه استعارات
 مجاز لأن المراد المجازة فزاوج بين الفظين .

(ص ٢٢٨) . . . وحقيقة المجانسة عند الرمانى بالمناسبة بمعنى الأصل

نحو قول أبي تمام :

فِي حَدِّ الْحَدِّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعْبِ

قال : لأن معناها جمیعاً أبلغ . وأما قوله قرب واقتراب والطلوع والمطلع
 وما شاكل هذا فهو عنده من تصرف اللفظ . ولا يعده تجنیساً » .

٩ - حسن البيان :

(أفاد منه ابن أبي الإصبع وأورده بين أبواب البديع في كتابه « بدائع القرآن » معتمداً فيما يبدو على ما قال الرمانى في التكت) .

قال ابن أبي الإصبع (بدائع القرآن ٧٤ - ب) :

« حسن البيان إما أن يكون بالأسماء والصفات المفردة وإما بهما مؤتلفة ،
 ودلالة الأول متناهية ودلالة الثاني غير متناهية . . غير أن البيان فيه الأقبح
 والأحسن ، والوسائل . بين هذين الطرفين ، فالاقبح كبيان باقل وقد سئل
 عن ثمن ظبي كان معه ، فأراد أن يقول أحد عشر ، فأدركه العى ففرق
 أصابع يديه وأطلع لسانه ، فأفلت الظبي . وهذا أقبح بيان مع أنه قد
 بالغ في الإفهام ، لكنه أخرج تعريف العدد من السمع إلى العيان ، لكنه
 بيان ناقص لتخسيص البصر دون السمع ، وصناعة البيان يجب أن يكون

(١) [البقرة ٢/١٤ - ١٥] .
 (٢) [البقرة ٢/١٩٤] .

المستحسن منها ما يختص بالسمع فإنها مختصة بالكلام والعبارة دون الإشارة . . . وبيان الكتاب العزيز وكل بيان بلغ فصيح من الأحسن دون الأقبح دون الوسائل البعيدة من البلاغة والقريبة ، وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث ينقسم أيضاً ثلاثة أقسام : أحسن وأقبح وأوسط بالنسبة .

وحقيقة حسن البيان إخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة له ، وإيصاله إلى الفهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها ، فإنه عين البلاغة . وقد تأتي العبارة عنه عن طريق الإيجاز ، وقد تأتي عن طريق الإطناب بحسب ما يقتضيه الحال ، والإطناب بلاغة والإسهام على . . وقد أتى بيان الكتاب العزيز من الطريقين ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ . وَرُزُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَاكْهَيْنَ ﴾^(١) وكقوله تعالى - وقد أراد أن يبين عن الوعد - : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . . . ﴾^(٢) الآية ، وكقوله عز وجل - وقد أراد أن يبين الوعيد - إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ^(٣) ، وكقوله في الاحتجاج القاطع للخصم : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِي خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوْلَ مَرَةً ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾^(٤) ، وكقوله تبارك وتعالى وقد أراد أن يبين عن التحسير ﴿ وَلَنْ يَنْفَعُكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمُ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾^(٥) ، وكقوله تعالى - وقد أراد أن يبين عن العدل - : ﴿ وَلَوْرُدُوا لِعَادُوا لِمَا نَهَا وَلَنْ يَنْهَا لِكَادِبُونَ ﴾^(٦) ، وأمثال هذه الموضع كثيرة .

(٢) [الدخان ٤٤ / ٥١] .

(١) [الدخان ٤٤ / ٢٦] .

(٤) [يس ٣٦ / ٧٩] .

(٣) [الدخان ٤٤ / ٤٠] .

(٦) [الأنعام ٦ / ٢٨] .

(٥) [الزخرف ٤٣ / ٣٩] .

١٠ - المطابقة :

وقد نقل ابن رشيق عن الرمانى في باب المطابقة ولم يرد في النكث ولعله نقل عن كتاب آخر ، ونحن نورد ما جاء منه في العمدة (٧/٢) .

المطابقة : « . . . وقال الرمانى المطابقة مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان ، قال صاحب الكتاب : هذا أحسن قول سمعته في المطابقة من غيره وأجمعه لفائدة ، وهو مشتمل على أقوال الفريقيين وقدامة جمیعاً ، وأما قول الخليل : إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما فهو مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان ، كما قال الرمانى ، يشهد بذلك قول لميد :

تعاونن الحديث وطبقته كما طبقت بالنعل المثلا

و (العمدة ص ١١) « . . . وقال الرمانى وغيره : والسود والبياض ضيّدان ، وسائل الألوان لا يضاد كل واحد منها صاحبه ، إلا أن البياض هو ضد السود على الحقيقة ، إذ كان كل واحد منها كلما قوى زاد بعدها من صاحبه ، وما بينهما من الألوان كلما قوى زاد قرباً من السود ، فإن ضعف زاد قرباً من البياض ، وأيضاً فلان البياض منصبغ ، والسود صابغ لا منصبغ ، وليس سائر الألوان كذلك لأنها كلها تصبغ ولا تنصبغ » .

١١ - وجوه إعجاز القرآن :

نقل السيوطي في كتاب « الإتقان في علوم القرآن » بعضه مما جاء في الباب الأخير من كتاب الرمانى فقال (٢٠٦/٢) :

وقال الرمانى : وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدي للكافر ، والصرف ، والإخبار عن الأمور

المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة . قال : ونقض العادة هو أن العادة كانت جارية بضرر من أنواع الكلام معروفة ، ومنها الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها المنشور الذي يدور بين الناس في الحديث ؛ فتأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة ، ويتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام . قال : وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ، إذ كان سبيل فلق البحر وقلب العصاية وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز ، إذ خرج عن العادة فصدّ الخلق عن المعارضة » .

وقال : (الإتقان ٢/٢) :

« التاسع قال الرمانى : فإن قال قائل : فعلل سور القصار يمكن فيها المعارضة ، قيل : لا يجوز فيها ذلك من قبل أن التحدي قد وقع بها ظهر العجز عنها في قوله : ﴿فأتوا بسورة﴾ فلم يخص بذلك الطوال دون القصار . فإن قال فإنه يمكن في القصار أن تغير الفواصل فيجعل بدل كل كلمة ما يقوم مقامها ، فهل يكون ذلك معارضة ؟ قيل له : لا ؛ من قبل أن المفهوم يمكنه أن ينشئ بيته واحداً ولا يفصل بطبعه بين مكسور وموزون ، ولو أن مفهوماً رام أن يجعل بدل قوافي قصيدة رؤبة :

وقاتم الأعمق خاوي المخترق مشتبه الأعلام لام الخفق
يكلِّي وفدى الريح من حيث انخرق

فجعل بدل المخترق المزق وبدل الخفق الشفق وبدل انخرق انطلق ، لأمكنه ذلك ولم يثبت له به قول الشعر ولا معارضه رؤبة في هذه القصيدة عند أحد له أدنى معرفة ، فكذلك سبيل من غير الفواصل » .

(ج) خلاصة فكرة عبد القاهر في إعجاز القرآن بنظمه

قال عبد القاهر في كتابه دلائل الاعجاز (ط. ١٣٣١ هـ ص ٢٩٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قد أردنا أن نستأنف تقريرًا نزيد به الناس بصیراً أنهم في عمیاء من أمرهم حتى يسلکوا المسلك الذي سلکناه ، ويفرغوا خواطرهم لتأمل ما استخرجناه ، وأنهم مالم يأخذوا أنفسهم بذلك ولم يجردوا عنایتهم له ، في غرور ، كمن يعد نفسه الرّى من السراب اللامع ، ويخدعها بأكاذيب المطامع . يقال لهم إنكم تتلون قول الله تعالى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ النِّاسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وقوله عز وجل ﴿ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مُّثِلِهِ ﴾ ، وقوله ﴿ بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثِلِهِ ﴾ فقولوا الآن أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا بمثله ، من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله ؟ ولا بد من « لا » لأنهم إن قالوا يجوز ، أبطلوا التحدي ، من حيث إن التحدي - كما لا يخفى - مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولا تصح المطالبة بالإثبات به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب ، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضاً ؛ وذلك أنه لا يتصور أن يقال إنه كان عجز حتى يثبت معجزة عنه معلوم ؛ فلا يقوم في عقل عاقل أنه يقول لخصم له : قد أعجزك أن تفعل مثل فعل ، وهو لا يشير له إلى وصف يعلمه في فعله ويراه قد وقع عليه . أفلاترى أنه لو قال رجل لآخر : إني قد أحدثت في خاتم عملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها ،

لم تتجه عليه حجة ولم يثبت به أنه قد أتى بما يعجزه ، إلا من بعد أن يريه الخاتم ، ويشير له إلى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة ، لأنَّه لا يصح وصف الإنسان بأنَّه قد عجز عن شيء حتى ي يريد ذلك الشيء ويقصد إليه ثم لا يتأتى له . وليس يتصور أن يقصد إلى شيء لا يعلمه وأن تكون منه إرادة لأمر لم يعلمه في جملة ولا تفصيل .

ثم إن هذا الوصف ينبغي أن يكون وصفاً قد تجدد بالقرآن ، وأمراً لم يوجد في غيره ولم يعرف قبل نزوله . وإذا كان كذلك فقد وجَّب أنْ عُلمَّ أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة ، لأنَّ تقدير كونه فيها يؤدى إلى الحال ، وهو أن تكون الألفاظ المفردة – التي هي أوضاع اللغة – قد حدثت في حذقة حروفها وأصداءها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها فإذا كانت متلوة في القرآن ، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن ؛ ولا يجوز أن تكون في معانِي الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة ، لأنَّه يؤدى إلى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد والرب ومعنى العاملين والملك واليوم والدين وهكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن ، وهذا مالو كان هنا شيء أبعد من الحال وأشنع لكان إيه ؟ ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في تركيب الحركات والسكنات ، حتى كأنهم تحدوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليهما في زنة كلمات القرآن وحتى كأن الذي بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض ، لأنَّه لا يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة في : إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر . والطاحنات طحنا .

وكذلك الحكم إن زعم زاعم أنَّ الوصف الذي تحدى إليه هو أن يأتوا

بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل ، كالذى تراه في القرآن ، لأنَّه أَيْضًا ليس بأَكْثَر من التعويل على مراعاة وزن ، وإنما الفواصل في الآى كالقوافي في الشعر ، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو ، فلو لم يكن التحدى إلا إلى فصول من الكلام يكون لها أَوْآخِر أَشْبَاه القوافي لم يعوزهم ذلك ولم يتعدُّر عليهم ؟ وقد خيل إلى بعضهم - إنْ كانت الحكاية صحيحة - شيء من هذا حتى وضع على ما زعموا فصول الكلام أو آخرها كَاوَاخِر الآى ، مثل : يعلمون ، ويؤمنون ، وأَشْبَاه ذلك . ولا يجوز أن يكون الإعجاز بِأَنَّ لم يلتقط في حروفه ما ينتقل على اللسان .

وجملة الأَمْر أَنَّه لن يعرض هذا وشبهه من الظنون لمن يعرض له إِلَّا من سوء المعرفة بهذا الشأن ، أو للخدلان ، أو لشهوة الإِغْرَاب في القول . ومن هذا الذي يرضى من نفسه أَنْ يزعم أَنَّ البرهان الذى بان لهم ، والأَمْر الذى بهم والهيئة التي ملأَت صدورهم ، والروعة التي دخلت عليهم فَازْعَجْتَهُم ، حتى قالوا : (إنْ لَه لحلاوة ، وإنْ عليه لطلاوة ، وإنْ أَسْفَلَه لعْدَق ، وإنْ أَعْلَاه لثَمَر) إنما كان لشيء راعهم من موقع حركاته ، ومن تركيب بينها وبين سكتاته ، أو لفواصل في آخر آياته ؟ من أَيْن تليق هذه الصفة وهذا التشبيه بذلك ؟ . أمْ ترى أَنَّ ابن مسعود حين قال في صفة القرآن : لا يُتَفَهُ ولا يُشَان ، وقال : «إِذَا وقعت في آل حم وقعت في روضات دَمَشَاتٍ ، أَتَأْنِق فيَهُنَّ» - أَى أَتَتَبع محسنهن - قال ذلك من أَجْل أَوزان الكلمات ، ومن أَجْل الفواصل في أَوَاخِر الآيات ؟ أمْ ترى أَنَّهم لذلك قالوا لا تفني عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ؟ أمْ ترى الجاحظ حين قال في كتاب النبوة : ولو أَنَّ رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة . لتبين له في نظامها ومحاجتها من لفظها وطابعها ، أَنَّه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى

بها أغلب العرب لأنَّا ظهر عجزه عنها لغويًّا ولفظاً نظر إلى مثل ذلك؟ فلما يُسَخِّر
 كلامه هذا مما ذهبوا إليه في شيءٍ . وينبغي أن تكون موازنتهم بين بعض
 الآى وبين مقالة الناس في معناها ، كموازنتهم بين حِلْكُمْ في القصاصِ
 حِيَاةً وَبَيْنَ (قتل البعض لإحياء الجميع) خطأً منهم لأنَّا لا نعلم لحديث
 التحرير والتيسير وحديث الفاصلة مذهبًا في هذه الموازنة ، ولا نعلمهم
 أرادوا غير ما يريدون الناس إذا وازنوا بين كلام وكلام في الفصاحة والبلاغة
 ودقة النظم وزيادة الفائدة . ولو لأنَّ الشيطان قد استحوذ على كثير من
 الناس في هذا الشأن وأئْمَّهم - بترك النظر وإهمال التدبر وضعف النية وقصر
 الهمة - قد طرقو له حتى جعل يلقى في نفوسهم كل محال وكل باطل ،
 وجعلوا هم يعطون الذي يلقيه حظاً من قبولهم ، ويبيئونه مكاناً من قلوبهم ،
 لما بلغ من قدر هذه الأقوال الفاسدة أن تدخل في تصنيف ، ويعاد ويبدأ
 في تبيين لوجه الفساد فيها وتعريف . ثم إن هذه الشناعات التي تقدم ذكرها
 تلزم أصحاب الصرف أىضاً ، وذلك أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضته
 القرآن ، وعن أن يأتوا بمثله لأنَّه معجز في نفسه ، لكن لأنَّا أدخل عليهم
 العجز عنه ، وصرفت هممهم وخواطرهم على تأليف كلام مثله ، وكان حالهم
 على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه ، وحيل بينه وبين
 أمر قد كان يتسع له ، لكنَّا ينبغي ألا يتعاظمُ لهم ، ولا يكون منهم ما
 يدل على إكبارهم أمره وتعجبهم منه ، وعلى أنه بهم ، وعظم كل العظم
 عندهم ، ولكن التعجب الذي دخل من العجز عليهم : ولا رأوا من تغير
 حالهم ، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلاً ، وأن سد دونهم
 باب لهم مفتوحاً . أرأيت لو أنَّ نبياً قال لقومه : إن آتني أن أضع
 يدي على رأسى هذه الساعة ، وتندون كلكم من أن تستطعوا وضع أيديكم

على رؤوسكم ، وكان الأمر كما قال ، مِمَّ يُكَوِّن تَعْجِبَ الْقَوْمَ ؟ أَمْ مِنْ وَضْعِهِ
يَلْهُ عَلَى رَأْسِهِ ، أَمْ مِنْ عَجْزِهِمْ أَنْ يَضْعُوا أَيْلِيهِمْ عَلَى رَءُوسِهِمْ ؟

ونعود إلى النسق فنقول : فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أَعْجَزَهُمْ
من القرآن في شيءٍ مما عدناه لم يبق إلا أن يكون الاستعارة ، ولا يمكن أن
تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز ، وأن يقصد إليها لأن ذلك يؤدي إلى أن
يكون الإعجاز في آى معدودة ، في مواضع من السور الطوال مخصوصة ؛
وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف ، لأنَّه ليس من
بعد ما أَبْطَلْنَا أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِلَّا النَّظَمُ ، وإذا ثبتَ أَنَّه في النظم والتأليف ،
وكنا قد علمنا أَنَّ لِيَس النظم شيئاً غير توكى معانى النحو وأحكامه فيما بين
الكلم ، وأَنَّا إِنْ بَقِينَا الدَّهْرَ نَجْهَدُ أَفْكَارَنَا حَتَّى نَعْلَمَ لِلْكَلْمِ الْمَفْرَدَةَ سَلْكًا
يَنْظُمُهَا وَجَامِعًا يَجْمِعُ شَمْلَهَا وَيَؤْلِفُهَا وَيَجْعَلُ بَعْضَهَا بِسَبَبِ مِنْ بَعْضٍ ،
غَيْرَ توكى معانى النحو وأحكامه فيها ، طلبنا مَا كُلُّ مَحَالٍ دُونَهُ .

فقد بان وظاهر أن المتعاطى القول في النظم ، والزاعم أنه يحاول بيان المزية
فيه ، وهو لا يعرض فيما يعيده ويبديه للقوانين والأصول التي قدمنا ذكرها ،
ولا يسلك إِلَيْهِ الْمَسَالِكُ الَّتِي نَهَجَنَاها ، في عميماء من أمره وفي غرور من نفسه ،
وفي خداع من الأمانى والأضاليل . ذاك لأنَّه إِذَا كَانَ لَا يَكُونُ النَّظَمُ شَيْئًا
غَيْرَ توكى معانى النحو وأحكامه التي النظم عبارة عن توكيخها فيما بين الكلم .

فإن قيل : قولك إِلَّا النَّظَمُ يقتضى إخراج ما في القرآن من الاستعارة
وضرورب المجاز من جملة ما هو به معجز ، وذلك ما لا مساغ له . قيل :
ليس الأمر كما ظنت ، بل ذلك يقتضى دخول الاستعارة ونظائرها فيما
هو به معجز ، وذلك لأن هذه المعانى - التي هي الاستعارة والكتابية والتلميذ
وسائل ضرورب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون ،
ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتتوخ فيها بينها ، حكم من أحكام النحو ، فلا يتصور أن يكون لها هنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره . أفالا ترى أنه إن قدر في اشتعل من قوله تعالى : ﴿ وَاشتعل الرأس شَيْبًا ﴾ أن لا يكون الرأس فاعلا له ، ويكون شيئاً منصوبًا عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعاراً وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة فاعرف ذلك .

واعلم أن السبب في أن لم يقع النظر منهم موقعه أنهم - حين قالوا نطلب المزية - ظنوا أن موضعها اللفظ . بناء على أن النظمنظم الألفاظ ، وأنه يلحقها دون المعانى ؛ وحين ظنوا أن موضعها ذلك واعتقدوها وقفوا على اللفظ . وجعلوا لا يرمون بأوهامهم إلى شيء سواه ، إلا أنهم على ذلك لم يستطعوا أن ينطقوها في تصحيح هذا الذى ظنوه بحرف ، بل لم يتكلموا بشيء إلا كان ذلك نقضاً وإبطالاً لأن يكون اللفظ . من حيث هو لفظ . موضعًا للمزية ، وإنما رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدرروا بأن ليس للمزية التي طلبواها موضع ومكان تكون فيه إلا معانى النحو وأحكامه . وذلك أنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات ، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة .

فقولهم بالضم لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما ، لأنه لو جاز أن يكون مجرد ضم اللفظ . إلى اللفظ . تأثير في الفصاحة لكن ينبغي إذا قيل « ضحك خرج » أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة ، وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة تونхи معنى من معانى النحو فيما بينهما . وقولهم : على طريقة مخصوصة ، يوجب ذلك أيضاً ، وذلك أنه لا يكون للطريقة - إذا أردت مجرد اللفظ . - معنى ، وهذا سبيل كل ما قالوه

إذا أنت تأملته ، تراهم في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية في معانى النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا ، ذلك لأنه أمر ضروري لا يمكن الخروج منه . ومما تجدهم يعتمدونه ويرجعون إليه قولهم : إن المعانى لاتزيد وإنما تتزايد الألفاظ . وهذا كلام إذا تأملته لم تجد له معنى يصح عليه غير أن يجعل تزايد الألفاظ عبارة عن المزايا التي تحدث من توخي معانى النحو وأحكامه فيها بين الكلم ، لأن التزايد في الألفاظ من حيث هي ألفاظ . ونطق لسان محال .

ثم إننا نعلم أن المزية المطلوبة في هذا الباب مزية فيها طريقه الفكر والنظر من غير شبهة ، ومحال أن يكون اللفظ له صفة تستنبط . بالفكر ويستعان عليها بالرواية ، اللهم إلا أن ت يريد تأليف النغم ، وليس بذلك مما نحن فيه بسبيل . ومن هاهنا لم يجز إذا عد الوجوه التي تظهر بها المزية أن يعد فيها الإعراب ، وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم ، وليس هو مما يستنبط . بالتفكير ويستعان عليه بالرواية ، فليس قول أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع أو المفعول النصب والمضاف إليه الجر بأعلم من غيره ، ولا ذلك المفعول به مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر ، إنما الذي تقع الحاجة فيه إلى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجابها من طريق المجاز ، كقوله تعالى : «[﴿]فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ[﴾]» وكقول الفرزدق « سقطتها خروق في المسامع » وأشباه ذلك مما يجعل الشيء فيه فاعلاً على تأويل يدق ، ومن طريق تلطف ، وليس يكون هذا علمًا بالإعراب ، ولكن بالوصف الموجب للإعراب . ومن ثم لا يجوز لنا أن نعتقد في شأننا هذا بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين في الشيء ما يقال إنه أفسدهما ، وبأن يكون قد تحفظ مما نخطئ فيه العامة ، ولا بأن يكون قد استعمل الغريب ، لأن

العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علماً باللغة وبأنفس الكلم المفردة ، وبما طريقة طريق الحفظ ، دون ما يستعان عليه بالنظر ، ويوصل إليه بـأعمال الفكر . ولئن كانت العامة وأشباه العامة لا يكادون يعرفون الفصاحة غير ذلك ، فإن من ضعف النحية إخطار مثله في الفكر وإجراءه في الذكر ، وأنت تزعم أنك ناظر في دلائل الإعجاز ، أترى أن العرب تحدوا أن يختاروا الفتح في الميم من الشمع ، والهاء من النهر على الإسكان ، وأن يحتفظوا من تخليط العامة في مثل « هذا يساوى ألفاً » أو إلى أن يأتوا بالغريب الوحشى في الكلام يعارضون به القرآن ؟ كيف وأنت تقرأ السورة من السور الطوال فلا تجد فيها من الغريب شيئاً . وتأمل ما جمعه العلماء في غريب القرآن فترى الغريب منه إلا في القليل إنما كان غريباً من أجل استعارة هي فيه كمثل : ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ . ومثل : ﴿ خلصوا نجياً ﴾ . ومثل : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ دون أن تكون اللفظة غريبة في نفسها . إنما ترى ذلك في كلمات معدودة كمثل : ﴿ عجل لنا قطناً ﴾ و ﴿ ذات ألواح ودسر ﴾ و ﴿ جعل ربك تحتك سرياً ﴾ .

ثم إنه لو كان أكثر ألفاظ القرآن غريباً لكان محالاً أن يدخل ذلك في الإعجاز وأن يصح التحدى به . ذاك لأنه لا يخلو إذا وقع التحدى به من أن يتحدى من له علم بأمثاله من الغريب أو لا علم له بذلك ، فلو تحدى به من يعلم أمثاله لم يستدر عليه أن يعارضه بمثله . ألا ترى أنه لا يتعذر عليك إذا أنت عرفت ما جاء من الغريب في معنى الطويل أن تعارض من يقول « الشوقب » بأن تقول أنت « الشوذب » ، وإذا قال « الأمق » أنت تقول « الأشق » ، وعلى هذا السبيل ، ولو تحدى به من لا علم له بأمثال ما فيه من الغريب كان ذلك بمنزلة أن يتحدى العرب إلى أن يتكلموا بلسان الترك .

هذا وكيف بأن يدخل الغريب في باب الفضيلة وقد ثبت عنهم أنهم كانوا يرون الفضيلة في ترك استعماله وتجنبه ؟ أَفَلَا ترى إلى قول عمر رضي الله عنه في زهير : إنه كان لا يعاذل بين القول ولا يتبع حوشى الكلام : فقرن تتبع الحوشى وهو الغريب من غير شبهة إلى المعادلة التي هي التعقييد » .

الفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب

١٨ - مقدمة الناشرين ص ٥

تبه البحث الحديث للصلات بين دراسات القرآن ودراسات النقد
والبلاغة العربية .

نشر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن لمؤلفين مختلفي المذاهب :
أحدهم (الخطابي) أديب لغوي محظوظ .
والثاني (الرماني) متكلم معترف .
والثالث (عبد القاهر) سني شافعى .
التعريف بكل منهم .
تحليل الرسائل الثلاث . فكرة كل رسالة ومنهجها .

١ - الرسالة الأولى بيان إعجاز القرآن : للخطابي ص ٩ - ٧٢ .

إكثار الناس في بيان الإعجاز قديماً وحديثاً . تحدى النبي للعرب بالقرآن .
انقطاع العرب عن معارضته . وجه الإعجاز في هذا . فكرة الصرفة .
دلالة الآيات تشهد بخلافها . الزعم بأن إعجاز القرآن يقوم على ما تضمنه
من إخبار عن الكواكب في مستقبل الزمان . هذا نوع من الإعجاز
ولكنه ليس أمراً عاماً موجوداً في كل سورة . القول بأن الإعجاز من
جهة البلاغة . هذه فكرة قائمة على التقليد . فكرة اختلاف أجناس
الكلام وتباين درجاتها في البلاغة . بلاغات القرآن حازت من كل قسم
حصة (من أعلى طبقات الكلام ومن أوسطه وأدناه) .

لم تذر على البشر الإتيان بمثل القرآن ؟ إنما صار القرآن معجزاً لأن
جاء بأفضل الألفاظ في أحسن نظم التأليف ، متضمناً أصح المعانى . تحيط
المعاندين في أمر إعجاز القرآن . عمود البلاغة وضع كل نوع من الألفاظ
التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكال به . أمثلة .
الألفاظ المتقاربة المعنى : العلم والمعرفة ، الحمد والشكر ... إلخ .
بلى ونعم . من وعن . عتق النسمة وفك الرقبة . سيفونيه والكسائي واختلافهما

عند الرشيد . تهيب كثير من السلف تفسير القرآن . حدث النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم إعراب القرآن وطلب معاذ الغريب منه . سر جبن القوم عن معارضته القرآن . سؤال وجوابه . ليست الغواية شرطاً في حدود البلاغة . اعتراضات وأجوبتها . الحذف والاختصار في القرآن . لم مزج القرآن بين الأخبار والأقصاصين والمواعظ والأمثال والحكم في السورة الواحدة . التكرار في القرآن . المعارضنة في الأدب . أمرؤ القيس وعاقمة . أمرؤ القيس والحارث بن التوأم اليشكري . وصف الدليل عند أمرئ القيس والنابغة . تنازع الشاعرين معنى واحداً : الأعشى والأخطل في وصف الخمر . جبلة بن الأبيهم يطلب إلى حسان أن يندم الخمر ثم يمدحها . أبو دؤاد الإيادي والنابغة الجعدي في صفة الخيل . صاحب الفيل وسخف معارضته للقرآن .

وجه في إعجاز القرآن ذهب عنه الناس ، وهو صنيعه بالقاوب وتأثيره في النفوس . عمر بن الخطاب وتأثيره حين سمع سورة طه . عتبة بن ربيعة وتأثيره حين سمع حم السجدة . تأثر الجن بالقرآن .

٢ - الرسالة الثانية : النكث في إعجاز القرآن . للرماني . ص ٧٣ - ١١٣ .

وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات . منها البلاغة .
البلاغة على ثلاثة طبقات . ما كان في أعلىها طبقة فهو معجز وهو
بلاغة القرآن . البلاغة إيصال المعنى إلى القاتب في أحسن صورة من
اللفظ ..

البلاغة على عشرة أقسام : الأول الإيحاز - تعريفه ، إيحاز الحذف
وإيحاز القصر . كثرة إيحاز القصر في القرآن . القصاص حياة . القتل
أنهى للقتل . الإيحاز بلاغة والتقصير عى : الإيحاز بإظهار النكتة بعد
الفهم لشرح الجملة . الإيحاز بإحضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة .
ثلاثة أوجه من الإيحاز . فضيلة الإيحاز .

القسم الثاني : التشبيه - تعريفه . تفاصيل الشعراء والبلغاء فيه . تشبيه
البلاغة وتشبيه الحقيقة . أمثلة وشرحها .

القسم الثالث : الاستعارة — تعريفها . كل استعارة لابد لها من حقيقة أمثلة وشرحها .

القسم الرابع : التلاؤم — تعريفه . المتلائم في الطبقة العليا القرآن كله . فائدة التلاؤم .

القسم الخامس : الفواصل — فواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة . فواصل على الحروف المتجانسة ، وفواصل على الحروف المتقاربة .

القسم السادس : التجانس — تعريفه . تجانس بالمازوجة ، وتجانس بالنسبة .

القسم السابع : التصريف — تعريفه .

القسم الثامن : التضمين — تعريفه .

القسم التاسع : المبالغة — تعريفها . المبالغة على وجوه ستة .

القسم العاشر : البيان — أقسامه الأربع — مراتب حسن البيان .

الإعجاز بترك المعارضة مع توفر الدواعي . الإعجاز بالتحدي . الإعجاز بالصرف . الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة . نقض العادة . قياس القرآن بكل معجزة . أسئلة وأجوبتها .

٣ - «رسالة الشافية» : لعبد القاهر الجرجاني . ص ١١٥ - ١٥٩ ، جمل من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن . ما يتصل بذلك من علم أحوال الشعراء والبلغاء ومراطيتهم وعلم الأدب جملاً . الأصل في التفاضل البياني عند العرب ، ومن عداهم تبع لهم . المحافظ يدعى للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة . دلائل أحوال العرب وأقوالهم حين تلى عليهم القرآن وتحدوا إليه . لم يشك العرب في عجزهم عن معارضته القرآن والإتيان بمثله . الشأن في المعارضات الأدبية . معارضات جرير والفرزدق . الموقف في قريش حين ظهر النبي وتحداهم . قريش كادوا للنبي بكل ضروب الكيد ولكنهم عجزوا في البيان . دلائل أقوال العرب كثيرة : حديث ابن المغيرة . حديث عتبة بن ربيعة . حديث أبي ذر في سبب إسلامه . شبهة وردّها . شبهة ثانية في شأن فحول الشعراء الباهليين . . .

الشرط في المزية الناقضة للعادة . أمرؤ القيس وعلقمة . رأى لعلى بن أبي طالب في السابقين من الشعراء . رأى للحطبيه . تفضيل الأول زهيراً . رأى لعمر بن الخطاب . أقوال لأبي عبيدة وحماد . الطبقه الأولى من فحول الشعراء الجاهليين .
وجوه التفضيل والتقديم .

بطلان الاحتجاج بمن جاء بعد زمان النبي صلى الله عليه وسلم . ما جرى بين « ابن ميادة » و « عقال » . دعوى معارضه القرآن من بعض المتأخرین .

شبهة أخرى في عجز العرب وردها . إبداع الشعراء في بعض الفنون دون بعض .

المثار من الكلام كذلك . كان التحدى إلى أن يحيطوا في أي معنى شاعوا من المعنى بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه . مناقشة الموضوع .

الصرفه وما يلزم القائلين بها . مناقشة الموضوع .
الموضوع لا يحسنه إلا ذو الطبع المستعد والقلب المفتح .

٤ - تعليقات وإضافات : ص ١٥٩ - ٢٠٥ .

(١) تطور اصطلاحات البلاغة إلى القرن الرابع المجري (ص ١٦١ - ١٦٣) . تداخل الدراسات القرآنية والنقدية . الاصطلاحات البلاغية في نشأتها كانت غير محددة . الاصطلاحات التي شاعت في بحوث علماء القرآن والبيان : المجاز - الاستعارة - التشبيه - الإيحاز - التكرار - السجع - التجنيس - الكناية - التعریض - المبالغة .

المؤلفون الأولون : أبو عبيدة - الفراء - الباحظ . مشاركة أصحاب البديع والأدباء في وضع المصطلحات : المبرد - ثعلب - ابن المعتر وكتاب البديع . الأبواب التي ذكرها الرمانى كانت خلاصة ما نجم من ضروب البديع والبلاغة عند سابقيه ومعاصريه .

أبواب البلاغة عند أبي هلال . المتأخرون من البلاغيين – أسامة ابن منقذ – ابن أبي الإصبع .

(ب) تعليلات من جاءوا بعد الرماني على آرائه البلاغية واقتباسهم من تلك الآراء (ص ١٦٤ – ١٩٦) :

الباقلاني وأقسام البلاغة العشرة . مناقشته للموضوع .

ابن رشيق يشير إلى رأى الرماني في البلاغة والإيمجاز .

ابن سنان يوافق الرماني في رأيه في الإيمجاز . أبو هلال وابن سنان في شواهد الإيمجاز . أبو هلال وأوجه التشبيه . الاستعارة عند ابن رشيق وابن سنان والفخر الرازي وابن أبي الإصبع ، ويحيى ابن حمزة العلوى . مناقشاتهم لآراء الرماني . مناقشة ابن سنان رأى الرماني في التلاؤم ، وفي وجه إعجاز القرآن . مناقشة ابن الأثير لرأى ابن سنان . آراء أبي هلال والباقلاني وابن سنان وابن الأثير والعلوى في السجع . التجانس وحسن البيان والمطابقة وآراء العلماء فيها . السيوطى ينقل عن الرماني في وجود إعجاز القرآن .

(ج) خلاصة فكرة عبد القاهر في إعجاز القرآن بنظمه (ص ١٩٧ –

. ٢٠٥)

لا يكون عجز حتى يثبت معجزة عنه معلوم . الرصف الذى طواب العرب بالإثبات بكلام عليه لابد أن يكون وصفاً ند تجد بالقرآن وأمراً لم يوجد في غيره ولم يعرف قبل نزوله . لا يجوز أن يكون ذلك في الكلمة المفردة ، ولا في معانى الكلمة المفردة ، ولا في تركيب الحركات والسكنات . الأدلة على كل هذا . بطلان القول بالصرف . لا يمكن أن يجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز . إذا امتنع كل ذلك لم يبق إلا أن يكون الإعجاز في النظم والتأليف . الاستعارة والكناية والتضليل وسائل ضرورة المجاز من مقتضيات النظم فهى دخلة فيها به الإعجاز . المزية المطلوبة في هذه الباب مزية فيها طريقه الفكر والنظر . ليس الإعجاز باستعمال الفصيح أو الإكثار من الغريب .

فهرس الأعلام

- ابن قتيبة = عبد الله بن مسلم ٥٦
 ابن كثير ٤٨ ، ٥٦ (٥)
 ابن المبارك ٣٣
 ابن مسعود ٥٢ ، ١٨٢
 ابن المعتر ١٦٣ ، ١٦٢
 ابن المغيرة ١٢٢ ، ١٨
 ابن ميادة ١٣٦ ، ١٣٦ (٥)
 ابن النحاس = عبد الرحمن ٥١
 أبو إسحاق ٥١
 أبو الأسود الدؤلي ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ (٥)
 أبو أسيدة الديبي ٤٣ (٥)
 أبو أمية الطرسوسي ٥١
 أبو بكر (رضي الله عنه) ٥٦
 أبو بكر الباقلاني ١٥٠
 أبو بكر عاصم ٥٨ (٥)
 أبو بكر بن دريد ١٠
 أبو بكر السراج ١٠
 أبو تمام ١٣٢ ، ١٧٧
 أبو جهل بن هشام بن المغيرة ١٢٢
 أبو حامد الإسفلائي ٩
 أبو الحسن الخلعي = على بن الحسين ١١
 أبو الحسن محمد بن الحسن ١١
 أبو الحسن بن الحسين (القاضي) ١٥
 أبو الحسن الرمانى = على بن عيسى
 أبو حيان التوحيدى ١٠ ، ١١ (٥)
 أبو حية التميري ٩٥ (٥)
 أبو خازم ١٣٩
 أبو خراشة ٤٢
- ابن أبي الإصبع العدواني ١٠ ، ٣١ ، ٣١ ، ١٨٠ ، ١٧٤ ، ١٦٣ ، ٥٨٥
 ابن الأثير = ضياء الدين ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩١
 ابن الإخشيد ١٠
 ابن الأعرابي ٤١ ، ٤٧ ، ٤٧ ، ١٣٩ (٥)
 ابن تغري بردى ١٢ (٥)
 ابن الخطاب ٤٧
 ابن الخطاب = عمر بن الخطاب
 ابن خلkan ٩
 ابن دريد = أبو بكر
 ابن رشيق ١٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٧ ، ١٩٥ ، ١٩٢
 ابن السكيت ٤٠
 ابن سنان الخفاجي ٧ (٥) ، ١٠ ، ٧٦ (٥) ، ٩٥ ، ٩٨ (٥) ، ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٧٠ ، ١٦٨ ، ١٨٣ ، ١٨١ ، ١٧٩ (٥) ، ١٨٨ ، ١٨٥
 ابن عباس ٣٦ ، ٥١ ، ١٣١ ، ١٣١ (٥)
 ابن العماد ٩ ، ١١ (٥)
 ابن الفارسي - محمد بن القاسم ٥٦

- أبو خليفة ٤٧
 أبو دؤاد الإيادي ٦٥ ، ١٣٠ ، ١٣٤
 أبو ذر الغفارى ١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥
 أبو رجاء الغنوى ٢٣ ، ٦٤ ، ٦٥
 أبو سعيد المالىنى ١٥ (٥)
 أبو الشعثاء ٣٠
 أبو طاهر السانى ٩ ، ١٢
 أبو العالية الرياحى ٣٢ ، ٣٣
 أبو عامر الخضر بن أحمد ١٣٩ (٥)
 أبو العباس ٤١ ، ٤٢ ، ٤٧
 أبو العباس الأصم ٨
 أبو العباس بن سريج ٤٩
 أبو العبر ٥٧
 أبو عبيدة ٥٩ ، ١٣١ ، ١٦١
 أبو عكرمة ٣٣
 أبو على بن أبي هريرة ٨
 أبو على الفارسى ١٢
 أبو عمر ٤١ ، ٤٦ ، ٤٧
 أبو عمر الزاهد ٨
 أبو عمرو ٤٩
 أبو عمرو البساك ٨
 أبو عمرو بن العلاء ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٧
 أبو غسان مالك بن غسان المسمعي ٥٩
 أبو الفرج الواوء ١٧٨ (٥)
 أبو المغيرة = الوليد بن ربيعة ١٢٤
 أبو المكارم ٤٢
 أبو مليكة = الخطيبة ٦٤
 أبو مليكة (٥) ١٣٢

أبو نصر الشيرازى ١٥ (٥)
 أبو هريرة ٣٥
 أبو هلال العسكرى ٧ (٥) ، ١٦٣ ، ٢٩
 (٥) ، ١٣٩ (٥) ، ١٦٣ ، ١٨٧ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٩
 أبو الوليد = عتبة بن ربيعة ٥٧
 أبو اليانبى ٥٧
 أحمد بن إبراهيم بن مالك ٣٠
 أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور ١٥
 أحمد بن سليمان النججار ٨
 الأخطل ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥
 الأزهري ٤٨
 أسامة بن منقذ ١٦١
 إسحاق بن إبراهيم ٣٣
 إسرائيل ٥١
 الإسفراينى = أبو حامد
 إسماعيل بن محمد الصفار ٨ ، ٣٤
 الأشعري ١٢
 الأصم ٥١
 الأصمى ٣٤ ، ٥٧
 الأعشى ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٣٢
 ١٣٣ ، ١٢٧
 الأفوه الأودى ١٣٤
 أم جندب ١٢٩
 امرؤ القيس ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١
 ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٢٩ ، ١٢٧ ، ٨٦
 ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٠ (٥)
 ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٣٦ ، ١٧٦
 ١٧٧
 أمير المؤمنين = على بن أبي طالب ١٣٤
 أمير المؤمنين ١٣٠ ، ١٣٤ (٥)

جبلة بن الأئم الغساني ٦٥

الحرجاني ١٩٢

جرول = الخطيبية

جرير ٢٥ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،

١٤٣ ، ١٣٢

عفرا بن سليمان ٣٢ ، ٣٣

(ب)

الباخرزي ١٢ (٥)

باقل ١٠٢

الباقلاني = أبو بكر

الباقلاني ٦٣ (٥) ٩٥ (٥) ،

١٨٧ ، ١٦٤ ، ١٠٤ (٥)

البحتري ١٣٢ ، ١٤٠

البراء بن عازب ٣٣

بروكمان ١٠ ، ١١ (٥) ، ١٣

البستي = حمد بن محمد

بشار بن برد ٤٦ ، ٥٧ ، ١٣٩ ،

١٤٣ ، ١٤١

ينو عبد المطلب ١١٨

ح

الحارث بن حلزة ٤٦ ، ١١٢

الحارث بن التوأم اليشكري ٥٩ ، ٦٠

٦١ ، ١٣٠

الحافظ السلوى = أبو طاهر السلوى

الحاكم النيسابوري ٩

الحجاج ١٦٠

حسان بن ثابت ٦٥

الحسن بن عبد الرحيم ٤٥

الحسن بن علي ١٤٠

الحسن بن محمد الكرابيسي ٩

الحسن بن هانئ ٤٦

الخطيبة ١٣١

حكيم بن المسيب ٤٩

حمد الرواية ١٣٢ ، ١٣٣

حمد بن إبراهيم بن مالك ٣٠

حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ٨

١٢ ، ١١

حمزة (رضي الله عنه) ١٢٣

ت

التبريزى ٩٢

التوحيدى = أبو حيان

تيمور = أحمد بن محمد بن إسماعيل

ث

الشعالى ٩

ثعلب ١٦٢

خ

خالد بن صفوان ١١٨ ، ١٣٧

خالد بن يزيد ٥٦

الحضر بن أحمد ١٤٠ (٥)

ج

الجاحظ ٤٠ (٥) ، ٩٥ (٥) ،

١٠٦ (٥) ، ١١٨ ، ١٢٩ ،

١٣٩ ، ١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٣٥

، ١٧٩ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٤١

جامع بن شداد ٣٠

ز	الخطابي = حمد بن محمد الخطابي ٩، ١٣، ١٦، ٢١ (٥)
الزبيدي ١١ (٥)	٦٣ (٥)، ٦٥ (٥)، ١٢٧ (٥)
الزجاج ١٠	١٢٩ (٥)
الزنخانى - سعد بن على	الخطيب البغدادى ١١ (٥)
زهير بن أبي سلمى ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٢	خلفاف بن ندبة ٤١ (٥)
زيد بن الخطاب ٨ (٥)	خلف الله ٧ (٥)
زينب بنت الطبرية ٤١ (٥)	الخليل (بن أحمد) ٩٥ ، ١٤١ ، ١٨٤

س

السبكي ٩ ، ١٢ (٥)

السجزى ١٢

السجزى = محمد بن الجهم

السجزى = على بن الحسن

سجستان ١٣٧

السراج = أبو بكر ١٢

سعد بن على الزنجانى

سعيد بن أبي هلال ٥٦

سعيد بن جبير ٥١

سعيد بن نشيط ٥٦

السلفى = أبو طاهر = الخافظ

سلمى بنت كعب بن زهير ١٣٦ (٥)

السمعاني ٨ (٥) ، ٩ (٥) ، ١١ (٥)

الستندوبى ٩٥ (٥)

سويد ٣٣

سيبويه ٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٠

السيوطى ١٠ ، ٢٤ (٥) ، ٢٦ (٥)

١٩٥ (٥) ، ٧٠

د

د عبد ٤٦

ذ

ذو الرمة ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٩٧

١٢٦

ر

الراعى التميري ٤٨

الرماح بن أبرد = ابن ميادة

الرماح بن أبرد ١٣٦ (٥)

الرماني = على بن عيسى

الرماني ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٦ (٥)

٧٥ (٥) ، ٩٥ (٥) ، ٩٥ (٥)

٧٦ (٥) ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦٢ (٥)

١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٨ (٥)

١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٨ (٥)

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨١ (٥)

١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٠ (٥)

١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٥ (٥)

٩٨

رؤبة (بن العجاج) ١١٢ ، ١٩٦

(٥) ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ (٥)
 ١٩٧ (٥) ١٣٩
 عبد العليم (الدكتور) ١٣
 عبد العزيز بن محمد المسكني ٣٣
 عبد الله بن أبي سعد ٦٤
 عبد الله بن أسباط ٣٤
 عبد الله الحجري ١٢
 عبد الله بن سعيد المقبرى ٣٤
 عبد الله الصديق ١٢
 عبد الله بن محمد بن برّكات النحوي ١٢
 عبد الله بن مسعود ٣٠
 عبد الله بن مسلم بن قتيبة (أبو محمد) ٩ (٥) ، ٣٣ (٥)
 عبد الله بن الهيثم ٥٧
 عبيد بن الأبرص ٥٣ (٥)
 عبيد الله بن محمد الحنفي ٥٩
 عبيد الله بن موسى ٥١
 عبيد بن حصين = الراعي التبرى
 عبيد بن حصين ٤٩
 العتابى ٤٦
 عتبة بن أبي هب ٤١
 عتبة بن ربيعة ١٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧١
 عقال ١٣٦
 علقة بن عبدة (الفحل) ٥٨ ،
 ٥٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠
 على بن أبي طالب (رضي الله عنه) ٥٢
 ٧٧ ، ٧٨ ، ١٢٩ (٥)
 ١٤٠ ، ١٣٢ ، ١٣٠

ش

الشاشى = أبو بكر القفال
 الشاشى ٨
 الشافعى ١٢ ، ٣٦ (٥)
 الشيرازى (أبو نصر) ١٣ (٥)
 الشيبانى = عمر بن أبي عمرو
 الشعبي ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥
 الشماخ ٦٥ ، ٩٩

ص

الصفار - إسماعيل بن محمد

ض

ضياء الدين بن الأثير ٧ (٥)

ط

طوفة (ابن العبد) ٤٤

الطرمى ٥٧

طلحة اليامي ٣٣

ع

عاشر أفندي (مكتبة) ٩ (٥)

عاصم الجحدري ٣٢

العباس بن مرداش ٤١ (٥)

عبد الرحمن بن حسان ١٤٠

عبد الرحمن بن عوسجة ٣٣

عبد الرحمن بن النحاس ١٥ (٥)

عبد الرحمن بن محمد المسكنى ٣٤

عبد القاهر الهرجاني ٧ (٥) ، ١١

٩٧ ، ١٨ ، ١٧ (٥) ١٤

القتبي (عبد الله بن مسلم بن قتيبة) ٣٣
 القتال الكلابي ٤٨ (٥)
 قدامة ١٦٣
 القرظي = محمد بن كعب قريش (قبيلة) ٦٠ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣٧ ، ١٢٤ ، ١٢٣
 قس بن ساعدة ١٣٧
 القطامي ١٣٩
 ك
 الكرايسي = الحسن بن محمد الكسائي ٣٤
 كعب بن زهير ١٣٦ (٥)
 ل
 الليث بن سعد ٥٦
 الليثي - نصر بن عاصم
 م
 الماتريدي (أبو منصور) ١٨٨ (٥)
 الماجشون = يوسف بن عبد الله المازني ٥٧
 مالك بن ذينار ٣٢ ، ٣٣
 المؤمن ٣١
 المبرد ٩٥ (٥) ، ١٠٠ (٥) ، ١٦٢ ، ٦٥
 محمد (صلى الله عليه وسلم) ٧٠ ، ١٢٤ ، ١٢٢ ، ٦٥
 محمد أمين ١٥
 محمد بن الجهم السجزي ٣٣ ، ٦٥
 محمد بن الحسن (ابن أخت أبي على الفارسي) ١٢

علي بن الحسن (الفقيه السجزي) ١٢ ، ٩
 علي بن الحسن الخلعى (القاضى) ٧٣ (٥)
 علي بن عبد العزيز (القاضى) ١١
 علي بن عيسى = الرمانى
 عمر بن أبي عمرو الشيبانى ٤٢
 عمر بن حفص السدوسي ٣٠
 عمر بن الخطاب ٨ (٥) ، ٣٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ١٣١ ، ٧٠
 عمر بن شيبة ٦٥
 عمرو بن العاص ٥٦ ، ٥٧
 عمرو بن كلثوم ، ١١٢
 عنترة (بن شداد) ١٣٩ ، ١٤٠
 عيسى بن عبد الرحمن ٣٣

غ

الغنوى = أبو رجاء

ف

الفخر الرازى ١٨٠
 الفراء ٤٩ ، ٣٢ ، ١٤٧
 الفرزدق ٤١ ، ٢٥ (٥) ، ١١٢ ، ٢٠٣ ، ١٣٢ ، ١٢٦ ، ١١٩

ق

القاسم بن سلام (أبو عبيدة) ٩ (٥)
 القاضى الجرجانى = علي بن عبد العزيز

- ن
- النابغة الجعدي ٦٥
النابغة الذبياني ٦٢ ، ٦٣ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٣٢
النسوي = محمد بن علي بن عبد الله
نصر بن عاصم الليثي ٣٢
النضر بن شميل ٣١
النيسابوري = الحاكم
- هـ
- هارون الرشيد ٣٤
هارون بن عبد الله التزيري ٦٥
هشام بن أدهم المازني ٦٤
الهيثم بن خالد المنقري ٣٣
الواوae (١٧٧) ١٧٧ (٥)
الوليد بن عبد الملك ٦٢ ، ٦٣
الوليد بن عقبة ١٢٥
الوليد بن المغيرة ١٢٢
- ى
- ياقوت الحموي ٨ (٥) ٩ ، ١١ هـ ١١ ، ٩ ، ٥ (٣٩)
يجي بن بكر ٥٦
يجي بن حمزة العلوى ٧ (٥) ، ١٨١ ، ١٩٢
يجي بن سليمان الكاتب ١٣٢
يوسف (النبي) ٤٢
يوسف بن عبد الله الماجشون ٦٥
- ٩
٥٤ ، ٥٧
١٢
(٥) ٧
٣٢
٦١ ، ٥٩ ، ٤٥
٣٤
٥٩ ، ٥٧
١٤
١١٣ هـ
٣٢
٧
٦١
١٢٣
٣٢
٣٤
٩٨ (٥)
٣٢ ، ٩
٦٢
٣٠
١٩٧ ، ٥٦ ، ٥٥
١٣٢
٥٣
١٠١
- محمد بن الحسن المقرئ
محمد بن الحسين بن عاصم
محمد بن حيان الفهري
محمد زغلول سلام
محمد بن سعدويه
محمد بن سلام الجمحى
محمد بن سهل العسكري
محمد بن الصباح المازني
محمد بن عبد العزيز الأنصاري
محمد بن عبد العزيز عبد القادر
محمد بن عبد الله بن الجينيد
محمد بن علي بن عبد الله النسوى
محمد بن القاسم بن الحكم
محمد بن كعب القرظى
محمد بن النضر
محمد بن وهب الشقى
محى الدين عبد الحميد
مرجليوث
المسكى = عبد العزيز بن محمد
مسلمة بن عبد الملك
السعودى
المسمعى = أبو غسان مالك بن غسان
مسيلمة ١٩٧ ، ٥٦ ، ٥٥
النصرور ١٣٢
المنقري = الهيثم بن خالد
مهلهل بن ربعة
موسى

فهرس الم DAN

٨	العراق	٧ (٥)	إستانبول
١٣	عليكروه	٩ (٥)	الآستانة
		١٢ (٥)	الإسكندرية
		٩، ٥	
١٥	القدس		ب
ك			
(٥٨)	كابل	١٢٢	بابل
		٧ (٥)	باريس
ل		٨ (٥)	بست
١٣	ليدن	٨	البصرة
		١٠، ٨	بغداد
م		١٣	عمبای
١١٤، ٦	مكة		
٤٣	میافارقین		
			ح
ن			
٨	نيسابور	٨	المجاز
			خ
ه			
١٣	الهند	٨	خراسان
و			
١٠ (٥)	واسط	١٠	سامرا

فهرس القوافي

الشاعر	القافية	رقم الصحيفة
	حرف الهمزة	
الحارث بن حلزة	الولاء	٤٦
	— الباء —	
الشاعر	خائب	٤٨
حسان بن ثابت	يشرب	٦٥
» »	يعزبُ	٦٥
» »	يطلبُ	٦٥
» »	فيذهب	٦٥
بشار	كواكبه	١٣٩
امرأة القييس	المعدب	١٢٩
أبو تمام	واللعيب	١٩٢
النابغة الذبياني	الكواكب	٦٢
» »	بأباب	٦٢
» »	جانب	٦٢
علقمة بن عبدة الف محل	التتجنب	١٢٩
» » »	ملهيب	٥٩
» » »	مذهب	٥٩
» » »	المحلب	٥٩
	المهذب	١٣١
امرأة القييس	منعف	٥٨
» »	جندب ١	١٢٩ ، ٥٨

الشاعر	القافية	رقم الصحيفة
— التاء —		
بشار بن برد	الزيت	٥٧
» «	الصوت	٥٧
— الجيم —		
أبو دؤاد	اضريح	١٣٠
»	خروج	١٣٠
»	دموج	١٣٠
	دارجا	٥٧
الشاعر		
	بالفرج	٤٨
»	الخشوج	(٩١) (٥)
— الخاء —		
ابن ميادة	يسبح	١٣٦
» «	وتملح	١٣٦
عقال	وي Mizح	١٣٦
»	طفح	١٣٦
»	أوضحوا	١٣٦
»	تبήجح	١٣٧
جريير	راح	١٤٣
— الدال —		
طرفة	المتشدد	٤٤
آخر	بالبرد	١٧٦
»	العنافق	١٩٢
— الراء —		
الشاعر		
	شعر	٤٧

الشاعر	القافية	رقم الصحيفة
»	قبر	٩٥
مهلهل	الفرار	٥٣
البحترى	العمر	١٤٠
الشاعر	جاذرا	١٧٦
الحارث	استعارا	٦٠
»	استطارا	٦٠
»	الاحتفار	٦٠
»	حمارا	٦٠
»	عشارا	٦٠
»	فخارا	٦١
»	جارا	٦١
امروء القيس	استعارا	١٢٩
ذو الرمة	القطارا	٢٥
»	كبارة	٢٥
»	الخيارا	٢٥
»	الخوارا	٢٥
أبوعمرو الشيباني	بأعسرا	٤٣
الراعي التميري	بالسور	٤٨
الشاعر	ميسرا	٤٢

— العين —

خناف بن ندبة	الضبع	٤١
—	شسعا	٦٧
—	المملَّع	٤٤

الشاعر	القافية	رقم الصحيفة
— القاف —		
الشاعر	الخلق	١٦٦
»	تفق	١٦٦
رؤبة	الخترق	١٩٦، ١١٢
»	الحفق	١٩٦، ١١٢
»	الخرق	١٩٦، ١١٢
— اللام —		
أبو خازم	الرجل	١٣٩
بعيد	المثلا	١٧٨
أمرؤ القيس	نابل	٤٦
»	لبيتلى	٦٢
»	بكلكل	٦٢
»	بأمثل	٦٢
»	بيذبل	٦٢
»	هيكل	١٧٢
— الميم —		
عبد الرحمن بن حسان	يدوم	١٤٠
الشاعر	رميم	٩٥
»	رميم	١٨١
»	ييم	٩٥
»	قديم	١٨١، ٩٥
الأخطلل	ملشوم	٦٤
»	المزكوم	٦٤
الأعشى	كراما	٦٤

رقم الصحيفة	القافية	الشاعر
٦٤	الزَّكَاما	»
٤٣	غَنَاهَا	أبو أسيدة الدبيري
١٩٢	الْتَام	الشاعر
١٣١	يَشْتم	الأعشى
١٣٩	الْمَرْنَم	عنترة
١٣٩	الْأَجْذَم	»
— النون —		
٥٩	وَهُنَا	امرؤ القيس
٥٣	أَيْنَا	عبيد بن الأبرص
١٠٠	الْبَحَاهِلِينَا	عمرو بن كلثوم
— الهاء —		
٤١	أَكْلَه	الفرزدق أو زينب بنت الطبرية
٥٤	نَعِيمَهَا	»
٤٩	مَنْتَهَا	
— الياء —		
١٣٩	الصَّادِي	القطامي

فهرس الكتب

الواردة في أصل الكتاب وهوامشه

اسم الكتاب	مؤلفه	الصحيحة
— — —		
الإتقان في علوم القرآن	السيوطى	(٢٩) (٥) (٢٨، ٢٤)
أثر دراسات القرآن في تطور النقد العربي	محمد زغلول سلام	(٥) ٧
إرشاد الأريب	ياقوت الحموى	(٥) ٩
أسرار البلاغة	عبد القاهر الحرجاني	١٢ ، ١١
الاشتقاق الصغير	علي بن عيسى الرمانى	١١
الاشتقاق الكبير	» » «	١١
إصلاح غلط المحدثين	الخطابي	٩
الاعتصام	الخطابي	٩
إعجاز القرآن	الباقلانى	١٦٤ ، ٩٥ ١٠٤ ، ٩٥
أعلام الحديث	الخطابي	١٦٦ (٥) ، ١٨٧
الأغانى	أبو الفرج الأصبهانى	٩ ، ٥٣ ، ٤١ ، ٢٤ ، ٩
أغراض كتاب سيبويه	علي بن عيسى الرمانى	١١
النفات القرآن	» » «	١١
ألفات القرآن	» » «	١٠
الألفاظ المترادفة	» » «	١١
الإمتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدى	١١ (٥)

الصحيحة	مؤلفه	اسم الكتاب
٩ (٥)، ١١ (٥)	السمعاني	الأنساب
١١	علي بن عيسى الرمانى	إيجاز في النحو

- ب -

٨٥ (٥)، ١٧٣، ١٨٠	ابن أبي الإصبع	بدائع القرآن
١٩٣، ١٦١	ابن المعذري	البديع
٩ (٥)، ١١٢، ١١٢ (٥)	السيوطى	بغية الوعاة
(٥)		
١١، ٩ (٥)	الخطابي	بيان إعجاز القرآن
٩٥، ١٠٦ (٥)	الحافظ	البيان والتبين
١٦٢، ١٦١ (٥)، ١١٨		

- ت -

١١ (٥)	الخطيب البغدادى	تاريخ بغداد
٩ (٥)	الذهبى	تذكرة الحفاظ
٩ (٥)	الخطابي	تفسير أسماء الرب
١٠	الرمانى	التفسير الكبير
٤١		التنبيه

- ج -

١٠، ١٠٤	الجامع في علوم القرآن	الرمانى
٨ (٤١)، ١٠٥، ١٦٢	الحافظ	الحيوان
٤١، ٥ (١٠٣)	البحترى	الحماسة
٩ (٥)، ١١٢ (٥)	البغدادى	خزانة الأدب
١٤ (٥)	القاضى أبو الحسن الخلعى	الخلعيات

اسم الكتاب	مؤلفه	الصحيفة
— د —		
دلائل الإعجاز	عبد القاهر الجرجاني	١٦ ، ١١ ، ٧ (٥)
		١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٨ ، ١٧
		١٩٧ (٥) ، ١٣٩
دمية القصر	البخارزى	(٥) ١٢
ديوان الأعشى	ط geyer	(٥) ٦٤
ديوان البحتري		(٥) ١٤٠
ديوان طرفة	طرفة بن العبد	(٥) ٤٤
ديوان عبيد	عبيد بن الأبرص	(٥) ٣١ (٥) ٥٣
ديوان المعانى	أبو هلال العسكري	١٣٩
ديوان علقمة	علقمة بن عبدة	١٢٣
— ذ —		
ذكر المعتزلة	المرتضى	(٥) ١١
— ر —		
الرسالة الشافية	عبد القاهر الجرجاني	١٧ ، ١١ (٥) ٩٧
— س —		
سر الفصاحة	ابن سنان الخفاجي	٧ (٥) ٧٦ (٥) ٧٦
		(٥) ٩٦ ، ٩٥ (٥)
		١٧٥ ، ١٧٠ ، ١٦٦
		١٨٨ ، ١٨١
سن أبي داود		(٥) ٩
— ش —		
شدرات الذهب	ابن العماد	٩ (٥) ١١ (٥) ٩
		(٥) ١٢

الصحيفة	مؤلفه	اسم الكتاب
٩	الخطابي	شرح الأدعية المأثورة
١٠	»	شرح أسماء الله الحسنى
١١	الرمانى	شرح الألف واللام
٩	الخطابي	شرح البخارى
٩٥ (٥)	التبريزى	شرح حماسة أبي تمام
٩	الخطابي	شرح دعوات لأبي خزيمة
٥٨ (٥) ٥٩، (٥)		شرح ديوان امرئ القيس
٤٨ (٥)	السيوطى	شرح شواهد المغنى
١١	الرمانى	شرح كتاب سيبويه
١١		شرح كتاب الموجز
١١	الرمانى	والأصول لابن السراج
١١	»	شرح كتاب المدخل للمبرد
١١	»	شرح كتاب المقتصب
١١	»	» المسائل للأخفش
١١	»	» مختصر الحرمى
١٠	»	» معانى القرآن للزجاج
٤١ (٥)	ابن يعيش	» المفصل
٤١ (٥)	ابن قتيبة	الشعر والشعراء
٤٦ (٥)، ٥٩	لويس شيخو	شعراء النصرانية
٦٤ (٥)	نشر صالحانى	شعر الأخطل

— ص —

٧ (٥)، ٥٣، (٥)،	أبو هلال العسكري	الصناعتين
١٧٧ ، ١٨٧		

— ط —

١١ (٥)	الزبيدي	طبقات النحوين
--------	---------	---------------

الصحيفة	مؤلفه	اسم الكتاب
١٢ (٥)	السبكي	طبقات الشافعية
٧ (٥)، ١٨١، ١٩٢	بحي بن حمزة العلوى	الطراز

- ع -

٩	الخطابي	العروسي
٩	»	العزلة
(٥)٤٤، (٥)٥٩، (٥)٦٢	»	العقد الثمين
٥٩، ١٣١، ١٣٢	ابن رشيق	العمدة
١٩٥، ١٩٢، ١٧٥، ١٦٤		
١١	عبد القاهر الجرجاني	العامل المائة
(٥) ٩	ابن شاكر	عيون التواريخ

- غ -

(٥) ٩	ابن سلام	غريب الحديث
(٥) ٩	ابن قتيبة	غريب الحديث
٩	الخطابي	غريب الحديث
٩	الخطابي	الغنية عن الكلام وأهله

- ك -

٩٥ (٥)	المبرد	الكامل
١٤٠	سيبويه	الكتاب

- ل -

٤٣، ٤١، ٣٩	ابن منظور	لسان العرب
(٥)٤٦، (٥)٤٧		

- م -

١٠٢	المبرد	ما اختلف لفظه
١١	الرماني	المبتدأ في النحو

الصحيحة	مؤلفه	اسم الكتاب
١٨٥ ، ١٩١	ابن الأثير	المثل السائر
١٧١	أبو عبيدة	مجاز القرآن
١١	(المسائل المفردة من كتاب سيبويه) الرمانى	
٩	الخطاطي	معالم التنزيل
٩	"	معالم السنن
١٦١ ، ٥	الفراء	معانى القرآن
١٦٢	ابن قتيبة	المعانى الكبير
(٥) ١١ ، ٤٣ (٥) ١١	باقوت الحموى	معجم الأدباء
(٥) ٤٣	" "	معجم البلدان
١٥ ، ٢٩ ، ٢٩ (٥) ١٥	القاضى أبو الحسن	المغنى
(٥) ٦٨ ، ٢٩ (٥) ٢٩		مفتاح السعادة
(٥) ٥٨ ، ٥٩ (٥) ١٢	المرزبانى	الموشح

— ن —

(٥) ١٢	ابن تغري بردى	النجوم الزاهرة
١١	الرمانى	نكت سيبويه
١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٦٢ ، ١٦	الرمانى	النكت في إعجاز القرآن
(٥) ١٥٢		
١٨٠	الفخر الرازي	نهاية الإيجاز

— ه —

١١	الرمانى	الهباء
----	---------	--------

— و —

(٥) ٩ ، ١٦ (٥) ٩	ابن خلkan	وفيات الأعيان
----------------------	-----------	---------------

— ي —

٩	الشعالبى	يتيمة الدهر
---	----------	-------------

مطابع دار المعرف بمحضر

١٩٧٦

Dhakha'ir Al-'Arab

١٦

THALATH RASĀ'IL

FI E'JĀZ ALQOR'ĀN

Arrommānī, Alkhattābī, Aljorjānī

(Trois Thèses sur le Miracle du Coran)

Edition Critique et Commentée

Par

M. Khalafallah Ahmed

M. Zaghlūl Sallām

DAR AL-MAAREF

٥٥ قرشاً

دَخْلُ الْعَرَبِ

١٦

تَرْمِيمَةِ مَسَانِدِ الْقُرْآنِ

كَارِيْجَه

٢٠٠٧
رَعْ